الفوضى في حضارة الشرق الأوسط، والحلول المحتملة

الفوضى في حضارة الشرق الأوسط، والحلول المحتملة

مختارات من مرافعات القائد عبدالله أوج آلان

منشورات قسم الترجمة العربية في لجنة الإعلام والتنوير

مدخل

ثمة حقيقة واقعة تشير إلى أن منطقة الشرق الأوسط تشهد حرباً عالمية ثالثة على نحو خاص بها. لكن هذه الحرب تتميز بخاصيات مختلفة عن الأبعاد العسكرية والسياسية الكلاسيكية. وإلى جانب صحة تعريفها بصراع الحضارات، إلا إنه لا يفسِّر مضمونها بالشكل الصحيح. حيث لا يكشف النقاب على نحو كافٍ عن أبعادها التاريخية والاجتماعية. كذلك ثمة غموض في تحديد الأطراف المعنية فيها، وفي أساليبها ومآربها. ورغم كثرة التطرق إلى المخططات والمشاريع المتعددة فيها، إلا إنها الحرب الأكثر عشوائية وافتقاراً للتخطيط، وكأنها تسير من تلقاء نفسها، أو كأنها وجهاً لوجه أمام حرب تهدف إلى خلق الفوضى، لا غير.

إن مجتمع الشرق الأوسط (ودوله) يعبّر بكل معنى الكلمة عن ركام متكدس من المشاكل العالقة. فالمشاكل المتنوعة المكبوتة والمتراكمة منذ الماضي الغابر، قد تركت المجتمع مقطوع الأنفاس. أما الأنظمة المفروضة عليه من قِبَل النظام الرأسمالي بغرض إيجاد الحلول لها، فقد أضحت بحد ذاتها منبعاً لخلق المشاكل. فلا الدول المعنية قادرة على إيجاد الحل، ولا هي تفسح المجال للقوى الممتلكة للحل – الداخلية منها والخارجية – بأن تقوم بدورها. إن تسمية المشاكل بأنها مجرد أزمة إسلامية، هو تعبير خاطئ للغاية. حيث ثمة ذهنيات سائدة تتخطى نطاق الأديان التوحيدية، وتمتد بجذورها لتصل إلى العهد النيوليتي.

تشكلت الكثير من النُّسُج والأنظمة الاجتماعية التي لا يمكن تفسيرها بالظاهرة القومية. إذ تكاد كل عائلة، وليس كل عشيرة وحسب، تتضمن اختلاطاً وتعقيداً أشبه بمشكلة الدولة. تعاني الهوّةُ الشاسعة بين المرأة والرجل اغتراباً حاداً، بقدر ما تعانيه الهوة الكائنة بين المجتمع والدولة. وكأنه ثمة فوضى يعج فيها حشر من الصُّمُّ والبُكم والعميان الذين لا يتفاهمون فيما بينهم، وقابعون في قاع برج بابل، مثلما تقول الأسطورة. وكأن تلك الأسطورة انتعشت مرة أخرى في نفس المكان. حيث تَبذل ما يناهز السبعين من القوى القومية جهودها ومساعيها. لكن الخلل يتفاقم يوماً بعد يوم. فالصراع العربي – اليهودي المتبقي من أيام الفراعنة، لم يفقد من وتيرته شيئاً. كذلك تسير التمشيطات المرتبة تجاه الكورتيين (الكرد) بنفس الهمّة والسرعة منذ أيام الملوك السومريين.

إذن، والحال هذه، من الضروري البحث عن جواب أكثر وضوحاً للسؤال التالي: كيف تصل المشاكل مثل هذه الحالة في الشرق الأوسط؟

يشكل مجتمع الشرق الأوسط الخلية النواة لجميع المجتمعات. وهو يستمد قوته من ماهيته هذه. نظريات الخلية النواة دارجة على المجتمعات أيضاً. لقد أبدى النظام الرأسمالي قدرته على التوسع والانتشار من ثقافة القارة الأمريكية إلى أوستراليا الباسيفيكية، ومنها إلى الثقافة الهندية والصينية واليابانية؛ ومن أفريقيا إلى الثقافتين الروسية والسيبيرية الجنوبية. لقد انتصر في حرب هي ضرب من ضروب صراع

الحضارات والثقافات. إلا أن نفس النظام لم يستطع تحقيق فتوحاته تلك في منطقة الشرق الأوسط، رغم محاولاته العديدة المتعاقبة منذ أعوام 1800. ولربما مر فيها بحالات أكثر شحناً بالمشاكل من الحروب العالمية. حيث ثمة عناصر تتجاوز حروب الصهر والإذابة. لا شك في أن السبب الأساسي لكل المصاعب المتلقاة ينبع من النسيج الاجتماعي للمنطقة.

إن المَلَكية والإقطاعية اللتين قضت عليهما الثورة الفرنسية تشبهان الشارلية القيصرية والإقطاعية التي قوَّضتهما وأطاحت بهما الثورة الروسية. لكن كلتا الثورتين انشغلتا أثناء ذلك ببنى فوقية لا نسيج غائر لها. مع ذلك، فتشخيص تلك البنى وتفكيكها تضمَّن مصاعب جليلة. بيد أن هاتين الثورتين قامتا في البنى الفوقية، ولم تتخلصا من الالتحام الأعظمي بالنظام الرأسمالي.

وناهيك عن حل مجتمع الشرق الأوسط وبنيته الفوقية للمشاكل، بل انتهى فَرْضُ هذه النماذج عليه بتجذرها أكثر فأكثر. لذا، لا يتبقى من الأمر سوى ضرورة الفهم الحسن لطبيعة صراع الحضارات. الأصح من ذلك هو التساؤل: ما الذي يبقي على حضارة الشرق الأوسط عقيمة ومقاومة عنيدة لهذه الدرجة؟ لماذا تُحرَز النتائج المرجوة في كافة الحضارات الشهيرة في العالم لدى المداخلة فيها، في حين أن الحلول الشبيهة تلقى الفشل الذريع في الحضارة الشرق أوسطية؟

يكمن الرد على هذه التساؤلات في حقيقة الحضارة الأم. فكيفما يشبه الابنُ أمَّه بالضرورة – ولا تشبه الأمُّ ابنَها – فالحضارات الوليدة من الحضارة الأم، لا يمكنها أن تشبِّه أمها بنفسها. بل هي مرغمة على التشبُّه بحضارتها الأم من بعض النواحي بأقل تقدير. إذا ما رجعنا ثانية إلى مثال الخلية النواة، نجد أنه من الممكن العثور على البنى الجينية (الوراثية) الموجودة في جميع الخلايا المتكاثرة ضمن الخلية النواة. في حين أنه من المحال العثور على كافة جينات (مورثات) الخلية النواة في الخلية المتكاثرة منها. لا شك في أن المقارنة المفرطة للظاهرة الاجتماعية بالظواهر البيولوجية تتضمن أخطاء فادحة. لكنها، مع ذلك، تزودنا بالسهولة المتوخاة لتَفَهُّم الاتجاهات الموجودة بشكل صحيح. لذا، جلي للعيان مدى ضرورة أن تتقرب حضارة النظام الرأسمالي بعمق وخصوصية أكبر إزاء الحضارة الشرق أوسطية.

يجب النظر أولاً إلى البنية الذهنية، لدى البدء بتحليل الحضارة الشرق أوسطية. فنشوء وتوطد بنى الأديان التوحيدية الثلاثة في هذه المنطقة، يشكل أحد أهم حقائقها. ثمة العديد من المواضيع الأساسية التي يتوجب على السوسيولوجيا الدينية تحليلها في هذه المنطقة. هذا ومن اللازم تحديد خطوط هذه المحاولات عبر السلوكيات الأدبية والفنية الأخرى أيضاً. علاوة على أن رسم الخريطة الذهنية فيها دون تمييزٍ أو فصلِ قيم المجتمع النيوليتي – الذي لا يزال مؤثراً في المنطقة – عن غيرها؛ سيتضمن أخطاء حقيقية. من جانب آخر، لا تزال ظواهر المذاهب والقبائل والعائلة، حقيقة معاشة فيها كوحدات سفلى

لظاهرتَي الأمة والدين الملتحمتَين مع السلطة. أما القوالب الذهنية الناجمة عن الرأسمالية، فلا تجد معناها في المنطقة إلا بعد انكسارها وتحطمها.

إن تناول ودراسة جذور القوالب الذهنية ضمن بدايات التاريخ، بل وحتى قبلها في التعددية الألوهية، وفي العالم الميثولوجي، وخاصة ضمن نطاق العلاقة مع الميثولوجيا السومرية؛ سيساعدنا على الفهم الأمثل لخصال الذهنية المتداخلة فيما بينها. إن ثنائيات القول والعمل، المصطلح والظاهرة، الحقيقة والوهم، الدين والحياة، العلم والأيديولوجيا، الفلسفة والدين، وكذلك الأخلاق والقوانين تشهد تخالطاً وتشابكاً وخراباً وفساداً ولا تمايزاً حاداً في راهن منطقة الشرق الأوسط. حيث تكاد جميع الشرائح الذهنية التي شهدتها البشرية مخزَّنة على شكل ركام متكدس من المشاكل العالقة، مع ما نجم عنها من تلوث. ولا تتوانى البنى اللغوية أيضاً – القديمة منها والحديثة – عن عكس الحالات الذهنية القائمة وتصويرها بكل ما تحتويه من تزمت وتصلّب. هذا وتعاني مصطلحات المماليك والأوطان والقوميات والدول المُبَيَّنة حدودها، والمتأسسة في غضون القرن الأخير؛ من جهالة مركَّزة وضيق أفق حاد.

ثمة تزاوج مشحون بالشوائب والعيوب بين عناصر الذهنية المعاصرة من جهة، وعناصر ذهنية العصور الوسطى والأولى من الجهة الثانية. لذا، فأي قصف للبنى الفيزيائية الطبيعية (على الصعيد السياسي والاجتماعي والقانوني والاقتصادي)، دون قصف البنى الذهنية في واقع الشرق الأوسط؛ لن يُسفِر في مضمونه إلا عن ممارسات وحشية قصوى للمجازر والإرهاب والتعذيب، الرسمية منها وغير الرسمية، مثلما شاهدنا ذلك في يومنا الراهن.

كذلك تشير البنى السلطوية في منطقة الشرق الأوسط إلى فروقات هامة تميزها عن غيرها من الميادين في العالم. كما أن ظاهرتَي الحرب والسلطة ليستا أقل اختلاطاً وتعقيداً من الخصال الذهنية. فرغم كونهما من أقدم المؤسسات القائمة في المنطقة، إلا أن العلاقة بينهما وبين الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تعاني من انقطاع ومفارقات مذهلة. والعلاقات المتبادلة بينها، منفتحة لكل أنواع الديماغوجيات والقمع، من أدقها إلى أغلظها. أما العقلانية (المنطق)، فهي "الربح" الأقل معنى وجدوى. وفيما يخص السوسيولوجيا (علم الاجتماع)، فكأنها مصقولة داخل الروابط الدينية والإثنية والاقتصادية والطبقية والسياسية للحرب والسلطة، كظاهرة بعيدة كل البعد عن التحليل والتفسير. من الصعب الحصول على منظر واقعي للشرق الأوسط، دون القيام بتحليلات صحيحة للسلطة والحرب؛ بدءاً من كونهما مصطلح ديني تجريدي للغاية، وحتى كونهما عصا وهراوة غليظة مسلَّطة.

تتضمن مؤسسات البنى الاجتماعية، وبشكل خاص ظاهرة الأسرة، تشابكاً وتعقيداً، يماثل ما عليه في ظاهرة السلطة، بأقل تقدير. فالرجل والمرأة الشرق أوسطيَّين

يتميزان بتشابك يستلزم بالضرورة تحليلاً خاصاً بهما. وأي تحليل للأسرة والمرأة والرجل الحاكم، من خلال القوالب السوسيولوجية العامة، سيحتوي نواقص مهمة جداً. فالواقع السياسي والأيديولوجي والأخلاقي ينعكس على الرجل والمرأة، بأكثر جوانبه قساوة وحِلكة. والتناقضات القائمة في مؤسسة الأسرة، ليست أقل مرتبة من تلك التي في مؤسسة الدولة. فالأسرة هنا أبعد من أن تكون مؤسسة اجتماعية، وأدنى إلى أن تكون "الثقب الأسود" للمجتمعات. إذا ما وضعنا المرأة تحت عدسة المجهر، لربما تَمَكّنّا من قراءة جميع دراميات الإنسانية فيها.

تتطلب كل من المجتمعية التاريخية والجيومجتمعية (المجتمعية الطبيعية أو الجيولوجية) الاقتراب من المنطقة ودراستها ضمن روابط ديناميكية كثيفة للغاية. فبدون تحليل كل فترة (كل جزء) من فترات (أجزاء) الأزمنة التاريخية والأمكنة الجغرافية؛ لن يكون بمقدورنا الإدراك الكامل لراهننا، ولا للأنظمة الحضارية برمتها. **التاريخ اللامكتوب أهم بكثير من التاريخ المكتوب**. هذا وحكايات الأمكنة غير المذكورة، وغير والمكتوبة، أهم بكثير أيضاً من تلك المذكورة والشهيرة.

وبدون معالجة التخلف الاقتصادي ضمن كافة هذه الروابط المجتمعية، فإن التحليل عبر المبادئ الجافة والمجدبة للنظريات الاقتصادية، لن يجدي نفعاً يذكر.

علاوة على أن تحليل الكل بعد تجزيئه وتشريحه إلى أقسام صغيرة – والذي يعد مرضاً عاماً يسود علم الاجتماع – سينمّ عن أكثر نتائجه تضمُّناً للأخطاء والنواقص، لدى إسقاطه على الفعاليات الحضارية للشرق الأوسط، وفي مقدمتها الاقتصاد. فالتحليلات الاقتصادية المفتقرة لتداوُل ومعالجة "السلطة والحرب" و"الذهنية والمجتمعية" بشكل متداخل، لن تؤدي سوى إلى تجذير الجهل والافتقار للمعلومات أكثر. إذن، ساطع سطوع النهار أن البحث والتدقيق في منطقة الشرق الأوسط، عبر القوالب التحليلية للحضارة الغربية، يحتوي أخطاء وأغلاطاً نظرية وعملية مهمة. والفوضى القائمة حالياً، هي – لحد ما – ثمرة لمثل هذه التوجهات.

لا يمكن لأحد – بعد الآن – إنكار وجود الفوضى في الشرق الأوسط، كموضوع يكثر عليه الجدل في وقتنا الحالي. لكن المؤسف في الأمر هو أنه، لا المُدَّعون بأنهم أصحاب المنطقة الحقيقيون، ولا دُعاتُها الجدد، يتناولونها بتحليلات ذات جدوى. إنهم يخافون. فالتناول الحقيقي لواقع المنطقة لا يعني فقط فتح فوهة "علبة الباندورا Pandora Box"*. بل وسيعني أيضاً ضرباً من ضروب نزول "سفينة نوح" على سفوح "جبل جودي" الجديدة. حينها لن تزدهر الحياة إلا بنسل جديد (سواء على الصعيد البشري أو الأيكولوجي). فالحياة الحالية مرتدية رداء من الرياء والاستبداد، يغيطها من رأسها حتى أخمصها. ومثلما هي مليئة بحيثيات ورواسب التقربات الاستبدادية والاستغلالية المعمِّرة منذ آلاف السنين، فإن مساماتها الاجتماعية محتقنة بكل أنواع الدعارة والفحوش الممتدة

في جذورها إلى دولة الرهبان السومريين المعمِّرة رسمياً خمسة آلاف عاماً. وتلتقط أنفاسها بمشقة بالغة، بحيث – وإن لم تكن ميتة تماماً – تكون بعيدة كل البعد عن الحياة الطبيعية.

تُرى، هل ستسفر الإمبراطوريات الأمريكية (الإسكندراوية المعاصرة – نسبة إلى الإسكندر المقدوني) عن تطورات تذكّرنا بالهيلينية، عبر مشاريعها الشرق أوسطية الأخيرة؟ وهل ستقدر أمريكا عبر تحالفها مع الأرستقراطيين الكرد (مدراء الإقليم العراقي)، أن تخلق مستجدات شبيهة بتلك التي قام بها الإسكندر بتعزيزه للحركة الهيلينية، عبر تحالفاته التي أبرمها مع الأرستقراطيين الكرد الذين كانوا يشكلون بنية خاصة بذاتها داخل الإمبراطورية البرسية؟

الأهم من ذلك، هل من الممكن أن يتكرر الدور الذي لعبته الأصول الكردية الآرية في كونها مهد الحضارة لدى بزوغ فجر التاريخ؟ بمعنى آخر، هل ستلعب دوراً شبيهاً لدورها السابق، أثناء العبور إلى عصر الحضارة الديمقراطية أيضاً في منطقة الشرق الأوسط؟ حيث أنها تمثل بالأرجح دور الأنساب الكردية عبر التاريخ على نحو "التأثير والارتكاس" من الخارج، إزاء الحضارات المجاورة لها. هذا وشهدت تطورات حضارية محدودة العدد في أراضيها. إذ انهمكت بالأغلب بالمقاومة والصمود وحماية الوجود إزاء الاعتداءات والغزوات الخارجية، وذلك على أساس مقاومات الإثنيات (القبائل، العشائر)، والدخول في تحالفات مساعدة على تحقيق مآربها تلك. وهي لا تزال تحافظ على ماهياتها هذه في راهننا أيضاً.

من جانب آخر، لن يكون من السهل المقاومة وصون الوجود وإبرام التحالفات بأساليبها القديمة، تجاه الرأسمالية العالمية الشارعة في شن حملة جديدة. فحتى لو أرادت العوائل الأرستقراطية التقليدية المتواطئة أن تستمر في هذه السياسة، فالشعب لن يكتفي بتلك الأساليب القديمة، بعد أن تجاوز نطاق الإثنية وغدا شعباً ديمقراطياً (شعب النصر serkeftin). وبات من الصعب أن تتحكم به هذه القوة أو تلك.

سيكون من الواقعي أكثر بالنسبة للتحرريين الاجتماعيين، أن يروا في عدم قدرة الكرد – كشعب – على تأسيس دولة كلاسيكية حُسْنَ طالع وفرصة حسنة؛ عوضاً عن تقييمها كخسارة. إذ، كم هو عدد قيم الحرية الاجتماعية، وكم هو عدد التحرريين القادرين على إرضاء شعوبهم بتطلعهم إلى الدولة وتمحورهم حولها؟ كل الشعوب الأمريكية اللاتينية والإفريقية والآسيوية أصبح لها دولها. فهل تمكنت من حل مشاكلها؟ وخلافاً لذلك، ألم تتثاقل مشاكلها أكثر من السابق؟

المهم هنا من الناحية التاريخية، هو توحيد هوية الشعوب المشاعية والديمقراطية كطراز سلوكي أساسي لها، مع إمكانيات وفرص العلم والتقنية، ومأسستها. إن ما تحتاج

إليه شعوب الشرق الأوسط في راهننا، هو الديمقراطية، بقدر حاجتها إلى الماء والهواء والطعام. وأي خيار آخر غير الديمقراطية، لن يقدر على تلبية آمال الشعوب وتأمين سعادتها ورغدها. وقد جُرِّب ذلك طيلة التاريخ. إذا ما استنفر الكرد، الذين يحتلون صدارة هذه الشعوب، كل خصائصهم الاجتماعية وزمانهم التاريخي وأراضيهم التي أصبحت عضواً استراتيجياً مهماً إلى أبعد الحدود في منطقة الشرق الأوسط، وإذا ما سخّروها لصالح بناء الحضارة الديمقراطية ونجحوا؛ سيكونون قدّموا أفضل خدمة لجوارهم،

وللبشرية جمعاء■

الفصل الاول

آ – إمكانية الفهم الصحيح للشرق الأوسط
ما هي المشكلة، وكيف تطورت؟

1 – من المهم تسليط الضوء بما فيه الكفاية على الحلول الاصطلاحية، قبل الحلول المؤسساتية. فإنْ لم نقدر على إعطاء تعريف صحيح للمصطلحات التي تغفو وتصحو المجتمعات عليها في تاريخها وحاضرها؛ فستكون القيمة التنويرية للفرضيات المطروحة بخسة بنسبة ملحوظة. على سبيل المثال؛ أيُّ مرحلة تاريخية، وأي مجتمع سنقدر على تعريفه، ما لم نقم بتحليل سوسيولوجي سليم لمصطلح "الله"؟ لم يكن عبثاً أن دارت أغلب جدالات الأوروبيين حول الثيولوجيا (اللاهوت Theodice) على الصعيد الذهني، لدى خروجهم من إقطاعية العصور الوسطى. لقد ناقشوا حول الـ"ثيو = Theo"، يعني حول "الله"، لدرجة تمكنوا من خلالها الإمساك برؤوس خيط العلم والفلسفة. لقد عاشوا أيضاً مرحلة مُرَكّزة من الإيمان بـ"ثيو" وتقديسه. كما قالوا – وهم على حق – بأنه: "ما دمنا نؤمن به ونقدسه لهذه الدرجة، فالموقف الأصح هو أن نعرف معناه أيضاً". إنهم أبدوا الجرأة والجسارة اللازمة للنقاش بأفكار قادرة على دك دعائم الدوغمائية، والإتيان بما هو جديد.

إذن، كان هناك اللاهوت في أساس الجدالات الفكرية الدائرة أثناء الخروج من العصور الوسطى. كانت الأفكار التي تواجدت حينها باسم العلم والفلسفة، مرتبطة عن كثب باللاهوت. لكن المهم هنا هو استنباطهم النتائج اللازمة من تلك الجدالات للوصول إلى العلم المنطقي والفلسفة المنطقية. أما مُنَظِّرو الإسلام، فعوضاً عن استخلاص النتائج من النقاشات، قاموا بتجميد الفكر عبر تقديسهم للدوغمائية. فالإمام غزالي دحض الفلسفة منذ بدايات القرن الثاني عشر، وأوصد أبواب الاجتهاد وأحكمها، ليؤدي بذلك إلى الضياع في ظُلمات القرون الوسطى. وحتى اليوم أيضاً، ما من أحد يتجرأ على طرح النقاشات في هذا الاتجاه. أو بالأحرى، ما من أحد قادر على إبداء هذه الكفاءة والمهارة.

بيد أن العمق الذهني في المجتمعات الشرق أوسطية، يمتد حتى العصر الميثولوجي. ذلك أنها استخدمت مأثورات الرهبان والأدباء السومريين – أمهر خالقي الميثولوجيا – بأشكالها المطوَّرة والمعدَّلة في الأديان التوحيدية الثلاثة. نحن نعرف أن سيدنا إبراهيم هو مؤسس الدين التوحيدي. وقد ترعرع داخل مَلَكيات "نمرود" في السلالة البابلية. فالكل يعرف أن أباه الموظف – الذي لا تزال ذكراه نابضة في أورفا وهو واقف إلى جانب نمرود – كان حارساً في مجمَّع الآلهة الملوك (Panteon)، وأنه شهد تحولاً ذهنياً كمحصلة للفعل وردة الفعل التي مر بها.

إذن، والحال هذه، كيف سنستطيع فهم الدين الإبراهيمي دون معرفة مجمَّع آلهة نمرود؟ فحتى أكفأ الأساتذة المختصين بعلم اللاهوت يقولون في هذا الصدد: "حطم إبراهيم الأوثان بالفأس. وغضب نمرود، وقال: من الذي حطمها؟ فأجاب إبراهيم: الوثن الكبير هو الذي حطمها. فيقول نمرود: وكيف يحطمها وهو وثن جامد لا روح فيه؟ فيرد عليه: أوَليس الوثن إلهاً؟". هكذا يُكمِلون سرد القصة. إن هذا القول لا يتضمن أية قيمة أكثر من كونه سرداً أسطورياً. وبدون القيام بالتحليل السوسيولوجي للميثولوجيا السومرية، التي تشكل دعامة مجمّع آلهة نمرود، لا يمكننا تعريف الثورية الدينية لسيدنا إبراهيم. وبدون

تعريفها لا يمكننا إدراك الثورات الدينية لسيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا محمد. ورغم وجود هذا الكم الهائل من الجامعات وكليات فلسفة الإلهيات، ومدارس الإمام الخطيب، ومؤسسات الطرائق والديانات في منطقة الشرق الأوسط؛ إلا أن أياً منها لا تقوم بسلوك فلسفة إلهياتية سوسيولوجية. ذلك أن السِّحْر يَبْطُل إنْ قامت هي بذلك. وحينها "ستسقط القبعة وتنكشف الصلعة". وسيتبدى أنه تتوارى ظاهرتان في أساس فكرة الإله الواحد، ألا وهما: التعبير عن وحدة القوة في الطبيعة، والزعيم والمَلِك الهرميان المتناميان في المجتمع. بمعنى آخر، وبالتطوير المستمر دون كلل أو ملل لأسمى معاني مفهوم المجتمع الحاكم، ومفهوم الطبيعة الحاكمة المرتبط بالمفهوم الأول؛ تم البلوغ إلى "الله" ذي الصفات التسع والتسعين. لم يدُر الجدال في هذا الاتجاه أبداً، بل وتَسَيَّس الإله، وتَعَسكر أيضاً بشكل مباشر، بظهور "حزب الله" في اليوم الحاضر. مع ذلك، لا يزال يُبحَث عنه في كبد السماء كخداع للوجود.

تُعالَج مؤسسة النبوة أيضاً بطراز دوغمائي في علم اللاهوت، حيث تُحوَّل إلى سرد تجريدي، وكأنها لا علاقة لها بالتطور الاجتماعي. بيد أن تقاليد الشامان – الشيخ من جانب، ومؤسسة الوزارة كسلطة تنفيذية عليا تابعة للسلطة المَلكية المتنامية من جانب آخر، تطغيان على هذا الكيان. تنشأ النبوة كسبيل حل للمشاكل المعاشة في التطور الحاصل بين كل من الدولة والهرمية. إنه تطور معني بالسياسة، وله أرضية جماهيرية، وقاعدة عملياتية على السواء. وهو يلعب دوره أيضاً في التطورات الجارية بين الحِكمة والقيادة السياسية. المهم هنا هو البحث عن مكانة النبوة في الواقع الاجتماعي، رغم قدسيتها.

وإنْ حصل ذلك، فقد تُعرَف بعض الشخصيات التاريخية على نحو أفضل حقاً. وحينها سيُنوَّر التاريخ. فالسرد الدوغمائي يترك هذين الجانبين في الظلمات الداكنة. ثمة العديد من المصطلحات اللاهوتية المشابهة تقوم بنفس الوظيفة التعتيمية بمعنى القداسة. ومصطلحا "الجنة" و"جهنم" أكثر لفتاً للأنظار بهذا المعنى. حيث تمتد جذورهما حتى الميثولوجيا السومرية. كما أن علاقتهما بتنامي المجتمع الطبقي واضحة للعيان. فبينما يذكّرنا نظام الطبقات العاملة في أغلب الأحوال بجهنم (جهنم كلفظ هي مكان يسمى "هينوم Hinom" في لبنان اليوم، ومعناها: المكان السيء والدنس، مثل وادي الجثث)، فإن مكان عيش الناهبين لفائض الإنتاج يأخذ شكل الجنة طردياً. على كل حال، وبدلاً من الإكثار من هذه الأمثلة، من المهم تنويرها عبر تحليلات علم الاجتماع.

لا يزال النقاش على الفرق بين الميثولوجيا والدين معلقاً على الرف في الأفكار الشرق أوسطية. بيد أن الميثولوجيا بذاتها لم تفسَّر بعد. ويُكتَفى بالقول بأنها مجرد أقاويل وسفسطائيات، لتُترَك جانباً؛ رغم أن هذا الطراز التفكيري احتل – ولا يزال – ذاكرة المجتمعات على مر آلاف السنين، وغدا الشكل الأساسي للتفكير على طولها. بل وأثَّر في كافة الأشكال الدينية والأدبية اللاحقة له، كسرد شعري للتعبير الرمزي عن الحياة المادية للمجتمعات. ما من دين أو أدب إلا واستنهل مصطلحاته من الميثولوجيا. أما تَرْكُ الميثولوجيا جانباً وإهمالها باعتبارها بدعة أسطورية أو ملحمية، فلا يعني سوى حرمان

الذات من أغنى مصادر الثقافة. لا يمكن القيام بتحليل سليم للدين والأدب والفن، ما لم تُولَ القيمة السامية الحقة للميثولوجيا كطراز تفكير خاص بمرحلة طفولة البشرية. نحن بحاجة لإنعاش الميثولوجيا، لا لدحضها وإنكارها.

متى، وبأية أشكال كانت الميثولوجيا المنبع العين للدين؟ هذا أيضاً موضوع جدل قائم بحد ذاته. فمثلما يقال: تتحول الميثولوجيا إلى دين، عندما تصبح حُكماً عقائدياً مطلقاً. انطلاقاً من ذلك، فالتدين منوط بالاعتراف بالميثولوجيا كحقيقة أكيدة. ويتضمن التدين قيمتَين في اتجاهَين: ففي المنطق يؤدي إلى مصطلح "الفكر المطلق"، ليتطور بذلك فكر القَوننة (التشريع)، ويلتحم التشريع الإلهي بقانون الطبيعة تصاعدياً. ومن الجانب الآخر، يعيق بروز فكرة الحركية الديناميكية في الطبيعة والمجتمع، حتى قبل ولادتها. وهكذا يفتح الطريق أمام الفكر المثالي بجانبه هذا.

هكذا ينقطع الفكر عن الظواهر أيَّما انقطاع، ليطرأ عليه بمفرده تطور لا ضابط له ولا قاعدة. يُبعِد الفكرُ المثالي الوالج في مجازفة باطنية لا تنضب، الذهنيةَ الاجتماعيةَ قَدراً آخر عن عالَم الحقائق. ويتحول تطور الفكر الديني إلى دوغمائيات صلبة في العديد من الميادين الأساسية، كالقانون والسياسة والاقتصاد والأخلاق والفن؛ ليكتسب بذلك ماهية تشريعية. إنه في الحقيقة يوفر السهولة الكبرى في الشؤون الإدارية للطبقة الدولتية المتصاعدة. فبإضفاء القيمة القانونية على كل حُكم في الدين، تكون مسألتا التشريع والمشروعية قد حُلّتا معاً. هذه التسهيلات الإدارية التي أمّنها الدين، هي الأساس وراء السمو به لهذه الدرجة في العصور الأولى والوسطى.

الدين أيديولوجية إدارية مصوغة بكل عناية. والطبقة الحاكمة متيقظة دائماً للميزة التجريدية للدين. في حين أن شرائح المجتمع السفلية كانت أُقنِعَت بأنه حقيقة واقعة. كل هذا الإيداع الخاص بالدين، وتمثيله بأماكن التعبد، والطقوس والشعائر؛ منوط عن كثب بوظيفة الدولة الإدارية. من هنا كان حظر النقاش عليه، كي لا يُعرَف وجهه الباطني. ففي حال النقاش عليه ستظهر نتيجتان: تصاعد المَلَكية، والتشريع الطبيعي. وكلاهما مهمتان للغاية. فحينها سيُعرَف كيف أُعلِي من شأن المَلِك الإله، وكذلك السلطان ظل الإله. وبالتالي سيكون الخلاص من مفهوم الإله المخيف للمجتمع والمعاقِب إياه. هذا وستُشرَع الأبواب أمام العلمية فيما يخص الجزء المتعلق بالطبيعة. وستُدرَك المفاهيم السائدة في عالَم الظواهر العلمية الممتدة حتى فيزياء كوسموس وكوانتوم. يكمن التفوق الأوروبي في قيام أوروبا بهذه التحليلات اللاهوتية المركَّزة للغاية، لدى خروجها من العصور الوسطى. لا شك في أنه لا يمكن ربط التطور الفكري بمفرده بالجدالات المتعلقة باللاهوت. لكن، لا يمكن لأبواب الفكر العصري أن تُفتَح، دون ذلك أيضاً. فلولا جدالات المذهبَين الدومينيكي والفرنسيسكي الدائرة طيلة القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر؛ لما كان للنهضة – بطبيعة الحال – أن تتطور بسهولة.

أغلَقت طبقة رجالات العلم أبوابها أمام النقاش في منطقة الشرق الأوسط في هذه القرون الثلاثة بالضبط، وفرضت الدوغمائية الصلبة على المجتمع، باتهامها تلك النقاشات بالخروج عن الدين. وقاد هذا التيار، الذي غذّته تقاليد السلطة بكثرة، إلى انتزاع الغرب

للريادة من حضارة الشرق الأوسط، لأول مرة في التاريخ. إن القرن الخامس عشر هو قرن الانفكاك والانفصال الأكبر. يكمن الاختلاف في التوجه اللاهوتي وراء هذا التمايز والانفصال، الذي سيتعمق تدريجياً بين الشرق والغرب. في الحقيقة، لقد قطع الفكر الفلسفي أشواطاً ملحوظة في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر في منطقة الشرق الأوسط. في حين أن الغرب اقتصر حينذاك على ترجمة المأثورات ونقلها. كان التفوق الفكري وقتئذ في الشرق الأوسط بكل تأكيد. فمذهب المعتزلة اتخذ من العقلانية والمنطق أساساً في صراعه ضد الدوغمائية. فـ"ابن الرشد" هو أعظم فلاسفة القرن الثاني عشر. كذلك أمثال "منصور الحلاج" و"السحر وردي" البارزين في فلسفة التصوف الإسلامي، كانوا دافعوا عن أفكارهم، ودفعوا حياتهم ثمناً لها. لكن الضغوطات القمعية المتزايدة في نهايات القرن الثاني عشر، ستحدد اللون والطابع الذي سيطغى على الشرق الأوسط حتى يومنا الحالي.

لا يمكن الاستخفاف بنصيب الدوغمائية الدينية في هزل الأدب ووهنه. فبينما كان بمقدور الأدب إحراز أشواط عظمى من التطور ارتباطاً بالمصدر الميثولوجي؛ قام الحظر ذاته بتجفيف هذا الميدان أيضاً. إن "الحرام" والحظر حرّم الإنسانية من أغنى مواردها. أما أوروبا، فقد بدأت بإبراز أولى كلاسيكياتها في هذه الأعوام. وأُسقِطَت الآداب إلى مستوى ابتكار القصائد وتنظيمها بشأن السلاطين وسرد حكاياتهم وإغداقهم بالمديح والثناء المطول. الجانب المؤسف والمؤلم في الأمر، هو أن الغربيين وضعوا أياديهم في راهننا على مسألة تحويل الواقع الديني والميثولوجي للشرق الأوسط إلى آداب، واستحوذوا عليها. فحتى مسألة كيفية القيام بالآداب وتكوينها، هي مشكلة حقيقية بحد ذاتها.

لا يمكن تقديم شرح علمي لمؤسسات البنية الفوقية وفي مقدمتها الهوية الإيديولوجية لجميع الحضارات دون تحليل ميثولوجيا الإيديولوجية السومرية، وهنا يكمن سبب عدم إمكانية التخلي عنها، وإذا لم نحلل الأصل لا يمكن ان نصل إلى نتيجة سليمة بتحليل اللقيط "المسخ". فمن خلال الانطلاق من الأصل يمكننا تعريف نتاجه الذي تعرض للتحول أو البلادة أو المسخ، وهكذا يصعب إيجاد الأصل بالسير وفق الطريق المعاكس، وطريق كهذا مليء بالأفخاخ ويدفعنا إلى الخطأ، وعالم الفلسفة والآداب مليء بالأمثلة التي تعرضت للتحول والمسخ بدون حدود وكأن الأصول غير موجودة أو يجري نسيانها أو ليس هناك حتى حاجة إلى تحليلها. إن هذا الوضع وخيم جداً على صعيد تاريخ الأديان، فكل الأديان الكبيرة تعود بجذورها إلى مصدر الميثولوجيا السومرية ورغم ذلك تكيل الشتائم لهذه الإيديولوجية وتتنكر لها وبذلك تكون قد ارتكبت تحريفاً إيديولوجياً فظيعاً.

لقد تم تقديم هذه التحريفات والتقديسات التاريخية كسلعة إيديولوجية تحت اسم أوامر إلهية، وقد تحققت أرباح غير مستحقة من خلالها، وبهذا المعنى يمكننا التحدث عن أكبر استغلال إيديولوجي في التاريخ.

ثبت أن السومريين أخذوا إيديولوجيتهم واختلسوها من إيديولوجية العصر النيوليثي بشكل مجزأ، والشيء الهام هنا هو تقييم الصراع بين الإيديولوجيات بطريقة صحيحة وواقعية. إذ لا يوجد أي نظام إلا وقد أخذ من الأنظمة الأخرى وأعطاها. ومهمة المؤرخ هي القيام بإظهار الواقع والحقيقة، فمن الذي أخذ ممَن..؟ و ماذا أخذ..؟ وكيف ولأي هدف..؟ وكيف جرى استخدامه؟. وأن يحاول الوصول إلى أجوبة صحيحة لهذه الأسئلة الأساسية، إذ يصعب جداً القول بأن هذا قد حدث عند تدوين التاريخ بشكل كافٍ وأن تاريخ الإيديولوجيات قد وصل إلى التعبير العلمي اللازم، فالمهمة الأساسية لعلم التاريخ هي القيام بواجبه ضمن هذا الإطار لأهميته العظيمة. وحتى نتمكن من تعريف ميلاد الحضارة الإقطاعية يجب إعطاء الأولوية للإطار الإيديولوجي، ويفهم من هذا التقييم القصير أن ذلك يصبح أمراً صحيحاً، فالالتزام بهذه الأولوية في هذا الموضوع المعقد يمدنا بتسهيلات كبيرة في التطبيق والالتزام بالأسلوب الصحيح.

إن صدى أسماء الله وموسى وعيسى ومحمد في آذان الذين يصغون لنداء العصور الوسطى في التاريخ، يشترط تحليل نوعية الهوية الإيديولوجية لهذه المصطلحات، ما هو الله ..؟ ما معنى موسى وعيسى ومحمد الذين كانوا من أعظم الأنبياء المرسلين؟. وما هي الأمور التي واجهوها بالإقناع في المنطق الاجتماعي؟ إن شرح التاريخ دون إدراك معاني بعض الأسماء والمصطلحات، كان ومازال الأسلوب المتبع حتى الآن. فالجنان التي يتم العيش فيها باسم الدين تؤكد أن التحليلات وإن تم إجراؤها فهي ما تزال ناقصة، وتعبر عن أن العمل لم يجر وفق متطلباته، وبدون إجراء ذلك فإننا لن نستطيع تحقيق أي تقدم في موضوع العلمانية التي هي قضية كبيرة في كثير من الدول، والأحداث الوخيمة الكثيرة تؤكد صحة هذا الطرح، وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلى التحدث عن مرحلة التنوير Renaissance في الشرق الأوسط.

كي لا نقع في التكرار علينا التوضيح، إذ كانت الإيديولوجية الاجتماعية الموجودة في التشكيلات الاجتماعية العشائرية الأولى Klan تستند إلى قوة ذات معنى كالروحانية والتابوية ذات الطابع المقدس على الأغلب، والتي كان من الصعب فهمها لكنها تعتمد على قوة (مانا) Mana gucu محسوسة، وكانت القوة والطاقة التي تظهر عن تحول المجتمع إلى واقع، موجه هام لإيجاد معنى له، إلا أن العقلية البدائية لم تستطع شرح ذلك إلا بتصورات روحانية تابوية، والواقع الذي ظهر كان هاماً جداً لأنه أصبح الشرط المطلق للارتباط بالحياة و يمكن الشعور بذلك. لكن كان يجب أن تمر آلاف السنين ليتم شرح ذلك بطريقة علمية. فأسهل طريقة للتطور في المرحلة الطفولية للإنسان هي الاعتقاد بكل كائن وكأنه

حي وله عواطف وشعور، تماماً كما يفكر ويحلم الأطفال. وكان المجتمع البدائي الأول يملك عقلية وروحاً كالطفل حيث يرى علم النفس تشابهاً كبيراً بين المجتمع الأول والطفل، وتمكن علم الوراثة وعلم الاجتماع من إيضاح عدة نقاط في هذا المجال، ويمكننا فهم خلق الإيديولوجية العشائرية "Klan " للمفهوم الروحاني والتابوي وكيف تم تحويل الواقع الاجتماعي إلى مصطلح وهوية مثل الكائنات الحية.

لقد أصبح الطوطم رمزاً لهوية العشيرة (Klan)، وهوية الطوطم هي رمز الشعور المعنوي والعقلي للمجتمع الذي يحس بقوتها، وهي بموقع مسودة المعبد والإله التي ستتطور فيما بعد، لأن القبيلة تجد قوة في الطوطم وتشعرها بوجودها، وكما لا يمكن للكائن إلا أن يكون له أسم فإن القبيلة أيضاً يجب أن يكون لها تسمية، وهو مصطلح متشابك أكثر من أن يكون مجرد تسمية لأنه يتناسب مع تعريف كل شيء. فالطوطم في الأصل هو التعبير عن ظاهرة اجتماعية، وهو كنيته، واحترام الطوطم أو الالتزام به يعني احترام أعضاء العشيرة والتزامهم ببعضهم وبأنفسهم، وبذلك يكون الدين البدائي هو التعبير الإيديولوجي الأساسي للمجتمع، وتتم تقوية المجتمع الذي ينتمي إليه والسمو به عندما تكتسب الأشياء والحيوانات صفة الحصانة والقدسية، فالإيديولوجية في هوية الطوطم هي القوة التي توقف المجتمع على قدميه. ولاشك أن التجارب و الخبرات المكتسبة للـ Klan () التي تواصل حياتها في ظروف قاسية، تكتسب معنىً كقيم ضمنية تظهر على شكل قدسية تابوية " Tabu " فآلام وأفراح وصعوبات وجهود الماضي كلها تكمن في كيان الطوطم، أي أنه يعبر عن كل ماضي المجتمع وآماله المستقبلية، وحسب هذا التعريف فإن ميلاد الدين كان كتصور معنوي للقبيلة، وكتشكل إيديولوجي أولي يمثل التجربة الأولى لتشكل الذهنية والروحية. أي أن الدين هو أول شكل لانعكاس الكيان المادي للمجتمع على الساحة المعنوية، وينبع احتلاله في الصدارة لأطول مدة في تاريخ المجتمعات من الخاصية التي ذكرناها سابقاً.

إن مصطلح الدين الإلهي هو نمط أكثر تطوراً من مفهوم الدين الطوطمي، وتتناسب القفزة إلى المصطلح الإلهي مع واقع اجتماعي أكثر تطوراً. لقد حول المجتمع الذي توسع وازداد قوة وثقة بنفسه، التعبير الرمزي والمصطلحي إلى شكل هوية" الرب "، وعبَر عن كل شيء أكتسبه بمصطلح "الرب" هذا المصطلح الذي يعني كل ما ناله المجتمع من الطبيعة ومن تجاربه خلال تطوره، ثم أصبح كائناً، وتم تحميله كل قوة الطبيعة والمجتمع. بمعنى أنه مصطلح أو تصور مصطنع. إذا تفحصنا صفات هذا المصطلح أكثر فإننا سنجد فيه جميع أسرار الطبيعة وقوانينها وشعور المجتمع الأولي تجاهها. لقد قامت الفلسفة بشرح الطبيعة

فيما بعد و بشكل منفصل عن الفكر الديني إلا أن العلاقات القائمة بينهما مهمة، لأن مصطلحات الإله هي شروحات للطبيعة والمجتمع. لقد رأت الفلسفة أن نمط التفكير الإلهي هو نمط محدود غير مستمر، ولا يناسب فهماً مجتمعياً تجاوز مرحلة الطفولة، مع العلم أن ذلك التفكير الإلهي يرتبط بمرحلة الطفولة للمجتمع. وإن الكيان العام للطبيعة الذي تم رده إلى " الله " سيحمل معان جديدة مع تطور وتمايز المجتمع، كما أن قوة المجتمع العامة والجهات المتنفذة فيه ستكسب قوة من خلال تقمصها بالإله والتاريخ، فالإله يكبر لأنه لن يتم الاكتفاء بالتعبير العام للطبيعة عن طريق تعريف محصلة قواه، و بالتالي فلابد من امتلاك هويته الجديدة كقوة اجتماعية عليا متمايزة.

إنه انعكاس لجميع القوى الطبيعية والاجتماعية، وجميع الأشياء والوقائع كالتراب والنباتات والحيوانات والأشجار والمياه والرياح والسحاب والمناخ، التي اكتسبت أهمية في مجتمع العصر النيوليثي والتي كانت مرتبطة بروابط لا يمكن التخلي عنها في الإنتاج والحياة، دخل في البناء الديني للعصر النيوليثي، حيث تم تأليه كل هذه الوقائع لأنها ظواهر حاسمة في حياة المجتمع والاجتماعية، فالآلهة أصبحت ملموسة أكثر وأصبحت رموزاً وأشياءً تعبر عن الحاجة، وكأنه أول علم كان يظهر بنمط هذا التفكير، وبشكل أدق بدأ ميلاد العلوم الإلهية، ونظراً لأن مرحلة الطوطم كانت محدودة جداً فهي لا تتجاوز شكل عبادة بسيطة في الإيديولوجية في وقت لم تتطور فيه الميثولوجيا بعد، حيث ستتكون العلوم الإلهية فيما بعد، لقد كان واقع الدين الإلهي الصديق للإنسان في العصر النيوليثي يعكس الصفات الأساسية لذلك المجتمع، طبيعة المجتمع غير المتصارعة والاستفادة من الطبيعة جعلت إمكانيات الجنة متوفرة مقارنة بالوحشية القديمة، مما دفع إلى تمثيل الآلهة برموز معطاءة وصديقة للإنسان دائماً، فهي متداخلة مع البشر لأنها متداخلة مع الظواهر التي تمثل المجتمع. والأهم من ذلك أن كل الآلهة كانت على شكل نساء، لأن المرأة كانت القوة الأساسية التي بدأت بالثورة الزراعية في العصر النيوليثي، بالإضافة إلى أنها تملك قوة الإنجاب للنسل البشري، وكذلك كانت الآلهة في عصر السومريين والمصريين والهنود تنسب إلى المرأة أيضاً، ولم يذكر الجانب الذكوري إلا بعد مرحلة بعيدة. وكانت جميع الهياكل التي صنعت في العصر النيوليثي على شكل امرأة ولم يكن هناك هياكل ذكورية إلا نادراً، وكان الإله والإنسان متداخلاً ولم يكن قد تطور بعد مفهوم إلهي منقطع عن الإنسان ومختلف عنه ولذلك لم يكن قد تطور واقع ديني هكذا أيضاً، وكانت كل الآلهة الكبيرة المعروفة كعشتار وإنانة وإسيس وديميتر وكيبلا وإندرا من هذه المرحلة، فدين هذا العصر يشكل تعبيراً إيديولوجياً للقبيلة والوحدات المتطورة في المجتمع.

وكان لكل قبيلة آلهة تزداد حسب العوامل الأساسية التي تلعب دوراً في حياتها. ويتم فهم الآلهة والتوصل إليها حسب درجة الشعور معها بالقوة الأساسية وتوقع ضررها وفائدتها، ويتم تسيير نمط التفكير ونظام المصطلحات بتعبيرات الآلهة ويصنف ذلك حسب درجة الإلهة.

علينا ألا نستغرب من تأليه " القوة الساحرة للمصطلحات"، لأن هذه المراحل هي مراحل الظهور. وكل مصطلح جديد هي إمكانية جديدة وإله جديد بنفس الوقت، التأثير الحاسم للأم في الإنتاج وقدرتها على الإنجاب أدى إلى ان تكتسب أهمية خارقة مما فتح الطريق إلى عصر الإلهات (الآلهة الإناث) لأن المرأة تكتشف وتخترع كثيراً. والاحتمال الكبير هو أن المرأة هي التي كشفت النباتات المفيدة والأشجار المثمرة وقامت بترويض الحيوانات وعملت في الأرض وبنت البيت وغذت الأطفال واخترعت الطاحونة اليدوية الأولى وربما العربة الأولى، إي أن عصر الإلهة الأنثى يأتي بعد هذه التطورات المذهلة ليرمز إلى الدور العظيم لها.

وأن السومريين كانوا أول مثال للمجتمع الطبقي الذي ورث هذه الثقافة. والدور المميز للكهنة في الإيديولوجية السومرية كان مذهلاً، وبتعبير آخر؛ إن سبق الميلاد الإيديولوجي واضح، ويعتبر الكهنة مركز تكوين المجتمع الطبقي والقيادة الإيديولوجية له، ويعتبر المعبد أول مركز للطبقية وإدارتها، ثم تتطور وأنماط العبادة المرافقة لها كالهوية الاجتماعية الجديدة. حيث الإيديولوجيات أضحى المجتمع الطبقي مثالاً وتم تحويله إلى مصطلح يخطو إلى الأمام ويسمو إلى السماء ويتحول إلى نظام كالنظام السماوي. فالكاهن عرف معنى الإنتاج الكبير جيداً عند خلقه للمجتمع الطبقي، وشعر بضرورة تحويل النظام الذي خلق إنتاجا غزيراً إلى إيديولوجيا ووسيلة للوصول إلى آلهته، وإن على الهويات الإلهية الجديدة أن تتحول إلى مصطلح بكل قدسيتها، وأن تجلس على عرشها. ويتم بناء الزقورات لتستقر الآلهة في أعلى طوابقها وتفتح أبواب الطوابق الدنيا لعباده .

إن النقاش حول ما إذا كان الاقتصاد هو الأول أم الإيديولوجية، يتطلب مساءلة دقيقة في المثال السومري، فجميع المؤشرات تثبت أن المعابد كمقر للكهنة هي مركز الإنتاج المادي والإبداع المعنوي وقد تشكلت الحضارة والدولة والمدينة على هذا الأساس، ولا يوجد أي مثال يشير إلى أن الإنتاج قد حقق نفسه قبل أن يكون الكاهن مركزاً للمعبد، وبهذا يتأكد ما يلي : إن القوة الإيديولوجية للمجتمع وآلهته ودينه هي مؤسسات لا يمكن للإنتاج أن يتخلى عنها، وهذا الشيء مؤكد في مرحلة الميلاد على الأقل. وإن عدم الحاجة للنمط الأول لا يعني أن الأدوار قد انتهت، وإنما تركت مكانها لأشكال جديدة، وشخصية آلهة سومر ذات الشخصية الأم تعتبر استمراراً للنيوليثية، ولهذا فهي لا زالت تأخذ شكل الإنسان وقريبة منه

تأكل وتشرب وتتزوج كالإنسان، وشكلها كالمرأة أو الرجل وتحقق التوازن بينهما ولكن الصراع والمنافسة تحتدم تدريجياً.

يتزامن طرد آدم و حواء من الجنة وجعلهم خدماً مع مرحلة انقسام المجتمع إلى طبقات، حيث يجري تمايز جدي بين البشر، إذ تم خلق العبيد كخدم من جديد في الوقت الذي تم فيه جعل الآلهة السومريين خلاّقين. إن التناحر والخلق في مثيولوجيات أنكي وننهارساغ وإنانة يعبران عن تراجع الدور الخلاّق للمرأة إلى المرتبة الثانية بعد أن كان متصدراً في الماضي. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد رمزت هذه المثيولوجيات إلى تشكل الإنسان العبد والخادم، وقد لعب هذا الدور التصوري للكهنة السومريين دوراً في ثنائية الرب ـ العبد التي جاءت فيما بعد، ورغم أن إثبات هذه المسألة هام جداً، فقد تهربت جميع الكتب الدينية من ذلك، لحاجتها الماسة لعدم الكشف عن وجهها الحقيقي وعن سرية مصالحها، إن تصورات المجتمع السومري للهويات الإلهية هي انعكاس جديد للقوى الطبيعية والاجتماعية وكأنها تموقع لها، وإلى جانب البعد الطبيعي نرى بروزاً للبعد الاجتماعي، فالثقة بالمرأة بدأ يخف، ونرى أن التطور على صعيد فصل الإنسان العبد والخادم يأخذ بالبروز، والقوة السياسية المتزايدة للمجتمع تدفع ببعض الآلهة إلى مزيد من الحدة، وبعض الهويات تتعرض للزوال أو تتعرض لتغيير كبير في شكلها. لقد أدت قوة المونارشية المطلقة في عصر بابل إلى تصاعد الإله ماردوخ. وتُظْهِر هذه المرحلة الأخيرة للميثولوجيا السومرية الوصول إلى عتبة ظهور الأديان التوحيدية.

لقد تصاعدت حروب الآلهة في الميثولوجيا بعد توحد قبائل الصحراء ذات الأصول السامية والتي اكتسبت قوة حياتها الروتينية والأبوية مع الحضارة السومرية. وتحول الإرث القبلي الأبوي الصحراوي إلى استبداد وملكية مطلقة بعد أن وصل إلى القوة السياسية، وتمت إزالة آثار سومر والمرأة لتتجسد مفاهيم تقاليد القبائل الصحراوية في شخص حمورابي وتشكل جذور الملكية التي تقول "أنا القانون". إن ازدياد التناقضات داخل القبائل وفيما بينها ستؤدي إلى معارضة على شكل النبي إبراهيم، ضد القوة السياسية المركزية التي شحنت نفسها بالله، وستؤدي النبوة إلى انفصال جذري في واقع الدين السومري، ليتم العبور إلى مفهوم إنساني مضاد لمرحلة الإله ذو الملامح الإنسانية بحيث لا يمكن فيه أن يصبح الإنسان إلهاً.

يتطلب مضمون هذا المفهوم تحليلاً هاماً. ففيه فكرة عدم تأليه الإنسان والتمرد واتخاذ الموقف ضد عبادة الملك ـ الرب وأخرج الإله من احتمال أن يكون على شكل إنسان من جهة، وكل ذلك أدى إلى الدخول في نظام أكثر مرونة على

شكل وكيل له مرسل إلى نظام القبيلة من جهة أخرى. لقد تقمصت الهويات الإلهية التي كانت على شكل الإنسان والصديق له في العصر النيوليثي، بنمط التمايز على شكل الإله ـ العبد الخادم في الحضارة العبودية، وأصبح إلهاً حاكماً قهاراً شديد العقاب، ونشهد تحولاً مصطلحياً جدياً، وطبعاً فقد احتلت القوة السياسية للمجتمع الطبقي مركزها، واكتسبت الميثولوجيا صفات وتحليلات جديدة على هذا الأساس.

لقد خطى الانفصال القبلي وأشكال المقاومة الإيديولوجية خطوة إلى الأمام، وبرزت الهوية الإلهية التي توزع الرحمة والمنقذة ولاسيما لصالح الطبقة المضطهدَة والقريبة للمستغلين على عكس الإله ـ الملك. هذا هو إرث النبي إبراهيم في الأساس، أي لا يمكن للإنسان أن يكون إلهاً، لكن يمكنه أن يكون رسولاً أو وكيلاً للرب، فالآلهة لا تقهر وتعاقب فقط بل إنها رحيمة ومنقذة أيضاً. لكنها تعاقب عندما يكون الذنب كبيراً، مع العلم أنه بإمكان الإنسان أن يعبد الله و يحصل على المغفرة، هذا هو جوهر الأديان التوحيدية الذي يعبر عن تجريد على مستوى الطبيعة والقوة الاجتماعية. ويعتبر هذا انطلاقة مضادة لمفهوم الدين العبودي الذي يتخذ عبادة الإله ـ الملك مركزاً له، وهو على شكل غطاء إيديولوجي لمستوى النضال الطبقي والاجتماعي لتلك المرحلة، ومهما كانت هذه الانطلاقة قد بدأت من الميثولوجية العبودية السومرية ودينها، فان الجانب المضاد بدأ يظهر بالتدريج، ليتضمن موقفاً جذرياً مضاداً لحضارة الرق، ولذلك فإن ظهور الأديان التوحيدية التي رفضت إلهاً على شكل إنسان، تمثل ريادة إيديولوجية ضد العبودية.

إن مصطلح التوحيد منفتح على الكونية، ويميل إلى تمزيق الخناق القبلي في كل لحظة، لأن القبائل تحتاج إلى الاتحاد، والإله الواحد سوف يجمعها، لذا ستضطر القبائل ذات الوضع المتشابه إلى تجاوز القبلية القديمة وطوطمها وأصنامها التي تحول دون اتحادها، وإلى مفهوم الإله المنقذ والرحيم الذي يرمز إلى وحدة الجميع في مرحلة تطور بعد أن عانى الجميع من آلام الإله الملك، وأخذ هذا المفهوم يسمو مع ازدياد التناقضات والحاجة للاتحاد، وتم جعله الوحيد الواحد الذي لا مثيل له بإعطائه صفات جديدة. وفي الوقت الذي تم فيه التعبير في الماضي عن كل خاصية بإله، فإن جميع الصفات تمثلت في الإله الواحد في الدين الجديد. وإن صفات الله الـ 99 ـ قد وجدت معنى وصدى لها في تقاليد وقوانين الحضارة السومرية على شكل " ME "

إن التجديد الذي أحدثه موسى للدين التوحيدي كان على شكل سلخ القبائل العبرية بشكل راديكالي عن مفاهيم القبيلة القديمة، وجعل الدين قومياً للقوم الواحد، ويمثل "ياهوفا" كإله قومي لمرحلة متقدمة من خلال بنيته التي جعلت القبائل العبرية مرتبطة به وملتزمة بالوصايا العشرة التي أوحى بها في البداية. كما يملك

صفة تحررية، كتعبير عن مناهضة الفراعنة المصريين، وكان يتم تصور هوية إيديولوجية تساعد على توحيد القبائل المناهضة للملكية المطلقة في بابل ومصر، وكان التأثير والتأثير المضاد متداخلان لأن الصراع قائم ضد مركزين قويين للعبودية، مع وجود الحاجة الدائمة لهما أيضاً، وقاموا بدمج الخبرة التي اكتسبوها من كلا المركزين مع مزاياهم، لإعطاء شكل لأيديولوجية جديدة، وتكمن هذه الإيديولوجية في الأساس التاريخي للواقع العبري أو الإسرائيلي، إن مناهضة الرق والافتقار إلى القوة اللازمة للتخلص منه، قد أجبر العبرانيين على التجديد الدائم عبر تاريخهم، وذلك يمثل مساراً في التطور الحضاري.

كان عيسى قطباً مضاداً رغم خروجه إلى الميدان من تقاليد يهوذا، فمثلما نشأ إبراهيم ضد تقاليد النمروديين البابليين ثم توجه إلى دين مناهض له، فإن عيسى يعبر عن الانفصال عن يهودية الكهنة الرسمية التي ابتعدت عن عالم الفقراء، وتكاملت مع روما العبودية، وإن موقعه هذا قد دفعه لاختراق نظام الأقوام بنفس الوقت. لقد شكل بناء روما ـ التي أسست نظاماً كونياً ـ أرضية مادية ولعبت دوراً ملموساً في هذا الأمر، مما دفع الطبقات العليا للأقوام والقبائل للتطلع إلى المتواطئ مع روما وتقليدها، لتضطر الشرائح الفقيرة إلى البحث عن حل لمشاكلها، أي أن هناك أرضية على شكل أممية، حيث يظهر عيسى على شكل ضمير عالم العبودية في الإمبراطورية، كما هو حال الاشتراكيين الذين ظهروا بنظرية تعبر عن مصالح طبقة العمال ضد الرأسمالية.

إن عيسى يعبر عن تمرد إيديولوجي واجتماعي ضد النظام العبودي على الأرجح، في الوقت الذي لم يختزل فيه بعد مفهوم الإله الثلاثي إلى مستوى إله واحد، ويحمل تأثير السومريين والمصريين القدامى وحتى العصر النيوليثي، بهذا الشكل فقط يمكن أن يتجاوز "يهوا" كإله للقوم، فالكهنة اليهود كانوا قد أغلقوا هذا الباب منذ وقت بعيد. إن دين عيسى هو دين إنقاذ، إذ كانت العبودية الرومانية تمارس القمع ضد وجدان الإنسانية إلى درجة اكتسب فيها الإيمان بالمسيح" المنقذ " المنتظر دوماً أرضية إيديولوجية قبل ولادته، وكانت مسألة مجيئه حية دائماً. لقد كانت مصادر وأرضية الأديان الثلاثة في الشرق الأوسط تجتمع في بوتقة واحدة في القدس، فقد كان الإرث اليهودي متجذراً، كما كان الإرث الهليني قد خلق شريحة اجتماعية قومية بين اليهود والإغريق، وأما التقاليد الزرادشتية البرسية فقد نثرت بذورها منذ القديم في هذه الساحة، والمرحلة هي مرحلة الطرق الصوفية تماماً، وهي حركة وجدانية منذ بدايتها، أما النظام الكوني لروما فقد شكل ضغطاً على النظام الكوني للمسحوقين، فبينما قامت روما بتمزيق النظام القبلي والملكيات الصغيرة وربطتها بنفسها، لكنها بقيت كتلاً إنسانية كبيرة في عالمها الخاص، بدأت

البشرية تبحث عن صاحبها الجديد وربها الجديد، وهوية عيسى تنحدر من هذا الأساس، إذ أن مواهبه الشخصية لا تشكل أهمية كبيرة فتطلعات المرحلة إلى ولادة المسيح ترفعه إلى مرتبة المتحدث باسمها، وهذه الانطلاقة الإيديولوجية التي سميت بالمسيحية واكتسبت صفة كونية ستضم روما من داخلها لتكون الضمير الإنساني الجديد ضد اللاوجدانية الكبيرة. وربما يتطور حزب بشري كوني لأول مرة، وهذا الحزب سينجح بفتح روما من الداخل بعد 300 سنة، وما جرى كان ثورة بيضاء، وبشكل أصح فقد خلقت الحضارة الإقطاعية نتيجة لمسيرة التطور، وتحولت حرب المعتقدات التي استمرت في البداية، إلى تمايز اجتماعي ثم إلى قوة سياسية بعد ذلك.

كانت روما قد شهدت تغيرات هامة بصيغتها الحضارية بعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً في عام 325 م. وتم الانسحاب إلى الريف في الوقت الذي كانت تنهار فيه المدن العبودية، وبدأت تتشكل المؤسسات التي تتضمن روابط عبودية أكثر مرونة كنمط جديد للعلاقات الإنسانية، فالثورة التي شهدتها الزراعة لا تعني الرجوع إلى العصر النيوليثي، وحياة الإنسانية التي ارتقت على أساس تقنية الحديد هي عبارة عن تشكل حضاري جديد يحقق مزيداً من ترابط الإنسان بالحياة، وكان ملوك روما قد تخلوا عن صفة الملك ـ الرب في المراحل الأخيرة، ولا شك أن الدعاية للدين التوحيدي الذي يرفض أن يكون فيه الإنسان إلهاً قد لعبت دوراً هاماً في ذلك، وصعد الإله إلى السماء الأبعد تحت ستار من المفاهيم الدينية والفلسفية بهدف تضييق مكان الحاكم والإمبراطور المطلق، لأن الإنسان يكون حراً بقدر ما يبتعد الإله عنه.

كان الصوفيون والأدريون يلجؤون إلى مصطلح الله الذي كان صديقاً للإنسان في العصر النيوليثي. بينما كان يتم التعامل مع الإله الرسمي من الجانب الآخر. إن مفهوم "أنا الحق" قد توحد مع الله، إذاً أنا الله" هو لجوء الطبقة السفلية المسحوقة بشكل غير رسمي إلى تقاليدها الدينية القديمة ضد التمثيل السياسي الرسمي. وبدلاً من الإله الغريب عن الإنسان الذي يحكمه ويعاقبه، ظهر مفهوم توحيد الذات مع الله الذي ابتدأ بعيسى الذي جعل من نفسه "ابن الله" واستمر بعد ذلك وهذا في حقيقته يمثل أحد الطرق الصوفية، لكن هذا المفهوم قد تغير تحت تأثير فلسفة أرسطو وأفلاطون. ويبقى الشيء المهم هنا هو تحقيق تحرر محدود عن طريق تمهيد الطريق أمام حضارة ذات مستوى أعلى، وذلك بنقل كل ميول الفقراء إلى بوتقة واحدة بنمط عالمي في شخص عيسى.

ومن المؤكد أن المسيحية قد لعبت دوراً تاريخياً في تشكل الحضارة الإقطاعية وفتحت طريقاً عميقاً في مصير البشرية على صعيد الأخلاق والعقائد،

وأعدت العصور الوسطى عن طريق تقديم تضحيات كبيرة، قاومت وعانت كثيراً في سبيل تجاوز العصر العبودي. لقد بقيت المسيحية بعيدة عن لغة السياسة والعنف فترة طويلة، وتحركت على أساس تيار إيديولوجي بريء، ولعبت حياة الكنيسة والدير التي كانت مستندة إلى الروح الجماعية والعذاب نفس دور أنظمة معابد الكهنة السومريين التي ولدت العبودية. وما لبث أن بدأ المجتمع الجديد بالتشكل في هذه البنى والمدارس، وتعد الحياة البديلة نفسها للسلطة. وكانت الكنائس والأديرة أماكن لتعليم إدارة المجتمع أكثر من كونها أماكن للعبادة، وهي استمرارية للنمط السومري، كما وأنهم قد تأثروا بلا شك بروما لأنهم كانوا يعيشون تحت سيادتها، لقد فقدوا براءتهم وحسن نيتهم التي كانت في البداية وباتوا يتشبهون بروما. فالتأثير والتأثر جرى بشكل متبادل والناتج كان تركيبة مختلطة.

ونجد تطور حركة مشابهة لحركة عيسى في المقر الشرقي للحضارة العبودية في شخصية "ماني" الذي ينتمي إلى ميزوبوتاميا، ومن المعروف أنه قد قطع شوطاً لا بأس به، إذ كان يريد الوصول إلى تركيبة متقدمة لثقافات المسيحية والزرادشتية والهلينية، ولو استطاعت الحركة الإيديولوجية لماني التي ظهرت في عهد طبقة الكهنة الأعيان الساسانية المتخلفة في عام 216 م تجاوز حركة الكهنة المتخلفين، ربما انعكست الإمبراطورية الساسانية بتأثيراتها على روما أيضاً. لقد كان بإمكان الحركة المانوية تشكيل تيار مشابه لحركة التنوير الأوروبية بشكل متميز عن العقائد والأديان التوحيدية، وربما فتح ذلك الأبواب أمام خطوة حضارية من طراز أوروبا مبكراً في الشرق الأوسط، ولكن الميلاد المبكر، وتقاليد الدولة العبودية القوية، والرجعية المتمثلة في الكهنة اليهود، وتعنت الكهنة الزرادشتيين الرسميين، لم تفسح المجال أمامها، وقضوا على فرصة تحولها إلى سلطة، ومارسوا ضدها أساليب لا ترحم فهذا التصلب الإيديولوجي في الإمبراطورية قضى على إمكانيات صمودها أمام البيزنطينيين والإسلام الذي ظهر فيما بعد. فالبنية الإيديولوجية المتخلفة قد جعلت أقوى إمبراطورية في حالة لا حول لها ولا قوة، وتركتها تتفسخ بنفسها لقدر الموت بعد تلقي عدة ضربات موجعة.

نرى أن للهويات الإيديولوجية التي تشكلت في أحضان العبودية دوراً محرضاً على محاربة النظام، ويحمل العصيان الفكري والوجداني على النظام لعب دوراً ريادياً، ويزداد احتمال خلقه للجديد كلما توسعت قاعدته الجماهيرية. فالأنظمة التي واجهت الحروب الريادية إما أنها قد انهارت أو أنها أجرت تحولاً فيها، لكن الإسلام يظهر قبل أن تتمكن المسيحية من تنظيف كل ترسبات النظام العبودي. فربما أن المسيحية وحدها لم تكن كافية، لأن التحولات الجذرية تحتاج إلى قيادة إيديولوجية وعملية جذرية. والإسلام دين توحيدي مثل المسيحية ولكنه

جاء بشكل متأخر، وبتأثير من الكهنة ذوي الجذور النسطورية وتحت تأثير القبائل اليهودية، ليشكل انفجاراً كبيراً للعرب البدو، وخلق آخر رسول بشخص محمد ليلعب دور أحد أهم وأكبر عظماء التاريخ.

إن تحليل الإيديولوجية الإسلامية يملك أهمية ليس فقط من ناحية المعنى التاريخي، بل من زاوية تحليل المجتمعات الإسلامية في يومنا. ولم يتم فهم الشخصية التي خلقها الإسلام بعد، حيث يتم شرحه كدين نجح في الممارسة ذات الطابع العسكري على الأغلب، ولكن الجانب الإيديولوجي والهوية الاجتماعية لازالت في الظلام، ومهما كانت الادعاءات العكسية فإن الإسلام لازال لغزاً من حيث الدين والسياسة، ولم يجر تحليل وجهه الداخلي بعد، فالجوانب المظلمة والمضيئة لازالت متداخلة كثيراً، وحقاً تأتي حقيقة آخر الرسل لتواكب نهاية عصر الأديان التوحيدية من حيث المعنى، وبعكس الادعاءات فإن النوعية الدينية والتوحيدية له، تشكل غطاءً إيديولوجياً واهياً، بينما الجانب العسكري والسياسي هو الذي يأخذ شكلاً ملموساً لواقع الإسلام.

فالإسلام هو إيديولوجية المرحلة الثالثة من تحول الميثولوجيا السومرية ويمتلك خصائص عدة متدرجة. لقد بقيت محاولات تقمص الميثولوجيا المذكورة ومرحلة الديانتين اللتين أدتا إلى هوية مختلفة، محدودة رغم الجهود الكبيرة التي بذلها سيدنا محمد، ولكن لا يمكن إنكار نجاحه في تحقيق تحولات لا يمكن استصغارها.

إن متابعة الدين التوحيدي كرائد إيديولوجي لعصر الإقطاع ومصطلح الله وتحليل معناه الاجتماعي، يكتسب أهمية بمقدار المرحلة التي ظهر فيها. ويجب تفكيك التحجر الأسمنتي واستخدام الخامات بطريقة صحيحة من أجل تنوير الشرق الأوسط وتحقيق الميلاد الجديد.

ب ـ الإسلام ـ القوة الثورية في العصر الإقطاعي

الإسلام هو أحد المواضيع الأساسية للنقاشات في التطورات العملية والنظرية على صعيد التاريخ والحاضر. ويعود سبب ذلك إلى عدم تحليل الواقع الذي عبر عنه الإسلام وعدم وضع هوية إيديولوجية بديلة كافية، أو عدم قيامه بتحويله اللازم مع تحول العصر، ولا يمكن القول أن الإسلام قد وجد المعنى الكافي عند ظهوره، إن النبي محمد أعلن نضاله الذي أحاول فهمه عن قرب "ضد الجهل"، والجهل الذي قصده هو إيديولوجية القبلية الأبوية وهذه مسألة هامة جداً، ففي الوقت الذي طور فيه موسى الدين التوحيدي ليوحد القبائل العبرية، حاول النبي محمد حلها، وما هذه إلا محاولة لتجاوز المجتمع القبلي، لأن القبائلية كانت العامل الأساسي الذي يعيق التحضر والقوة. لقد كانت في الكعبة هويات إيديولوجية مختلفة تتمثل بـ 360 صنماً صغيراً، ومن ثلاثة أو أربعة كبيرة، ولم يكن من الممكن إحراز أي تقدم دون تجاوز هذا الواقع الذي رمى بثقله على الذهنية. أما الواقع الآخر فهو الهام؛ إذ أن مكة كانت مركزاً تجارياً هاماً وحتى أن وجود المدينة كان مرتبطاً بالتجارة. ويمكننا القول أنه كما كانت الحضارة المصرية والسومرية مدينتين لهبة النيل ودجلة والفرات فإن الإسلام كان هبة التجارة التي كان مركزها مكة في شبه الجزيرة العربية. والإرث العبري هو ثمار تجارة تطورت بين المراكز الحضارية في الأساس، وعندما نأخذ بعين الاعتبار الهيمنة اليهودية على التجارة والتمويل العالمي يمكننا فهم دور التجارة العظيم في التطور الحضاري بشكل أفضل.

يشكل الدور الحضاري للتجارة والتوتر البدائي للتعصب القبلي الأرضية الاجتماعية المادية الأساسية في انطلاقة سيدنا محمد، ففي الوقت الذي كان فيه أحد الأطراف يضغط من اجل التحضر والتقدم كان الآخر يلعب دوراً معاكساً، وينحدر إلى التخلف والتعفن عبر الصراع القبلي المستمر. فكان سيدنا محمد يدرك أهمية المراكز الحضارية الكبرى الثلاث: ففي الشمال كانت روما الشرقية المزدهرة حيث النهضة البيزنطية، وفي الشرق كان الساسانيون الأقوياء، أما في أفريقيا الشرقية فكانت بلاد الحبشة التي كانت مصدراً لا ينضب للإلهام. لقد سافر محمد كثيراً مع القوافل التجارية بين مكة و بلاد الشام والقدس، وتعلم خلالها أموراً جمة من الكهنة المسيحيين ولا سيما الآشوريين ـ النسطوريين، وكانت القبائل اليهودية بجواره، حيث تعرف على عقيدة هذا القبائل "يهوا" عن كثب، وكان الصابئون ذوي الجذور الحنفية يقومون بالدعاية للدين التوحيدي كطرق صوفية وأدرية حتى في مكة، وكما تأثر عيسى بطرائق الأسينيين، فإن محمد تأثر بالحنفيين. ولم يكن صعباً سماعه بمصطلحات الزرادشتية في تقاليد وأعراف الكهنة الساسانيين. إن المسيحية واليهودية والزرادشتية هي بمثابة الإيديولوجية الرسمية في ظهور سيدنا محمد، فثلاثتها هويات إيديولوجية وصلت إلى درجة الهيمنة، وكانت آلهة الكعبة الموجودة إلى جانبه تمثل الهويات المعنوية المشروعة للقبائل. وأدى الحصار الإيديولوجي من الأطراف الأربعة إلى اقترابه من الاتجاه الحنفي الصوفي. وهكذا فان اتجاهه الذي سيتشكل هو تيار يعترف بالله "أدرياً، والذي كان له مثيل في جغرافية الشرق الأوسط منذ القرن الخامس قبل الميلاد بشكل واسع. إن الأدرية هو اسم كان يطلق على الطريقة التي تقر بحرية الوجدان، وتعد انفصالاً صغيراً عن الدين والإيديولوجية العبودية.

كانت المرحلة التاريخية مرحلة انتقالية تسارع فيها تحول العبودية إلى إقطاعية بنفس طريقة تحول الإقطاعية الأوروبية إلى رأسمالية، وكانت القبائل العربية الصحراوية تعيش على تقاليد الاستيلاء على الحضارات الزاهرة المجاورة في مراحلها الضعيفة عن طريق الاختبار والتجربة حيث كانوا ماهرين في ذلك، وكانت القبائل السامية القادمة من نفس الجذور قد اتجهت بموجات نحو مراكز الحضارة السومرية والمصرية بهدف النهب أحياناً وللعمل كأنصاف عبيد في أحايين أخرى، وكان الأكاديون المثال الأول في سومر، وتوجهت القبائل العبرية ذات الأصول السامية إلى مصر، وكان العرب "بمعنى جميل" الساميون أيضاً على وشك القيام بحملة تاريخية حيث كانت هذه هي اللحظة التي قال فيها التاريخ "سر تنتصر".

إن تحليل مصطلح "الله" الذي قام به سيدنا محمد كان أكبر حملة تاريخية عظيمة باسمه، حيث أن هذه المشكلة كانت بمثابة القفل، ورغم أن تحديد الأرضية المادية يتمتع بأهمية كبيرة إلا أن الأصعب في ذلك هو تحليل المصطلح الإيديولوجي الأساسي أي "الله "، ولا توجد قيمة علمية كبيرة لمحاولات تعريف الله من قبل التيارات اللاهوتية والفلسفية، ولم يتم إجراء التحليل الاجتماعي للمصطلح بعد.

إن " أل" = الروح هو إله تعود جذوره إلى السامية، وهو مصطلح إله رغم المعطيات المحدودة الموجودة بين أيدينا. وأعتقد أنه تصور بمعنى "إله السماء العالي" وقد طورته القبائل بعد مرحلة الدين الطوطمي وتحت تأثير الحضارة على الأغلب، ويلفظ ذلك في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية بشكل مختلف وبلهجات مختلفة، ويمكن أن يكون قد تم تحويله إلى مصطلح كهوية إيديولوجية أساسية بشكل يوازي "القبيلة = الشيخ" و "الطبيعة = أل"، وإن التفكير به كمالك شامل للنظام الطبيعي يتزامن مع تطور القبائل، وكما هو الشيخ صاحب القبيلة فإن صاحب الطبيعة هو أل "الله"، إن الشيخ هو في موقع الزعيم السياسي والمعنوي للقبيلة في الوقت نفسه، إذ تكمن قوة القبيلة وتعاظمها في مسؤوليات وقوة الشيخ، إنه شكل بدائي من الملكية، والتفكير الناجم عن هذا الوضع لدى الشيخ أسفر عن تنصيب نفسه على رأس القبيلة، أي أنه صاحبها، وهكذا يكون الله فوق الطبيعة كلها وصاحبها، لقد تطور كلا المفهومين وأوليا الأهمية، وبذلك فقد تم وضع "أل" مقابل " العالي"، وفي المرحلة التي تحررت فيها القبيلة من الخنوع والارتباط الكلي بشروط الطبيعة، وحصلت على مقومات العيش الحر والآمن، ومع حدوث التمايز تشكلت العلاقات الفوقية والتحتية، ومثلما لعب الصاحب العالي دور المهيمن فانه في نفس المرحلة ضعفت العقائد الطوطمية، وبتشابه مماثل حدث الانفصال في الطبيعة إلى أرض وسماء، مع تصورهم أن "أل" هو حاكم السموات والأرض "كما يحكم شيخ القبيلة قبيلته ورعاياه"، وبذلك تم وضع مصطلح الإله، إن مصطلح الله يعبر عن الملكية إلى جانب السمو، وهذه صفة مهمة كمالك وحاكم، إن المالك والملك مشتقة من مصدر "الملك"، وتتفاعل علاقة الملكية في جميع اللغات السامية وتكتسب معنى عند القبيلة يصل إلى الملك، وتتقي الملكية والسمو في القبيلة مقابلها على شكل حاكم السموات والأرض أي الله، في علاقة الأرض والطبيعة والسماء.

إن التفكير بـ "أل" كإله واحد منذ البداية له علاقة مع طبيعة الصحراء الرتيبة بشكل وثيق. فعلاقة الله السامي بالأرض والسماء هي انعكاس لعلاقة الشيخ بالقبيلة على الأرض، ويتصف هذا المصطلح المتكافئ بصفة توضيحية، ومن

المؤكد أن هناك علاقة وثيقة بينهما. لقد كان تعدد الآلهة أساساً في التطورات الاجتماعية لمصر وسومر والإغريق والهند والتي تواجد فيها قوى متعددة تحكم الحياة، وتم الوصول الى مفهوم الإله الواحد بعد فترة زمنية طويلة مع الوصول إلى مرحلة مركزية السلطة السياسية وإن لهذه الملاحظة قيمة توضيحية عالية.

لقد وجد الله كتصور لشبه الجزيرة العربية له مكان في عقلية جميع القبائل السامية، وكهوية إيديولوجية منذ الألفية الثانية قبل الميلاد تقريباً، إن ارتقاء وانتشار هذه الهوية المستندة إلى التمايز داخل القبيلة ونظام الطبيعة الرتيب يعكس مستوى تطور القبائل. ومن المفيد جداً رؤية الله كمصطلح أساسي في جغرافية الشرق الأوسط وفي جميع الدول الإسلامية عن كثب. ويجب أن نعرف جيداً قوة المصطلحات فقد تتضمن المصطلحات الجديدة معنى مذهلاً وكأنها الواقع نفسه في المرحلة الطفولية الإنسانية، ويكون بالإمكان وضع المصطلح مكان الواقع، حتى أن فيلسوفاً كأفلاطون يضع الأولوية في عالم من المثاليات، ويجد العالم المادي معناه وقيمته بسيطة كقيمة الظل، ولا شك أن السبب الأساسي في ذلك هو تطور قوة المصطلح والمنطق عند الإنسان. فقوة الفهم بهذا المستوى هي ظاهرة جديدة وخارقة للعادة ، لقد بدأ عصر المعرفة وبدأ العقل يثمر. وأوصل الدين التوحيدي بتصوراته طراز الفكر الفلسفي إلى الذروة بقوة المعنى، وبذلك تكون البشرية قد دخلت مرحلة الشباب. ويكون المصطلح القابل للشرح والتوحيد والتفسير أرضية لمعنى إلهي أو لمدرسة فلسفية. إن إنتاج المصطلحات وترويضها بحيث تلائم الممارسة العملية هو أهم عمل مقدس وأساسي للكهنة والفلاسفة الجدد. والمصطلح الذي يؤدي إلى توحيد وتقوية المجتمع هو أثمن سلعة ووسيلة تقوم بوظيفة التغيير.

لقد بدأت الإنسانية تعيش العصر الأكثر ازدهاراً لتحويل اللغة إلى مصطلح وتطور العقل بتأثير أكثر من التحضر. فالحضارة بإحدى معانيها هي تمايز المصطلحات الأساسية، وقدرتها على توضيح الظواهر، والواقع الذي تعكسه وتمركزه في العقل الاجتماعي، وبشكل عام يتحقق التطور الاجتماعي بتطور مستوى اللغة والمصطلحات بشكل متوازٍ، إن الواقع اللحظي بين العقل واللسان هو حدث يعني قدرة المجتمع على السمو بنفسه الى الإدراك، والوعي والإنتاج من جديد، فالمجتمع لن يكون قادراً على الإنتاج من جديد دون عقل وذاكرة، ولا يتجاوز وضع الحيوان في مستوى التكاثر بغرائزه، إن التطور والتحول إلى مجتمع ممكن باللغة والعقل، والمجتمع الذي يفقد لسانه وعقله هو مجتمع منتهٍ أو أنه شيء آخر، ولذلك فإن الشيء الأساسي للمجتمع هو التطور العقلي الذي يؤدي إلى الذاكرة الاجتماعية والتقاليد والدين والفلسفة والعلم، فلا يمكن الاستمرار بالوجود المادي فقط كالحيوان. ويعتبر الدين والمصطلح الحجر الأساسي للتطور

العقلي والذاكرة الاجتماعية، ولا يمكن تحقيق أي فاعلية اجتماعية دون امتلاكهما، وجميع المؤسسات الاقتصادية والسياسية تعتمد في سيرها على اللغة والمصطلح والقوة الفكرية المستندة عليها. والقوة الفكرية هذه هي القيم والقوانين الأولى التي اكتسبت كياناً كمؤسسة أساسية على شكل تقاليد وذاكرة اجتماعية وأخلاق، وتكتسب التصورات "اليوتوبيا" المتعلقة بالمستقبل قيماً على شكل آمال. وهذه تمثل اليوتوبيا الأساسية كونها تتضمن الذاكرة القديمة والأخلاق والتقاليد والدين الاجتماعي، ولهذا السبب يأخذ موقعه كمؤسسة اجتماعية أساسية منذ البداية، وهكذا نرى بأن هناك علاقة ديالكتيكية وثيقة ومصيرية بين الدين والمجتمع.

وعندما نقيم الاصطلاحات الدينية بهذا المضمون، سيظهر أنها تمثل قوة الفهم للمجتمع، فإنزال المسألة الى مفهوم مادي فظ على شكل "الدين سفسطة"، ولا يوجد الله "سيشكل مسألة خطرة سفسطائية وغير علمية سفسطائية مثل القول "الرب هناك أو أنه هكذا". والشيء الصحيح يبقى: ما هو الدور الذي يقوم به الدين في الواقع الاجتماعي وما هي القوة أو المؤسسة التي يشكلها؟. أما السؤال الذي تم تطويره فيما بعد والذي يقول: من الذي يسيّر الكون؟. فهو موضوع يتعلق بالفلسفة والفلسفة الدينية. وعندما نصل إلى المرحلة العلمية تكون أجوبة هذه الأسئلة مصاغة على شكل قوانين علم، وهي مراحل تولد بعضها البعض، فهذا التطور في المفاهيم سيستمر إلى ما لا نهاية، أما التخلف والتعصب والسفسطائية فتعني قبول صحة ومستوى المعنى في هذه المرحلة والتعميم المطلق ومحاولة فرضها على الجميع، ومثلما ظهرت الدوغمائية الدينية فإن التعميم أيضاً هو نتيجة طبيعية لهذه المفاهيم، والإنكار الفظ لظاهرة الدين لدى المجتمع هو الرد الذي يغذّي هذه النماذج المرحلية ويسفر عن أطراف مضادة سلبياً، ولا يمكن لعلم الاجتماع الارتقاء إلى مرتبة العلم دون تناوله الواقع الاجتماعي في هذا الإطار والإجابة على كيفية ظهور المعاني والتمأسسات ونوع القوة التي تمتلكها.

إن مصطلح الله هو أحد المؤسسات الدينية الاجتماعية الأساسية التي ظهرت ضمن هذا الإطار، تتطور وتتقوى بشكل دائم. لقد اقترب السومريون والمصريون من هذا المصطلح بهذا الشكل كما نرى تطوراً مشابهاً لدى الزرادشتية، ومع تصاعد التحول المركزي للقوى لدى المجتمع فإننا نرى تقدماً باتجاه توحيد الإله في المصطلحات الدينية كنمط تفكير أساسي، ونرى التطور في المصطلحات ينتهي بنتيجة الإله الواحد، ونصل إلى صيغة الملك في الأرض والله في السماء.

يحتوي توحيد مصطلح الله في شبه الجزيرة العربية على عدة تطورات اجتماعية هامة في الأصل، مع أن معين هذا المصطلح ينبع من تقاليد السومريين

والمصريين إلى حد كبير. وإن له جانب مضاد وأصيل إذ كان في الثقافة السومرية والمصرية تركيبة الإنسان ـ الرب، وقد أعلن النماريد والفراعنة أنفسهم ملوكاً ـ أرباباً غالباً، وأداروا المرحلة العبودية حتى القرون الوسطى كملوك ـ أرباب، وأثبت من خلال الاكتشافات التي ظهرت في قبور الفراعنة في الأهرامات وقبور السومريين أن عبيد الملوك هم ملحقين بهم، وعندما يموت الملك يعتبرون أنفسهم أمواتاً ويتم دفنهم مع أسيادهم وهم أحياء، أنه وضع يبعث على الرعب، وإيجاد حل لهذا الواقع هي المهمة الأساسية للبشرية، وربما تصاعد أطول نضال مقدس عبر التاريخ ضد الملوك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة عظيمة مقدسة في حرب إيديولوجية طويلة، وفي هذه النقطة بالذات تكمن عظمة سيدنا إبراهيم واعتباره جداً لكل الديانات المقدسة انطلاقاً من هذه الخصوصية، فقيام إبراهيم بتحطيم الأصنام يعني توجيه أكبر ضربة قاتلة لمصطلح الإله ـ الملك، ولهذا السبب يتم تقديسه باستمرار. لأنه وبدون نجاح هذا الموقف الذي قام به النبي إبراهيم لما كان هناك حائل يمنع دفن الإنسان حياً، ومازال القول في مناطق مدينة أورفا إنه إذا قام الرجل بفعلة ما فإنها تعد نزوة، أما إذا ما نظرت الفتاة بعيون راغبة، فإن إصدار فرمان الموت سيكون بانتظارها، ويعتبر ذلك من آخر مخلفات القوانين النمرودية. إن العادات والتقاليد الموجودة منذ خمسة آلاف سنة مازالت تنفذ واقع الملك الرب، وتعاقب على تصرفات الإنسان الأكثر طبيعية بالموت، وهذا يؤكد أن النبي إبراهيم لم يولد في هذه الأرض عبثاً، وربما أن الواقع السومري والمصري العبودي الأخطر والأسوأ بقوانينها هي التي خلقته.

إن سمو الله الذي أكتمل بالنبي إبراهيم مرتبط بشكل قطعي بإلغاء هذا القوانين، والميزة الأولى هي قاعدة "لا يمكن للإنسان أن يكون الله"، لقد جرت محاولات لتحليل العلاقة بين البنية الاجتماعية المتمايزة للقبائل في هذه الجغرافية التي عاشت فيها تقاليد الديانة الإبراهيمية وبين مصطلح الله. لكن معناها الحقيقي وجانبها الأصيل يكمن في مناهضتها لمفاهيم الديانة السومرية والمصرية ولآلهتها. فعندما يقول أن الإنسان لا يمكن أن يكون إلهاً. يعني ذلك أن فرعون ونمرود لا يمكن أن يكونا آلهة. ولهذا قيمة إيديولوجية عالية وقيام النبي إبراهيم بتحطيم الأصنام كانت بداية ثورته، تحمل أكبر معنى في مضمونها، إنه يصرخ بأن عهد مساواة نمرود وفرعون بالآلهة قد ولى، إن الله الذي تعالى في نزعة إبراهيم وجه ضربة قاضية للعبودية المطلقة، وهو أمر تقدمي ودافع إلى الحرية، وسيتطور ذلك أكثر عند النبي موسى. إذ دكت نداءات الله التي انتشرت في كافة الأصقاع كإله عام لجميع القبائل، أنظمة الملك ـ الإله من جهة، ولمرحلة الطوطمية المتعصبة للقبائل من جهة أخرى. حيث مزقتها وتجاوزتها، وهنا يكمن جوهرها الثوري،

ولذلك فإنها تحتل مكانة هامة في التاريخ. صحيح إن الذي رُفِعَ وسما هو الله، لكن المجتمع أيضاً تقوى وارتفع مستوى الحرية فيه. إن الحروب والعمليات التي نفذت باسم "الله" على مدى قرون كانت تقوم بمهمة وظيفية مع شعار ثوري هام، إلى أن تجاوزت مرحلة التخلف والتعصب، فنداءات "يالله، الله أحد"، في مرحلة المجتمع الإقطاعي والعبودي تعبر عن نفس معنى شعارات، "لتحيا الليبرالية ـ لتحيا الاشتراكية" التي كانت شعارات للمرحلة الرأسمالية. ونظرة علمية اعتيادية تكفي للاستدلال على هذه الحقيقة.

ويمكننا التمييز بين ثلاثة مراحل لإعلاء الله. المرحلة الأولى تأثرت بالمثيولوجيا السومرية والمصرية وهي مرحلة التكوين التي جاءت بعد طوطم القبائل، حيث أدت العلاقات التجارية والاستيطانية الكثيفة بين مركزي الحضارتين، إلى تحول الهوية الإيديولوجية إلى شيء ضروري. وبدأ إله القبائل ((أل)) يكتسب أهمية مع مرور الزمن ويقوم بحملة تاريخية مع النبي إبراهيم، أما المرحلة الثانية فقد بدأت مع ظهور عيسى. حيث أن الانفجار الأساسي لثورة إبراهيم بدأ مع عيسى رغم المرور بمرحلة موسى التي أنتجت إلهاً وديناً للقوم تطور إلى ملكية عبرية في اليهودية. وكما وجدت العبودية المصرية والسومرية جواباً مضاداً لها عند إبراهيم وموسى، فإن العبودية الإغريقية والرومانية قد وجدت ضدها عند عيسى، وفي الوقت الذي قام فيه موسى وإبراهيم بإعلان الله كحاكم لقوميتهما، فإن عيسى قام بشرح تعاليمه إلى جميع المضطهدين الرومان. إن رب عيسى هو بمثابة أبيه، ومن الواضح أنه قد تأثر بالتقليد السومري كثيراً في هذا الجانب، فقد كان إله بابل ماردوخ هو ابن أنكي إله أريدو العلامة والماكر، ونرى هنا استمرارية للتقاليد. لقد اكتسبت السلطة السومرية ما يقابلها في بابل كهوية إيديولوجية بشخصية ماردوخ، (إن عيسى هو ممثل للقدس وممثل لعالم المضطهدين في هذا التقليد)، وإذا ما أخذنا الإرث السومري كأساس للمرحلة الثالثة، فإنه في عصر تعدد الآلهة كان فيه جميع الآلهة القدماء هم آلهة لمدينة أو لقوم أو لمنطقة. أما العالمية التي نتجت عن روما كدولة على مستوى الكرة الأرضية فقد أثرت بتغيير مفهوم الإله إلى حد كبير وبالتالي فقد سمي رب عيسى كإله جميع البشر (رب = سيد) الأرض والسموات، وأدى انعكاس الظروف المادية على الساحة المعنوية إلى مرحلة تاريخية هامة مرة أخرى.

يشكل عيسى جواباً لإرث الله على الضغوطات التي كانت تمارسها السيادة الرومانية على ذهن الإنسان وروحه. وهذا الإرث الذي يسيطر عليه الجانب الوجداني والأخلاقي يمثل مرحلة جديدة ويخاطب جميع المسحوقين، ويمثل أيضاً التخلي عن دين التعصب والإله الخاص بقوم اليهود، ويرتبط تأثيره القوي بهذه

البنى التي يهدفها وينبع منها. لقد تحول الوجدان الإنساني الذي حاولت روما خنقه إلى إمكانية عصيان وتحرر وانسلاخ تاريخي عن طريق اتخاذ عيسى ووالده الرب موقفاً راديكالياً ضد الكهنة اليهود، وسموه إلههم، واحتل مكانه في التاريخ كأكبر وأحدث هوية إيديولوجية للميلاد الذي به بدأ تاريخاً جديداً.

يهدف رب عيسى إلى الملكية الروحية والأخلاقية وليس الملكية السياسية بسبب الشرائح الاجتماعية والمرحلة التي يستند إليها، ولعدم وجود القوة ولا الاستعداد من أجل السلطة السياسية، إذ كان الوسط ملائماً من أجل الملكية الوجدانية ولا مفر من التوجه إلى ذلك. وهناك عدة مؤشرات تدل على أن عيسى كان يتطلع إلى ملكية القدس. وعندما وجه بالصلب تحولت الحركة إلى حركة عقائدية طويلة المدى، واضطرت إلى التوجه نحو جماعة اجتماعية أخلاقية. وفي الحقيقة كان يوجد وقتها عصيان وتمرد ضد الكهنة اليهود الرسميين، فقد أدت عمالة الكهنة لروما والبلادة السائدة إلى حدوث هذا التمرد، ففي البداية أعتقد هؤلاء بأنهم سيدافعون عن القدس بمساندة الجماهير، لكن خيانة يهودا الاسقريوطي الذي كان أحد الحواريين الأثني عشر قد أدت إلى القبض عليه بسهولة، وفي الحقيقة إن الوالي الروماني كان يرغب في إطلاق سراحه، لكن الكهنة أصروا على صلبه لأنهم رأوا فيه خطراً على مصالحهم. وكأنهم أصبحوا ملكيين أكثر من الملك، بينما لو لم يتم مثل هذا العقاب فإن هذا التمرد كان سيبقى اعتيادياً مثله مثل التمردات الأخرى الكثيرة، لكن الظروف الموضوعية الناضجة والانفعال الناتج عن الصلب أديا إلى ظهور أقوى حركة دينية في التاريخ، ونرى في التاريخ عدة أوضاع مشابهة تؤدي شرارة صغيرة فيها إلى إشعال حريق كبير في موقع تتكوم فيه الأعشاب اليابسة، لقد لعب صلب عيسى هذا الدور بجدارة.

تحولت الحالة البريئة للمسيحية في البداية إلى عالم لاهوتي تحت تأثير الفلسفة الإغريقية ولاسيما فلسفة أفلاطون، وسيؤدي مفهوم الثالوث الإلهي إلى عدة تفسيرات وتحليلات نجد صداها في الميثولوجيا السومرية. إن مشاهدة الأب ـ الرب والأم الربة ـ والابن ـ الرب الأقوى في ميثولوجيا أنكي ماردوخ بابل هي مسألة أساسية ذات صلة، كما يكمن وراء ذلك ثالوث أقدم؛ الجد والحفيد الذي يمثل الإرث والمرحلة والابن. لقد طور هيغل تفسيراً فلسفياً معاصراً، أعتمد على مبدأ الطرح والطرح المضاد ـ التركيبة يعبر عن القاعدة الديالكتيكية وللقانون الأساسي لنشوء الكون. وفي الحقيقة فإن هذا القانون يجري حكمه في جميع تكوينات الطبيعة، أما الثنائية الموجودة لدى زرادشت فهي الشكل الأدبي لهذه النظرة، ففي زرادشت لم تصل ثنائية الطرح والطرح المضاد إلى تركيبة جديدة، وسيتم تطوير

ذلك في الفلسفة الإغريقية عن طريق هرقليطس، وستصل إلى معناها الأكثر عصرية مع هيغل.

إن الدور الذي منح لمريم الأم في المسيحية فيما بعد ملفت للنظر، لقد ابتعدت مريم كثيراً عن الأم ـ الربة إنانة وستار. وقد لعب تلقي الربة ـ الأم تيامات الضربة القاتلة في عهد ماردوخ في الملحمة البابلية، وسجنها في البيت في عهد موسى حيث زالت آثارها بعد ذلك من التاريخ تماماً، دوراً مهماً.

ترتبط هذه المرحلة لدرجة كبيرة بتناقض القواعد الصلبة للمجتمع الذكري المعتمد على الرجل الذي كان في الإرث السامي، مع القواعد الأمومة لثقافة عشتار التي كانت ربة الزراعة والجبل في العصر النيوليثي "بنفس مرتبة إنانة وستار"، وتم تجاوز البقايا الأخيرة لثقل الربة بالثقافة السومرية في المرحلة البابلية، وبعد هذه المرحلة فان الربة القديمة أصبحت المرأة العفيفة والمطيعة في بيتها، فناهيك عن مساواتها مع الآلهة أصبحت لا تستطيع إسماع صوتها ولا حتى الكشف عن وجهها. لفت بالعباءة وأصبحت سجينة وغدت الحرم المطلق للرجل القوي، لقد طوّر موسى ذلك في إرث إبراهيم أكثر، وعمق عبودية المرأة في الجزيرة العربية يرتبط بهذا التطور التاريخي.

إن مريم أم عيسى هي ربة في أقدم نمط، للإرث..؟. لكن فقدان المرأة لموقعها بشكل مستمر وصل في مرحلة ولادة عيسى إلى أن تكون وسيلة للإنجاب فقط، وهكذا كانت الأوضاع عموماً، إن تاريخ المرأة ما بين 2000 ق.م - 2000م. هو تاريخ لأدنى طبقة اجتماعية وتحول لصالح الرجل إلى سلطة سياسية باستخدام الاستغلال والعنف والتحايل، وأصبحت المرأة تحت حكم العبودية بسبب الخاصية الجنسية، إلى جانب عبودية الرجل، أي أنها تعرضت لعبودية مضاعفة، فبعد أن كانت الربة الأم تيامات تحارب نداً للند في مرحلة بابل، حتى انه في مرحلة موسى عاش اشتباكاً شديداً مع قريبته ماريام التي لم تخضع لموسى بسهولة.

أما بالنسبة لمريم أم عيسى فلا يوجد لها أية فاعلية. لقد نفخ الرب فيها، وهي أنجبت، وهذا يعني السيادة المطلقة للرجل، فالنفخ يرمز الى هيمنة الذكر والى أن دور المرأة لم يتجاوز تنشئة الطفل في أحضانها. أما المسألة الأخرى الهامة فهي انه ما أطلق على النفخ المذكور اسم الروح القدس من أجل تحريف القوة الإلهية التي يجب أن تتمثل بالمرأة، لقد سرق ذلك النفخ من قبل المرأة بشخص مريم. ونرى نفس الأثر عند السومريين لدى الأم الربة، وفي الحقيقة توجد أهمية إيديولوجية كبيرة لهذا الموقع، وهذه الأهمية ذات دور وتحديداً في فقدان المرأة لفعاليتها التي ستزول بشكل كبير في المرحلة الإقطاعية. ومنذ ذلك اليوم بقيت المريمات ممسوخات يبكين أطفالهن في صمت مرتبطات بأزواجهن وكأنهن

أسيرات إلى الأبد. وليس لهذا الوضع أية علاقة بطبيعة المرأة إطلاقا، مثلما لها علاقة بالهيمنة السياسية الكبيرة للرجل. فإذا كانت الأمهات الربات حاكمات مهيمنات في إحدى المراحل فإن هيمنة الآلهة الرجال أصبحت مسيطرة في الدولة الطبقية في التاريخ، إن هذا الواقع الذي ترك في ظلمات التاريخ وتمت تغطيته بمفهوم الشرف والكرامة بطريقة مزدوجة من قبل الرجل، لا يمكن أن يظهر للوجود ويكون له معنى موازٍ لمستوى الحرية الاجتماعية العام الذي يحققه النضال التحرري، من المؤكد أن المسيحية تحولت إلى هوية إيديولوجية قوية للعصر الإقطاعي بعد ان اكتسبت معنىً فلسفياً. وأنشأت ثيولوجيتها منذ القرن الخامس بعد الميلاد على يد باباوات الكنيسة، ويعبر تحولها إلى إيديولوجية دولة منذ تلك المرحلة عن الاعتراف بدورها كقوة إيديولوجية خلقت العصر الإقطاعي من جهة وعن الوفاق الذي تحقق مع روما العبودية اثر مرحلة نضال طويلة بعد ابتعادها عن جوهرها من جهة أخرى، ولم تبق الإمبراطورية الرومانية تلك الإمبراطورية العبودية القديمة ولم يبق الدين المسيحي ذاك الدين الذي تتحقق فيه المساواة والدين المقدس لعيسى وتلاميذه.

لقد بدأ عصر هيمنة الدوغمائيات الدينية على عالم الفكر مع المسيحية، فمنذ القرن الخامس الميلادي وحتى القرن الخامس عشر أي على مدى ألف سنة، أصبح أسلوب التفكير الديني هو المسيطر، بينما نرى غلبة الفلسفة الكلاسيكية في الألفية الممتدة بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الخامس بعد الميلاد، فمن الواضح أنه قد حدث التراجع والسبب الرئيسي لذلك هو انحلال مجتمع المدينة واكتساب اقتصاد الريف أهميته مرة أخرى، فالمدينة تعبر عن مجتمع كبير متداخل يتطلب تقسيماً للعمل وإدارة أكثر تطوراً، وتدفع إلى الفكر الواقعي، بينما المجتمع الريفي هو مجتمع محدود ورتيب، وأكثر انفتاحاً على الدوغمائية، إذ ان الإدارة الفردية والاقتصاد لا يحتاجان إلى اقتسام العمل، وهذه الخصائص البنيوية تجعل هذا المجتمع منفتحاً على الدوغمائيات الدينية، وهذا هو السبب الذي أدى الى تسمية العصور الوسطى بعصر الظلمات، لقد ترك العصر الكلاسيكي أثراً لا يمحى في تاريخ الإنسانية وهو أساس لظهور العصر الحديث ويمثل أكبر يقظة لعقل وإرادة الإنسان. أما عصر سيادة الدوغمائية الدينية فإنه ذات أهمية كونه سبب تراجع العبودية وتمهيد الأرضية للعصر الحديث. إن الانكسار الذي خلفه التقدم الكبير لمجتمع المدينة هو نتيجة أدت إلى التسرع وعدم المقاومة وكان الوضع مختلفاً حتى لو كان من حيث الشكل تراجع نحو العصر النيوليثي أحياناً، لأنه قد تم تجاوز العصر النيوليثي الذي خلف العبودية تماماً، وكان جوهر المجتمع الجديد أكثر تقدمية من المجتمع العبودي حتى لو كان المجتمع الجديد ريفياً غالباً. لقد اكتسبت

الإنسانية ملامح شخصية لا يمكن تقييدها بسلاسل العبودية، فقد تحققت بنية فكرية ومعنوية جديدة.

إن الإنسان الذي دخل القرون الوسطى لم يكن هو نفسه في عهد سومر ومصر. ولا يمكن أن يكون عبداً إلا للإله الذي في السماء وإن كان تحت سيطرة العقائد الدينية، واعتبر العبودية للملك ـ الإله أكبر كفر. لقد دربت الأديان الإنسان ضد العبودية وأنضجته بما فيه الكفاية، وكان عيش التخلف يتم في انهيار المدن والوهن الفكري السليم، وفي هذه المجالات يعبر وجود مدن متقدمة في العصر النيوليثي، وإنشاء المدن الجديدة، ومرحلة كانت فيها كتب الفكر الصحيح مخبأة في المكاتب، وعند النظر عن كثب يمكننا أن نفهم أنه لا يمكن الدخول إلى العصر الحديث دون المرور بعصر تربية المعتقدات.

وبهذا الشكل يمكننا التعرف إلى المرحلة والعالم الذي تكونت فيه الإيديولوجية الإسلامية باعتبارها لب الموضوع كما تحدثنا سابقاً. إن المسيحية وحتى ولو قدمت تنازلات من جوهرها قد حلت الإمبراطورية الرومانية من الداخل واكتسبت منزلة اجتماعية لدى الإيديولوجية الرسمية في روما الشرقية "البيزنطية"، وحققت تفوقاً على الإمبراطورية البرسية ـ الساسانية، ودخل هذا الدين الجديد مرحلة انتشار جديدة في أوروبا. واستطاع تحقيق التقارب الشرقي ـ الغربي حتى لو كان على أساس الإيمان. فإذاً ماذا سيكون دور الإسلام؟. هل هو تجديد للتاريخ أم تكرار له ؟. وما هو الفراغ الذي سيملأه ..؟ وإلى أية موجة حضارية جديدة سيؤدي..؟ هل سيجد قوته من ظهوره الجديد أم بإحيائه بعض التقاليد..؟ هل سيملأ فراغاً جغرافياً فقط أم سيمثل قوة تحوّل الحضارة القديمة..؟ إن الإجابة على تلك الأسئلة المصيرية والحيوية تحمل أهمية كبرى من زاوية تعريف الإسلام.

إن انطلاقة الإسلام في التاريخ يمكن ربطها بالميول الثورية المتطرفة لعصر الحضارة الإقطاعية، وهذا يبدو أكثر واقعية، وإذا كانت المسيحية هي المسار التطوري والإصلاحي للإقطاع فإن الإسلام هو المسار الثوري الراديكالي له، ومن الواضح أنهما قد انبعثا من نفس الجذور الإيديولوجية. إن الإنجيل والقرآن هما الدليل الأكبر على مصدرهما. فلا يمكن التفكير بالقرآن والإنجيل دون العهد القديم، ولا يمكن تصور التوراة والعهد القديم بدون الميثولوجيا السومرية والمصرية أيضاً. وأعتقد أن تقييماتنا المتعلقة بالحضارة قد أوضحت هذا الواقع بشكل كاف.

من الخطأ التفكير بالإسلام على أنه مجرد اقتباس أو تحليل بسيط للكتاب المقدس "العهد القديم والجديد"، وعلينا أن نؤكد بأن التعبير التحولي للإسلام قد

كون خصوصية عصره بمقدار تأثره بالماضي. إن وصف النبي محمد كشخصية ثورية تليق بالعصور هي مسألة لا تقبل النقاش. وعند مقارنته بالأنبياء الثلاثة الهامين إبراهيم، موسى، عيسى. نرى أنه استطاع عرض منطقه وإرادته بشكل أقوى وطبقه ونظمه على أرض الواقع، وهو الشخصية التي استطاعت تنظيم مسارها بشكل ناجح وتحولت بجهودها الكبيرة إلى وضع القوة الحاكمة في الجزيرة العربية وهي على قيد الحياة، وعلى هذا الصعيد يمكن مقارنتها بشخصيات نادرة في التاريخ مثل الاسكندر ولينين. وعند مقارنتنا للمفهوم التاريخي والاجتماعي سنرى النبي محمد علمياً ليس بالدوغمائية الدينية وإنما كمعلم إيديولوجي ورجل سياسة وعملياتي ولا حاجة للنظر إلى النبي محمد وتقييمه من خلال اكساءه درع من القدسية. لأن العلم سيعطيه حقه لأنه من الشخصيات التي تأتي في المقدمة تاريخياً، فالتطور العقائدي للإسلام لم يسم بمحمد كما يعتقد، بل تم إظهاره بهوية شخص منهمك بالعقيدة الدينية وهو لا يستحق ذلك.

إن إنشاء محمد من أيدي العقائديين المتسلطين بالتاريخ والحاضر، هو أحد أهم الأعمال الأساسية التي يجب أن نقوم بها في ثورة الخلق الجديد "النهضة" للشرق الأوسط. وإن هذا التاريخ هو التاريخ الذي يظهر العقائد والممارسات التي تتناقض مع شخصيته، ويظهر ما جرى مع أهل البيت، وبقاء جثمان محمد على الأرض مدة ثلاثة أيام دون دفنه، على مدى جرأة وكيفية مسار الخيانة منذ اليوم الأول. إن حادثة كربلاء ليست فقط مأساة تاريخية، بل هي أبكر انفجار للخيانة في أحضان الإسلام وواقعها القوي. وتقدم هذه الخيانة التي اعتدت على أقدس القيم، مثالاً للتطرف والوحشية التي ستظهر بها عبر مراحل التاريخ القادمة، إن أبسط يقظة علمية تشترط تحليل واقع وتاريخ الإسلام بأدق تفاصيله. إذ لا يمكن تكوين فرد عصري دون إزالة الرواسب المتكلسة التي تحيط بذهنية الدول الإسلامية والشرق الأوسط كاملاً. وسيكتسب العلماني أو المجدد الإسلامي الحقيقي معنى مفيداً له عندما يدرك دوره ويقوم بما يجب القيام به أمام هذا الواقع. إن الاحترام والفهم الحقيقي لشخصية النبي محمد غير ممكن أن يكون ممكناً إلا بتجاوز الاستبداديين والعقائديين الذين لا يمكنهم رؤية هذه الحقيقة، فهم يصبون الإسمنت على العقل باستمرار ويكرسون القمع كفراعنة ونماريد معاصرين.

سنحاول تقديم مساهماتنا للجهود التي حاولت تحليل الإسلام كضرورة للالتزام واحترام الذين بذلوا جهوداً بهذا الاتجاه حتى الآن:

1 - إن التوحيد يعني وحدة الله، وهو المصطلح الأساسي الذي يجب تسليط الضوء عليه. إن فهم وجود الله ووحدته واعتبار النبي محمد كآخر رسول له بشكل كلي له أهمية كبرى. التوحيد والوجود ضد من ولماذا..؟ لماذا آخر رسول..؟ لقد

بقي اللاهوتيون الإسلام يبحثون عن جواب في الإطار الديني، ولم تستطع التحليلات العلمية التي تم إجراؤها تجاوز الشروحات المحدودة، لأنها ليست على دراية بالميثولوجيا السومرية. ولم تستطع الحضارة الأوروبية تجاوز مركزيتها الأنانية ولهذا بقيت تفسيراتها محدودة، والشرق الأوسط في تنوره لا يستطيع التهرب من مسؤوليات القيام بذلك اعتماداً على مواهبه الذاتية، ولا يمكن أن ينجز مهمته هذه بنجاح إلا بعد تمزيق المحذورات المفروضة على ذلك.

تؤكد الوثائق الموجودة بين أيدينا أن الحضارة السومرية والمصرية قد شهدتا قفزة وتحولاً هاماً في مرحلة تطور الأديان المعتمدة على آلهة متعددة وفي العصر النيوليثي الذي كانت المرأة فيه ذات ثقل مهم. وعندما أثبتت البنية الاجتماعية المستندة إلى التمايز الطبقي والتفرقة الجنسية نفسها في غزارة الإنتاج، ازدادت الثقة بالمثيولوجيا التي طورها الكهنة. وإن لهذا دوراً كبيراً في اتخاذ معابد الكهنة كمراكز إنتاج. لقد أدى ظهور الأديان السماوية في مرحلتها الأولى إلى تحولات جذرية في المعتقدات الدينية، وتم اتخاذ الاستقرار وعدم التغيير في النظام السماوي مثالاً للاعتقاد الأساسي. وإن لاستقرار النظام السماوي المذكور تأثير في تطور التعصب العقائدي في الشرق الأوسط. إن المصطلحات مثل عدم التغيير والأبدية الأزلية مرتبطة بهذا التأثير، وإن أكبر فائدة لفكرة عدم التغيير والتي قدمتها للبنية العقلية الإنسانية وتطورها هي تركيبتها المنفتحة على فكرة القانون الدائم، وبذلك يتم البحث عن تطبيق النظام السماوي في الأرض وستبحث المعتقدات الدينية الجديدة عن ذلك دائماً، وستحاول جعل ذلك مسيطراً على العالم الذهني، ورغم المحافظة على بنية تعدد الآلهة فإن عددها يتناقص مع مرور الزمن وتبرز بعض الآلهة الكبيرة التي تمثل ظواهر الأرض والسماء والهواء والماء والعواصف، ورغم أنها تواصل في أن تكون على شكل الإنسان فهي تحاول القيام بمهمة خلق الإنسانية على شكل الإله السيد والعبد الخادم كنتيجة للتمايز الطبقي. إن الإله أنكي العلامة والماكر هو المعلم الذي أوجد السيد ـ العبد، وهو أستاذ الآلهة الآخرين في هذا الموضوع ويقنعهم بقبول الفكرة، لكن تم خفض دور الإلهة ننهارساغ "إله الجبال" وشكله الأخير إنانة إلى أدنى المستويات وكأنه بذلك تم إنشاء النظام الأرضي كترجمة لمجلس الآلهة الذي خلقه بوفاق هادئ والذي رفض عبده، والذي كان ذكراً على الأغلب. إن طرد آدم وحواء من الجنة والحكم عليهما بالخدمة الأبدية رسم كقدر للإنسانية. لقد وضع الكهنة السومريون حجر الأساس للتطور الديني في الشرق الأوسط وحتى في العالم من خلال إسناد بنية المجتمع الطبقي المستند إلى تمييز السيد والعبد إلى القواعد الدينية والميثولوجية. ويجب على تاريخ الأديان أن يقبل هذه الحقيقة، ولا يمكن لأي تحليل ديني أن يستند إلى

أساس تاريخي صحيح وشرح واقعي دون القبول بذلك، ولن يتخلص من النواقص وكثرة المعاني الخاطئة. ولا يمكن إنكار أن الأديان السماوية في اساسها مدينة لتصورات الكهنة السومريين. لقد قامت معابد الكهنة بمهمة الرحم الأساسية للإنتاج المادي والإبداع الإيديولوجي بنفس الوقت. ولعبت الحضارة التي تم خلقها هنا الدور الأساسي في تطور الإنسانية وبداية التاريخ.

إن أهم مساهمة قام بها الكهنة السومريون بالنسبة لمفهوم الإله هي رفعه إلى السماء وتحميله القوة الأساسية للطبيعة وجعل البشر بموقع العبيد في الوقت الذي يتم فيه تسامي صفات السيد ـ المالك في المجتمع، وبالتالي فقد تشكلت الأسس الإيديولوجية للسلطة السياسية. لقد تم تطوير الإله وحاجة المجتمع للعيش بنفس السوية في اللاهوت السومري، وبقول آخر إن الانعكاس أو المقابل الإيديولوجي للسلطة السياسية التي كانت واقعاً مادياً هو الله الذي خلق البشر خدماً له، ومن خلال ذلك فقد تماثل مصطلح الإله مع العامل السياسي وبذلك أصبح الجواب الإيديولوجي للساسة، وبدون خلق المقابل الإيديولوجي لا يمكن تسيير أي نظام سياسي، فالممارسة السياسية تمت دائماً تحت ظل الآلهة، وتداخلت السياسة ذاتها مع الدوغمائية الإيديولوجية في الأذهان مثل تلاحم الظفر باللحم، وبدون تحليل القوة السياسية التقليدية لن تتحقق العلمانية مطلقاً نظراً لهذا الوضع.

لقد تطور التوحيد الذي تم ربطه بجده النبي إبراهيم بشكل مماثل لحاجة القبائل للتوحد ورتابة الجغرافيا كما شرحنا سابقاً، ونرى هنا أن مفهوم الرب بعد مرحلة الطوطمية لدى أنظمة القبائل في الجزيرة العربية جاء بعد مفهوم الإله "أل" الذي تم تقديسه لدى السومريين الذي عملت القبائل على اتباعه، ولكن لا زال لكل قبيلة "أل" خاص بها، وهذا الوضع يفتح المجال أمام الفوضى مما يفرض مزيداً من الحاجة إلى الاتحاد، والأصح هو رؤية مبدأ التوحيد في هذه الحاجة الماسة إلى الوحدة حسب علم الاجتماع. فلماذا لا يحدث التفكير في توحيد "أل" في وقت آخر، بل عندما تشعر القبائل القريبة من بعضها بالحاجة إلى الوحدة والتقارب..؟، أن العهد القديم يشرح الحاجة الماسة للتوحد ضمن القبائل ذات صلة القربى لإبراهيم، ولا يمكن تحقيق الوحدة بوجود عدة "أل" مختلفة في القبائل المتجاورة، وكان على إبراهيم توحيد "أل" ات القبائل المتبقية من مرحلة الآلهة المتعددة حتى يقوم بتحقيق مهمته، إن تحقيق ذلك ضمن القبائل القريبة منه على الأقل وإعلان نفسه كرسول لـ "أل " الوحيد هو العنصر الأساسي في التكوين الإيديولوجي. وقد خصص بهذه العملية إيديولوجية "أل" وحقق القفزة المطلوبة من خلال إعلان نفسه رسولاً لـ" أل"، ويمكننا تسمية ذلك بالتحول والانعطاف الكبير الثاني في تاريخ الأديان،

وبذلك أصبحت الهوية الإلهية الجديدة واحدة من خلال التوحيد وأدخلت الإنسان في مرحلة الرسول لأنها أكدت أن الإنسان لا يمكن أن يكون إلهاً.

إن المعنى السياسي والاجتماعي لذلك هو الوصول إلى مأسسة الشيخ في الأرستقراطية القبلية، ولا يمكن للشيخ أن يكون إلهاً ـ ملكاً كما كان الحال عند السومريين، لأن القبائل لم تشهد الفرز الطبقي تماماً، فالشيخ لا زال ينتمي إلى القبيلة ويحيا حياته اليومية بشكل متداخل مع الآخرين، ولم يحدث انفصال بينه وبين المجتمع، وليس في وضع يمكنه أن يكون إلهاً، إن التأليه كخاصية تعود إلى الملوك فقط وأخذت مكانها في ثقافة المرحلة، لقد تم التحقيق والتنفيذ الإيديولوجي لذلك منذ زمن طويل في المجتمع السومري والمصري. إن الذي كان شيخاً يرمز للعصيان والتمرد ضد الإله ـ نمرود، أما جذوره الإيديولوجية فقد اعتمدت على أنه لا يمكن للإنسان أن يكون إلهاً وحاول تحديد الهوية الجديدة للإله من خلال إيديولوجيته المعتمدة على أساس رفض الإنسان الإله، وحقق مرحلة كبيرة في تاريخ الأديان من خلال نضاله الإيديولوجي الذي أعتمد على توحيد الآلهة، وعلى الرسول الذي يكون الأقرب إلى الله، وبذلك تم تحقيق تحول إنساني مرن بالنسبة للعبودية، لقد تكون تركيب جديد من خلال صراع تأثيرات المثيولوجيا السومرية والمصرية مع طوطمية القبائل، أي من خلال الطرح والطرح المضاد للتوصل إلى تركيبة جديدة، هذه هي حقيقة التوحيد التي تتزامن مع توحد القبائل والأقوام ذوي القربى التي اضطرت إلى التوحد من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية السياسية فتعني تحديداً لسلطة الشيخ، إن التوحيد هو الهوية الإيديولوجية الكبيرة للقبائل التي توحدت تحت سلطة الله والشيخ، وأصبح الله كاللقب ومصدر قوة للقوم. فنداء: يا الله يعني " امنحني القوة وأنجدني "، وأصبح ذلك شعاراً للحياة وشكلاً من الوحدة. وصدى شعار "يالله" الذي دوى على مدى قرون أصبح مفتاحاً سحرياً لمعادلة : "لنتوحد، ونستمد القوة، لننتصر".

عندما ننظر إلى التطور التاريخي، نرى بوضوح أن عبادة الله تهدف إلى التوحد والقوة. لكن المصطلحات كالتي تفيد بذهاب العبد المحبوب إلى الجنة هو الجانب الكمالي الأدبي لفنتزة المسألة. إن جوهر المسألة هو الحاجة لسلطة قوية عن طريق التوحد الاجتماعي والسياسي. يجب أن نرى التمييز بين القسم الأدبي الذي تلجأ له الإيديولوجيات من أجل أن تكون مقنعة لذهنية المرحلة غير المتطورة، وبين جوهرها الأساسي الذي يلبي الاحتياجات السياسية والاجتماعية، وإلا لا يمكن التخلص من الدوغمائية التي يتم الوقوع فيها قصداً في التاريخ، وهناك واقع سياسي واجتماعي تحت كل غطاء إيديولوجي، وتحت هذا الغطاء الإيديولوجي كتحليل نهائي، التمايز الاقتصادي والمصالح. إن عدم التحليل بشكل

شمولي وحصره في مكان معين يؤدي إلى الوقوع في خطأ منهجي مقصوداً كان أو عفوياً في نشاطات علم الاجتماع.

لقد تطور هذا التحول الإيديولوجي الكبير الذي تم اعتبار النبي إبراهيم جده في مرحلة موسى وعيسى، وهما قريبان لبعضهما من حيث الجوهر. إضافة إلى ذلك فقد عاش 124000 نبي في مرحلة ألف سنة حتى عيسى حسب الكتب المقدسة، ونفهم من ذلك أنه كان يتم إعطاء قيمة وصفة نبوية إلى كل الأشخاص المثقفين والذين يمتلكون ضميراً في كل المجتمعات السابقة، كانت مهمتهم الأساسية هي جعل الماضي والإرث المرتبط به حياً إضافة إلى أحياء آمال يوم التحرر والخلاص والجنة والبلد الذي تم الوعد به. وبرز البعض منهم أي الذين اكتسبوا أهمية في بعض المراحل كموسى وداود وسليمان ويحيا وعيسى ويرميا عزرا... والذين كانوا كالمربين وهم من نفس حلقات السلسلة، إن النبوة كعبادة الأجداد هي تقليد اجتماعي اكتسبت صفة إلهية ولها ممثلون في كل وقت، ولا توجد أية مرحلة بدون نبي، وتتم الحاجة إلى النبوة في مراحل الأزمات الكبيرة منذ عهد إبراهيم، وأطلق على الذين يحملون الكتاب بالدرجة الثانية حاخام في اليهودية وبطريرك في المسيحية وشيخ الإسلام في الإسلام وهؤلاء أغلبهم كتاب مفسرون للكتاب وسنة الأنبياء.

لقد انفجر عصر النبي محمد الإسلامي في هذه الظروف كالبركان، وأننا لن نكون واقعيين إذا فسرنا تطور الإسلام وانتشاره بشكل سريع على أنه حدث بمجرد قوة السيف، إذ لا يمكن لأي قوة أن تؤدي إلى تطورات اجتماعية دون نضوج الظروف، وحتى إن تم تطبيقها فإنها يمكن أن تؤدي إلى نتائج تخريبية. إن عنف الإسلام لا يعني إلا إزالة حواجز هشة شبيهة بالكثبان الرملية المسيجة للانهيار والتي تنجرف وتنهار بسهولة إثر تلقيها عدة ضربات فقط، ويضاف إلى جريان نهر الحضارة الإقطاعية القوي عدة روافد نهرية وبذلك يتحول إلى سيل لا يمكن الوقوف أمامه. وستصبح الإنسانية بهذه الحملة الثورية الكبيرة شكلاً وقوة جديدة لتاريخ الحضارة في المراكز الأساسية لها من خلال التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي الجديد.

في الوقت الذي نعرّف هذا التطور التاريخي الكبير بهذا الشكل، فإن رؤية خصائص ومساهمة النبي محمد عن كثب ينطوي على أهمية كبيرة. كما تشير المصادر فإن الظروف التي ولد ونشأ فيها النبي محمد هي ظروف مثلث مكة والمدينة والطائف والتي تعتبر المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية الموجودة في نقطة تقاطع الإمبراطوريات الثلاث التي تشكل القوى الأساسية لذلك العصر وهي الإمبراطوريات البيزنطية والساسانية والحبشية. لقد تم إنشاء هذه المدن

اعتماداً على التجارة التي شهدت تطوراً كبيراً بين الإمبراطوريات الثلاث. فالتمدن يعني التطور والغنى والازدهار بالنسبة للنظام القبلي الصحرواي، فالتمدن في اللغة العربية يعني التحول إلى المدينة ويعني التحضر، واسم المدينة مأخوذ من هذا الفعل، وهذه المدن التي بناها العرب الأثرياء الساميون على الطرق التجارية مكنتهم من التحضر.

يشكل الإرث العبري الذي بدأ بالنبي إبراهيم الهوية الإيديولوجية للشرق الأوسط، ومرحلة تاريخية هامة جذبت القبائل الصحراوية الواسعة إلى مرحلة التحضر. لقد تجاوز الحضارة العبرية والسومرية رغم اعتماده على تراكماتها، وإن هذا الإرث هو الراية الإيديولوجية للموجة الحضارية الثانية والكبرى، ويعتبر الذهنية المتطورة للتحرك الاجتماعي الكبير وتشكلها مجدداً من الناحية الروحية، لقد تم تحطيم الأصنام الطوطمية التي كانت تمثل تخلف القبيلة البدائية من جهة، ومن جهة أخرى تم التمرد والعصيان على تعدد الآلهة الشبيهة بالإنسان وعلى الأنظمة المصرية والسومرية التي قدمت نفسها مثل الملك الإله، إن تحول "أل" إلى الله هو السلاح الإيديولوجي الأساسي للتطور التاريخي، ويعتبر شعار " الله أكبر، محمد رسول الله"، لهو أكبر قوة دعائية للمؤمنين الذين تجمعوا حوله، وعندما تم الوصول إلى عهد النبي محمد هدأت البنى السياسية مقابل تطور الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وأصبحت الإيديولوجيات الرسمية متخلفة وعدوانية، وكان يتم تجاوز العبودية بسرعة من خلال التمأسسات الاقتصادية والاجتماعية، وكانت أشكال الدول الحاكمة تشهد إصرارا كبيراً على التعصب وباتت متخلفة أكثر من الملكيات المطلقة في سومر ومصر وكانت بعيدة عن تأمين العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي خلقت مجدداً، وأصبحت عائقاً أساسياً أمام البنية السياسية والنمط الجديد للإنتاج وعلاقات القوى الاجتماعية، ولا سيما الإمبراطورية البيزنطية والساسانية اللتان كانتا قد زالتا منذ زمن طويل وفقدتا حيويتهما، وكانتا تشكلان سداً أمام الحملة الحضارية الجديدة ولا بد من تجاوزهما لانهما لا تمثلان سوى مخلفات أجهزة دولة عبودية.

التطلعات المتصاعدة للحياة الجديدة والخيالات الإنسانية تصطدم بهذه السدود وتقف عندها، وكان التطور الذي شهدته الإمبراطورية البيزنطية عن طريق المسيحية يتحول إلى تعصب أدى إلى ممارسة القمع والظلم مع مرور الزمن، وخرجت المسيحية التي هي أمل تحرر المضطهدين بشخصية عيسى البريئة عن أن تكون دين الوجدان والأخلاق. وتم تحويلها إلى أداة لألاعيب السلطة وتم تحريف المسيحية الرسمية في مرحلة سمو النبي محمد عن جوهرها، كأداة توسع وضغط لأصحاب السلطة، وتم استبعادها عن أن تكون أمل الجماهير، واستخدمت

كوسيلة لتخدير البشر، والتقليد العقائدي الذي ينتظر المسيح "المنقذ" بدأ يبحث عن مسيحه الجديد أي نبيه الذي تحدث عنه العهد المقدس. وبدأت الإشارات المتعلقة بزمان ومكان ظهور النبي الجديد تزداد يوماً بعد يوم. وكانت النقاشات تدور حول هذه المسألة والعلامات.

تم إيقاف التصاعد "المانوي" في الإمبراطورية الساسانية على يد مجموعة من الكهنة الذين جعلوا الزرادشتية متعصبة "275 م" عن طريق المجازر. وبقيت الإمبراطورية بعدها بلا متنفس أمام التجديد ولم يبق للزرادشتية أي دور سوى أن تكون وسيلة للتعصب، وكانت الحضارتان الصينية والهندية تشهدان صراعات داخلية كبيرة. وكان تطور الإقطاعية فيهما يشهد مرحلة مضطربة. وهكذا فان الإنسانية كانت تبحث عن الخلاص عبر الجماعات الصوفية والطرق السرية التي انتشرت بكثيرة كما كان الحال في المرحلة الأخيرة للإمبراطورية الآشورية. وبقيت هذه القنوات الصوفية التي كانت شبه دينية وشبه فلسفية، السبيل الوحيد المفتوح للحرية الإنسانية، لكنها لم تستطع أن تكون التيار الأساسي للتحرر، حيث لم يتم فتح الطريق أمام الجداول والبحيرات الصغيرة لترفد تيار النهر الرئيسي.

ان وجود تلك المدن بجوار الإمبراطوريات الثلاثة يعد ميزة بارزة لها. ولم تتمكن أية إمبراطورية ضم المدن المذكورة إلى حدودها بشكل كامل، وكأن الصحراء كانت تلعب دور بحر من الدفاع الطبيعي. ولم تستطع أي قوة مقاومة القبائل العربية التي كانت تمتلك الحديد وقوة السيف والخيول، وإن الخيول والسيوف تلعب دوراً استراتيجياً هنا، ونضجت الظروف الأساسية لمرحلة تاريخية استراتيجية عند توحد الدور الذي تلعبه الجمال (سفن الصحراء) في التجارة مع السيف والخيول التي توحدت مع قوة الدفاع الطبيعية للصحراء. ولم تتخلص جيوش الإمبراطوريات الثلاثة من تكبد الخسائر والانسحاب رغم قيامها بعدة حملات على مكة، إذ ليس هناك ما تقوم به الجيوش النظامية في هذه الظروف، إن قصة تشتت الجيش الحبشي من خلال الحجارة التي أمطرتها طيور الأبابيل "أية في القرآن" هي الشرح الديني لمحاربة الفرق القبلية بواسطة السيف والخيول، وفي الوقت الذي أدت فيه التجارة بين الإمبراطوريات الثلاثة إلى غنى غير طبيعي وظهرت قوة الخيول والسيف فان حرب الكريلا حسب ظروف الصحراء جلبت معها إمكانيات نجاح كبيرة، ولكن يصعب الاعتماد على حرب الكريلا الصحراوية في كل مرحلة تاريخية وكل حرب بما فيها تلك التي قامت ضد الأنظمة في الصحراء الغربية والمغرب والجزائر والسودان، وهناك قيام كريلا مشابه لكريلا الصحراء من صحاري منغوليا وتركمانستان، أدت إلى أقوى حملات توسع في التاريخ. وكذلك كانت طرق الكر والفر عند الآريين تعتمد على أنظمة جبال

زاغروس ـ طوروس، بينما اعتمد الالمغان والسلاف على غابات وسهوب الشمال ضد المراكز الحضارية في ظروف مشابهة، وبنفس المنطق. ومن المعروف أيضاً أنه تشكلت ظروف مشابهة في المراكز الحضارية التي تطورت في وديان النيل ودجلة والفرات ابتداءً من الألفية الثالثة قبل الميلاد في شبه الجزيرة العربية. لقد أدى وجود القرى ذات الإنتاج الغزير في العصر النيوليثي، والظروف التجارية التي ظهرت مبكراً بين مراكز مدن النيل والفرات ودجلة إلى تحول للقبائل السامية، وهذا ما جعلها قوة دفاعية وهجومية في آن معاً، وكانت تقوم بالنهب بشكل متتابع، وتعيش حياة مستقرة عندما تحصل على القوة، وتهرب إلى أعماق الصحراء عندما لا تتمكن من امتلاك القوة.

إن النسب إلى إبراهيم كجد، قد رفع هذا الإرث إلى أعلى المستويات وأكسبه شخصية وحّوله إلى حضارة أصيلة مع مرور الزمن، وأصبح هذا التأثير فعالاً عن طريق قوة الجمل وذلك في المرحلة التي لم يمتلك فيها الخيول والحديد قط. وازداد التأثير بعد عام ألف قبل الميلاد بعد دخول السلاح الحديدي، وتم تشكيل أول ملكية عبرية في التاريخ، إن اعتداء المصريين والسومريين ومن ثم الآشوريين والساسانيين والرومانيين على مراكز الحضارة الجديدة والبطش بها بلا رحمة وإزالتها أحياناً لم يكن عن عبث، وكانت الاعتداءات المنطلقة من الصحراء تضغط على هذه المراكز وكان لها قابلية لتشكيل البديل أيضاً. لقد لعب الإرث القبلي دوراً أساسياً في انهيار سومر ومصر وحتى روما المزدهرة، ويشكل عهد النبي محمد مرحلة الذروة التي أعدت التصاعد المزدهر إلى حضارة جديدة انفجرت كالبركان تحت الظروف الجديدة لهذا الإرث والتي مازال تأثيرها مستمراً حتى الآن أي مرحلة الإقطاعية.

2 ـ إن شخصية محمد تظهر تطوراً متناقضاً للغاية ضمن ظروف المرحلة التي تحدثنا عنها. وكانت الثقافات المنتشرة للإمبراطوريات الكبرى الثلاث متقدمة مقارنة مع ثقافة القبائل العربية. وتفصل بينها هوة كبيرة. وكانت طواطم القبائل المتراكمة في الكعبة ميتة، و لم يبق لها أي خاصية تلهم بالقوة، حتى لو كان بعضها كاللات ومناة والعزة لا تزال تلقى بالاحترام، ورغم تمثيلها من لدن القوية ظلت بعيدة عن إعطاء الإلهام لحضارة جديدة، بل تم منع الأفكار الجديدة والطرق الصوفية وكانت العقلية والمؤسسات التي تعتمد على التعصب القبلي تحكم البنية الفوقية، والكل يفتخر بقبيلته، وكان يتم النظر إلى المرأة بازدراء إلى درجة وأدهن.

تعتبر الرحلات التجارية بين مكة والشام ذات أهمية أساسية في النضوج الفكري للنبي محمد، ومن المعروف أنه أستمع إلى الكهنة النسطوريين المسيحيين

وناقشهم كثيراً، وإن الزواج والثقة والحب من خديجة له دور كبير في تبلور أفكار إيجابية بحق النساء، ويتضح أنه ما أمكن لمحمد أن يكون نبياً دون خديجة، وتأثير خديجة أكثر من مريم وحتى لو كان بشكل مبطن، وتمثل ثقافة المرأة الربة. يعود سبب عدم إبلاء التاريخ الإسلامي لخديجة الدور الذي تستحقه إلى سيطرة البنية الاجتماعية الذكورية، فمن الواضح أن خديجة هي أول من أيدت محمد في مجتمع مكة، وكانت تكبره سناً، وكانت غنية وقوية لدرجة يمكنها من امتلاك أكبر قافلة تجارية، ومن الواضح أن خديجة تشكل تناقضاً جدياً في مجتمع مكة ذي الهيمنة الذكورية التي تصل إلى درجة ترك الفتيات للموت وهن على قيد الحياة "وأد البنات"، وإلى درجة الازدراء. ولذلك فإن علاقات خديجة وزواجها من محمد تعني من ضمن ما تعني أنها لا تستطيع مقاومة المجتمع المتوحش بمفردها، وإن عدم زواج محمد بامرأة أخرى حتى وفاة خديجة مرتبط بالقوة المادية والمعنوية لخديجة أكثر من أن يكون احتراماً لها، وتظهر تأييدها لنبوة محمد كأول تأييد نصيبها في التكوين، كان علي أبن عمه وزيد الذي كان بموقع عبده هما من أوائل الذين آمنوا بنبوته، وتظهر هذه الصورة الصفة الثورية للمجموعة، لقد حطم الروابط القبلية في شخص عليَّ، وفي شخص زيد يعتق العبودية ويزيلها بالثورة، لقد تحققت ثلاث ثورات بهذا الثلاثي الأول حتى لو كان بطريقة بدائية، إذ قام بثورة نسائية بعلاقته مع خديجة وبثورة قبلية مع علي وبثورة ضد العبودية مع زيد. كان يحكم علاقتهم نمط ثوري، فقد شكلوا حياة جماعية ومع توسع المجموعة أضحى لا مفر من وضع المانيفيستو الإيديولوجي. إن انزواء محمد في غار حرّاء قبل أن يصبح نبياً يعد مرحلة التركيز الإيديولوجي وقد شهدت جميع النبوات مراحل مماثلة لهذه المرحلة، ويشرح العهد القديم أن موسى قد عاش مرحلة طويلة في جبل سيناء.

يمثل نزول الوحي على محمد في سن الأربعين إعلان التركيز الثوري الجديد والدخول في مرحلة النضال العلني، وهو بيان واضح يعطي الشرعية للسيادة على مكة، وخطا خطوة من التركيز الإيديولوجي إلى السياسية. وكان الوعي في هذه المرحلة يتعلق بأسس الإيمان والأخلاق، وكان يتم الأعداد النظري للثورة وتحديد مبادئها. وعندما كبر الخطر تحرك المجتمع الرسمي لمكة، وكان قتله متوقفاً على لحظات.

هاجر محمد الذي لم يختر الطائف التي أصبحت مزدهرة بالتجارة، إلى المدينة التي رآها كخيار وحيد في عام 622 بعد الميلاد وهو في الثانية والخمسين من العمر. يؤكد التاريخ بأنه ما كان للمسيحية أن تكون اكثر من مجموعة صوفية بسيطة لولا صلب المسيح، ويمكن ان يقال قول نفس الشيء بالنسبة لهجرة محمد إلى المدينة، وكان من الممكن أن يبقى الإسلام مجموعة أدرية لولا الإجبار على

الهجرة ولولا إظهار التعصب الشديد، لكن الظروف وفاعلية قانون الفعل ورد الفعل يؤدي إلى حملات تاريخية كبيرة على أيدت مجموعة صغيرة، وهذا ما أثبته التاريخ في الماضي. كانت مرحلة المدينة هي مرحلة التسييس وتشكيل الجيوش وتتمحور آيات هذه المرحلة على الأغلب في كيفية تكوين النظام السياسي، وكانت تتشكل في المدينة معاهدات اجتماعية جديدة لتكوين الدولة المدينة، لكن المرحلة لم تكن مرحلة ظهور حضارة سومرية ومصرية، لأنه كان في الجوار مراكز إمبراطوريات مختلفة وتجارة متطورة وكان لا مفر من التحول إلى دولة والتوسع على حساب الدول الأخرى، ويعتبر ذلك مرحلة الوجود واللا وجود، هذا الانفتاح أثار شهية القبائل الصحراوية على المراكز الحضارية المحيطة بها، فوضع القبائل الفقيرة جعل من إيديولوجية محمد واتفاق المدينة جذابة فوق العادة، وأدت إلى سرايان مفهوم الحكم الذي يقول: " أمشي يا عبدي دربك ممهد" مرة أخرى.

قبيل وفاة النبي محمد كان قد تشكل نظام الدولة، وإن معرفة الخصائص الإيديولوجية والسياسية والعسكرية والاجتماعية بشكل جيد للتشكيل الذي تأسس خلال فترة قصيرة والذي أثر وما يزال على التاريخ، لها أهمية كبيرة .

أ: ما تم تحقيقه على مستوى الهوية الإيديولوجية هو الترجمة الكبيرة الثالثة للميثولوجية السومرية بالشكل الذي شهد تحولاً. لقد توضح من خلال تحليل اللوحات الأخيرة أن المصدر هو الميثولوجيا السومرية. إذ كان التحول الأول في بابل والثاني عند العبريين وتم الحصول على نمط أكثر اكتمالا بالتحول الثالث بيد العرب الجيل الأخير للإرث. لقد قمنا بشروحات كافية عن المصدر والتحول الأول والثاني ويتطلب فهم التحول الثالث بشكل جيد مع الأخذ بعين الاعتبار المصدر والتحولات بشكل دائم، اننا لا نهدف هنا إلى التقليل من شأن القرآن أو إظهار الدوغمائية التي أدت الى تحجر القيم المعنوية والذهنية ككابوس على أنه تطور ديني عادي، بل على العكس نهدف الى تناول القرآن ضمن الإطار الصحيح لعلم الاجتماع، وكشف النقاب عن نوعية المصالح الملعونة التي تقوم باستخدام الإسلام قناعاً كبيراً لها، وهي مهمة علمية أساسية لنا، ويجب أن لا ننسى أنه لا يمكن معرفة القوى الحضارية الموجودة بشكل صحيح أو تنفيذ متطلبات الدور الذي يمكن لعبه بنجاح من أجل التحضر دون تسليط الضوء على الظلام المخيم آنذاك.

إن البدء بسؤال "هل تؤمنون بوجود الله وبوحدته.. ؟"، في النقاش الإيديولوجي المتعلق بالإسلام، هو موقف انتهازي "تحريفي"، يعني استخدام جميع أساليب الكلاسيكيين والسفسطائيين في القرون الوسطى، ومع الأسف فقد انجرت الفلسفة واللاهوت إلى هكذا نقاش سفسطائي فارغ لمئات السنين، عذب الناس وزجوا في السجون، وفي النهاية لم يتم الوصول إلى أية نتيجة، وبينما كان الحال

على هذا المنوال أدرك سقراط في أولى حواراته مع السفسطائيين بخطورة هذا النمط من النقاش، وضحى بحياته من أجل منع هذه الخطورة، وقال دائماً: "اعرف الجوهر..!" المهم ليس النقاش الفارغ بل محاولة فهم ما يتعلق بالجوهر، فبدلاً من النقاش هل النجار موجود أم لا ..؟، أو هل هو جيد أم سيئ؟. يجب سؤال كيف يمكن ممارسة النجارة بشكل مثالي وجيد..؟. وإيجاد الجواب لهذا السؤال هو الأهم، فالطراز الأول هو طراز السفسطائيين والانتهازيين، بينما الطراز الثاني هو طراز وأسلوب الفلاسفة الحقيقيين والعارفين والعلماء.

إذاً ما هو المقصود بوجود الله ووحدانيته الذي يعد العامل الأساسي لبروز الإسلام؟. ما هو التطور الاجتماعي والتاريخي الذي سبب ذلك..؟ وما هي الأهداف العملية لذلك..؟ هذه هي الأسئلة الأساسية التي يجب إيضاحها وإلقاء الضوء عليها.

يجب أن أؤكد قبل تحليل وإظهار تطور مصطلح الله مرة أخرى، على أن التعريفات التي تتبناها الفلسفة واللاهوت والتي تقول بأنه السبب الأول للكون ومنشؤه وصاحبه، لا معنى له البتة. وهي أقرب إلى السفسطة. وأرى من موقعنا ان النقاشات والأفكار التي تدور حول وجود الله ووحدانيته أم لا، والتي تفيد بأنه السبب الأول للكون وصاحبه، ليست مسألة مهمة وذات معنى. أريد أن أؤكد على مسألة ألا وهي أن التخلف الذي نشهده في حاضرنا يعود إلى استخدام الدين ضد التنوير في سبيل المصالح السياسية، وهذا ما كان عليه الأمر عبر التاريخ، والوصول إلى نتيجة من خلال الأساليب السفسطائية الماكرة، ونرى الرجعيين في تركيا والدول الإسلامية مازالوا يستخدمون هذه السبل بكثرة، ويحصلون على مصالح هامة من خلالها. ويتم استثمار واستغلال كبير في هذا الإطار، وأؤكد هنا على أنهم سيستغلون تقييماتي هذه في المستقبل، فمصطلح الله الذي يواصل تطوره مع المجتمع بشكل دائم سيواصل وجوده في مجتمع العلم، ويجب أن يواصل وجوده. ولكنه لم يكن إلا اسماً للقانون الوحيد للكون والمجتمع، وبمقدار معرفتنا الصائبة لهذا القانون سنتعرف على اسمه وعلى الله بتلك الدرجة من الصحة والفهم، وفيما عدا ذلك فإن كل النقاشات والتعريفات ستظل سفسطائية، وتعني في أساسها الدفاع عن الرجعية والتستر على الظلام وحماية نظام الاستغلال والرعب وعالم الكسب غير المشروع.

سنحاول تحليل مصطلح الله على ضوء هذا الموقف اعتماداً على وسائل علم الاجتماع، وليس اعتماداً على المدارس الفلسفية أو اللاهوتية، وسنحاول تعريف وشرح ماهية الحاجة الاجتماعية التي أدت إلى ظهور الهوية الدينية.

تؤكد جميع الدلائل المتعلقة بحياة النبي محمد، أنه ركز على مصطلح الله أكثر من غيره، وشرح وجود الله وهوية وحدانيته والتي هي من أهم المشاكل التي واجهت النبي محمد، ولم تكن هذه المشكلة مصطنعة بل كان جادة من خلال بحثه عن الجواب عبر الجهود التي بذلها لوصفه بـ 99 صفة، كمحاولة لتحقيق قفزة في الكم، وكأنه يملأ مصطلح الله بطاقة مركزة تحت أشكال جديدة ومستمرة. إن مقارنة ذلك مع القيم التي تم تضمينها لمصطلحات الليبرالية والاشتراكية، ستساهم في فهم هذه الدراسة بشكل أفضل. ففي الوقت الذي يتم فيه تطوير الهوية الإيديولوجية عن طريق التحولات الاجتماعية يتم إغناء المصطلحات الرئيسية بقيم هامة لأجل تقويتها.

من المعروف إن القبائل الموجودة في شبه الجزيرة العربية كانت تحاول منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، قبول" أل" كقوة إلهية، تعني "أل" في الأتمولوجيا السامية "السمو" كهوية إيديولوجية لها. لقد ولد وتطور المصطلح من خلال تغييرات البنية الداخلية للقبائل وعلاقاتها مع المجموعات الأخرى في الخارج، ولا سيما علاقاتها مع الحضارة السومرية والمصرية، لقد تجسد "أل" الذي يتجول في السماء والذي كان مجرّداً أكثر من غيره في العقول، بعد أن غدا الطوطم الذي كان يشبه وجوداً إلهياً للعهد الرجعي للقبيلة في هذه المرحلة لا يستجيب للتغييرات الجديدة. ولا شك أن مفهوم الإله العالي والذي لا يتغير والمستند للنظام السماوي للكهنة المصريين والسومريين، لعب دوراً مصيرياً في ذلك. وكانت البنية الأحادية والمجردة للقبائل ورتابة الجغرافيا والعلاقة والصراع مع مراكز الحضارة، قد أجبرت "أل" على التطور كمصطلح أحادي وموحد، لقد تمت محاولة شرح ذلك كخاصية أساسية لإرث إبراهيم بشكل كامل.

لقد أحرز التحميل الذي قام به موسى للمصطلح خطوة جديدة للأمام، وكأنه جعل "أل" قوة قومية، "فإسرائيل" تعني من حيث المعنى القبائل العبرية التي تتصارع مع "أل"، وعند الرغبة في تأسيس تقارب شديد فإن كلمة إسرائيل لوحدها تشكل أهم الأدلة. وأصبح "أل" أول قوة مركزية رسمية بعد أن أصبح داوود وابنه سليمان ملكاً بمساعدة الكاهن صاموئيل، وتحول اسم "أل" إلى العبرية وأصبح ألوهيم "Elohimm"، ومن الواضح أن ألوهيم هو التعبير الجدي لكيان المجتمع الإسرائيلي الذي تسيس وتحول إلى ملكية. وهو التعبير المجرد لعقلية المجتمع المتحول وهويته الإيديولوجية التي تحولت إلى مصطلح، ونحن الآن أمام مثال لاستمداد القوة من المصطلح وخلق تاريخي مذهل للوصول إلى مصطلحات جديدة من القوة، وإذا شاهدنا ما أدى إليه إله إسرائيل هذا من حروب واختراعات وتجديدات وأفكار يمكننا عندئذٍ فهم المدى المدهش لهذا التصور.

لقد ظهر الإرث المسيحي الذي تطور مع عيسى كتعبير للانسلاخ باسم الطبقات الفقيرة عن الإرث العبري الرسمي، ويعبر ذلك عن اكتساب التمايز الاجتماعي كياناً كهوية اجتماعية جديدة "العهد الجديد" واتخاذه دور أمل المرحلة وإرادة التحرر والعقائد وطراز الأخلاق. لقد غير عيسى اسم ألوهيم الذي كان اسماً آشورياً وأصبح "الرب" باللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك ومعناها المصطلحي هو "السيد"، وأصبح معنى مصطلح الإله "السيد" بعد السومريين ومن جاء بعدهم، ومن الواضح أنه يمثل الطبقة المتصاعدة، وأطلق على البشر الذين تم وضعهم بموقع الخدم اسم "العبد" ومن الواضح أنه يقصد بذلك الطبقة المسحوقة.

من المعروف أن عيسى قد حمّل مصطلح الله الرحمة والخلاص واللطف والعناية والمحبة والأخوة والسلام والعدالة والأخلاق باسم المضطهدين. لقد تمت تقوية الرب بتلك المصطلحات كهوية إيديولوجية جديدة للمجموعات المسحوقة، وكوّن المسيحيون وفي مقدمتهم عيسى مجتمعاً تم تقديسهم فيه مجدداً كأولاد الرب، وكان ربهم سيحميهم في أصعب الظروف ولن يبخل عليهم بالمساعدة، وسيكون الدعاء للرب بعد الآن، وسيكون معهم حتى تحقيق آمالهم. ونحن مجدداً أمام مثال تاريخي مذهل يتلخص برفع المجتمعات لراية المصطلحات المجردة وتقوية وتطوير تحويل الذات من خلالها. إن ذلك هو أحد الأمثلة التي تحدد العصر والتي تثبت عدم إمكانية فصل القوة الإيديولوجية عن التطور الاقتصادي والاجتماعي واستحالة تحقيق التطور دون أيديولوجيا وجود الآخر، وقيام الإيديولوجية بدور ريادي في تحديد المسار في بعض الأحيان. ويمكننا متابعة التاريخ ومعايشة التطورات والتغيرات والتحولات خطوة خطوة ابتداءً من مساهمة "باول" حتى الإصلاحات البروتستانتية باسم المسيحية، وابتداءً من دورها في تكوين العصر الإقطاعي حتى تأثيرها ورد فعلها على خلق وتطور المجتمع الرأسمالي.

أريد التأكيد على أهمية ما يلي: إذا تم الالتزام بالآمال والإيمان والأفكار التي يتم تحميلها للمصطلحات، وإذا تم عيشها بشكل مناسب مع حاجاتها، وتم تطبيق ما تنص عليها على أرض الواقع، وإذا لم تتناقض مع العصر والواقع بل تطوره. يؤدي كل ذلك إلى تطورات عظيمة، وعكس ذلك لا تخدم سوى الجمود والتخلف والانهيار، ولذلك يتمتع تحليل لغة المصطلحات الكبيرة جوهرياً أهمية كبرى بسبب تلك التطورات، وينبع دور وأهمية المنظرين والمؤمنين الكبار من هذا الواقع.

إن المعاني التي حملها النبي محمد للرب ـ وحتى لا يحدث الاختلاط فإن كلمة رب هي مصطلح ذو جذور آشورية سريانية، أما كلمة الله فهي مصطلح ذو جذور عبرية أيضاً، ويحمل المصطلحان نفس المعنى ـ تحمل أهمية كبرى. تم استيعاب

وتجسيد المصطلحات التي حملها الإرث العبري والسرياني إلى درجة كبيرة. ويجب ألا ننسى أن الكيان السومري والمصري، والآري ـ وان بشكل أقل ـ يقف وراء تلك المصطلحات. لكن الأهم من ذلك قيام النبي محمد بإعداد وتطوير نفسه ليكون جواباً على التغير الفكري والروحي الذي نتج عن الاقتصاد الإقطاعي والعلاقات الاجتماعية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ويعبر النبي محمد عن التركيز غير الطبيعي والخارق كأكبر ذهنية متطورة للعصر الجديد والمتصاعد، إن ارتعاشه وتعرّقه عند كل آية ينطق بها، يظهر مدى الجهد الذي كان يبذله من أجل التركيز. ويعني مفهوم النبي محمد من بدايته حتى نهايته عند الوضع الذي ذكرناه، اكتسابه شكلاً كهوية إيديولوجية جديدة، وتكامل السلوك الأخلاقي ككيان اجتماعي ملموس. إن اكبر ثورة قام بها هي إدخال المصطلحات الجديدة في البنية الذهنية والروحية والإرادة وتحقيق ذلك في ذاته، ويجب تقييم شرح الآية والسنة بالدرجة الأولى والثانية حسب أهميتها كخلق الإنسان والمجتمع الجديد.

قام جميع الأنبياء بتنفيذ أعمالهم المتعلقة بالله كمصطلح أساسي، بالاستناد إليه وبتلقي القوة منه مقابل تحميله المصطلحات الأساسية. وتكتسب التجارة التي تعتبر من أهم الخصائص الأساسية للمجتمع منطقاً إلهياً تماماً، وتتحول إلى صيغة وقاعدة إلهية بمقولة: "بقدر ما تعطي الله ـ وذلك يعني الدعاء والعبادة والقرابين ـ تأخذ ثمن ذلك كاملاً"، إنها صيغة تحولت إلى قاعدة دينية. يجب ألا ننسى أن الأديان التوحيدية والتي تستند بشكل عام إلى الجد؛ النبي إبراهيم، لها علاقة وثيقة مع المجتمع التجاري، فالتجارة تقوم بدفع المجتمع الزراعي إلى مراحل اجتماعية أكثر تقدماً، وبذلك تؤدي إلى مجتمع المدينة ومن ثم إلى الدولة. عندما نستطيع إقامة علاقة صحيحة بين ميلاد الدولة وتسامي الآلهة، يمكننا فهم سبب تزامنها مع الحالات المتقدمة من المراحل الذهنية. إن تبني هذا الإرث ولا سيما من قبل المجموعات العبرية التي توحدت مع هذا التقليد كان يزيد من قوتها بمقدار تقويتها لله وبذلك تم إيجاد صيغة مكملة وتامة وهي: "أنت قوي بمقدار قوة ربك. إذا قضيت على ربك ستنتهي، حيّر ربك تصبح محتاراً ". إن المجتمع السومري وإلهه الذكر والذكي أنكي قد أخذ من ربة سومر إنانة قيمها الجوهرية وجميع القيم التي خلقها العصر النيوليثي وبذلك يكون أنكي قد أخذ كل ما تملكه النساء في المجتمع، لن يكون صدفة الملحمة التي تتحدث عن رحلة أنكي الناجحة من "أورك" إلى "أريدو" ورجوعه إلى "أوروك" مصطحباً معه "104" قوانين "مي". إن ذلك هو شرح ميثولوجي ولاهوتي وأدبي لصراع نتج عن العلاقة والتناقضات الموجودة بين الآلهة والربات كانعكاس لما يعيشه المجتمع، ولا يمكننا إلا أن نقف مذهولين أمام هذا العمل القيّم للأدباء السومريين، وفي الحقيقة هذا هو جوهر الآداب.

لقد أضاف النبي محمد إلى مصطلح الله مع ظهور الإسلام صفات تدل على الصفات السياسية والعسكرية للثورة على الأغلب. لقد أضاف موسى إلى الصفات ما يتعلق بالتربية الاجتماعية والنظام، وأضاف عيسى إلى مصطلح الله صفة المنقذ والحب والعدالة والأخلاق. أما صفة القهّار والحاكم والمالك فهي خصائص عسكرية وسياسية تمت إضافتها مع ظهور الإسلام. لكن صفة الأزلي والسرمدي، ولم يلد ولم ويولد، وقربه إلى الإنسان أكثر من الوريد فهي مصطلحات لاهوتية تعكس تأثيرات الفكر الفلسفي الإغريقي ولا سيما فلسفة أفلاطون وأرسطو. ويوجد تأثير كبير للفلسفة على ظهور الإسلام، ويمكننا ربط انعكاس الفلسفة على الإسلام منذ ظهوره مقارنة مع المسيحية، بعلاقة الكهنة النسطوريين الذين حصلوا على كلاسيكيات الفلسفة الإغريقية باكراً مع محمد. إن انتشار الفكر الفلسفي في الشرق الأوسط كأساس مادي مع مستوى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتشابكة لمجتمع تلك المرحلة قد أثر في تضمّن القرآن آيات عديدة تأوي الفكر الفلسفي، إضافة إلى الآيات المتعلقة بالإيمان والأخلاق، وتحمل البنية الفكرية ذات المضمون الفلسفي للقرآن مقابل مضمون الإيمان والأخلاق للعهد القديم والجديد على الأغلب بعداً هاماً.

إن إعلان النبي محمد نفسه آخر رسول لله مسألة يجب الوقوف عندها باهتمام، ويعتبر ذلك أهم صفة إصلاحية من ناحية الدين. فقد قام بنفسه بإنهاء عهد النبوة، ويشبه هذا الوضع حالة إنهاء ماركس لعصر الحضارة ذات الدولة مع مجيء الاشتراكية. فمثلما نضجت الإدارة دون الحاجة للدولة وكما يتطلب مستوى علاقات المجتمعات التي تخلصت من الطبقات اللا معنى لها، تعتبر المجتمعات اللانبوية قد وصلت إلى مستوى نضج وحرية مشابهة لذلك، ينص ذلك على عدم حاجة المجتمعات والإنسانية التي حصلت على قوة نظامها بإرادتها الحرة للأنبياء، إن الإسلام بمعناه هذا ينهي عصر الدين، وفي الحقيقة يكون نمطاً لآخر دين كوني لمرحلة العبور من الدين إلى الفلسفة.

إن التمسك الزائد بفكرة وجود شيء ما، يحمل في داخله الشك دائماً، ويشير إلى الجنوح وارتكاب الأخطاء. واعتماد الإيمان بالله على الفكر الفلسفي إلى حد كبير عند الإسلام يؤدي إلى الوقوع بالشك بنفسه، ولذلك بذل النبي محمد جهوداً كبيرة لم يسبق لها مثيل عند أي نبي آخر حول مسألة وجود ووحدانية الله، لقد ركّز على الله وحاول تعريفه ابتداءً من تعداد صفاته وإلى نمط عيشه وعمله وحتى خلقه لكل شيء، وهنا لابد من أن يخطر على بال الإنسان السؤال التالي: لماذا هذا الله الذي يعرف كل شيء والذي خلق الكون وهو حاكم كل شيء..؟! لماذا لا يحاول إقناع عبده بنفسه، ويحاول القيام بذلك عن طريق آخر نبي له؟. الجواب المطلوب

هو: إن الشيء الذي يراد شرحه هو المجتمع الطبقي الجديد وعصر الحضارة، وإن الصعوبة تأتي من البنية المتشابكة للشكل الذي سيأخذه المجتمع الجديد والحضارة، ولا سيما البنية السياسية والقانونية، وهي من المشاكل الأساسية التي تنتظر الحل. فمن الواضح أن النبي محمد كان سيواجه صعوبات كثيرة أمام هذه المؤسسة التي من الصعب لثقافة قبائل الصحراء أن تستجيب لها، وكان مصطلح الله الذي تم تعريفه هو الهوية الإيديولوجية أو رمز هذا العصر في أرفع مستوياته. وكان النبي محمد يعرف بأنه سيبني وسيدير المجتمع والدولة والعصر الجديد بسهولة بقدر تحميل مصطلح الله صفات ذات معنى، وتكوينه قواعد وقوانين وقوة أمر مع المصطلح.

اننا نتحدث عن وضع مشابه للمرحلة التي خلق بها الكهنة السومريون مجتمع المدينة أو الدولة. فقد أضطر الكهنة أمام الإنتاج المثمر للمجتمع الذي أعادوا بناءه والذي كان سبباً ونتيجة لهوية إيديولوجية تتطلب القوة والكمال، إلى نتاج ميثولوجيا ودين في المعابد، وكانوا على ثقة بأن المجتمع الجديد سيحصل على الثقة بقدر درجة نجاحهم بذلك، لذا فإن خلق ونشر الإيديولوجية مرتبط بالإنتاج مثل ارتباط الظفر باللحم. وهناك علاقة بين البنية الإيديولوجية كواقعة مجتمعية أساسية والإنتاج، وهذه العلاقة لا يمكن أن تنقطع في جميع المجتمعات تاريخاً وحاضراً.

إن قيام النبي محمد بالتحميل الهائل لمصطلح الله، نابع من كونه على وعي بما حققه هذا المصطلح على مدى التاريخ من جهة، ويدرك مدى القوة التي سيستمدها المجتمع والعصر من ذلك من جهة أخرى. وبذلك كان تفكيره اجتماعياً، وأنا أركز على هذا الأمر بأهمية، فقد كان النبي محمد يعيش حالة تناقض لأنه كان على معرفة بأن الدين لا يكفي للمجتمع الجديد عندما تتدخل الفلسفة في الأمر، وتبرز الذهنية الواقعية مع مرور الزمن. لأنه لا يمكن للدين أن يتواجد بسهولة في المكان الذي تتواجد فيه الفلسفة، ولا يمكن للفلسفة أن تتواجد في المكان الذي يتواجد فيه الدين، ولا مفر من الاشتباك وسيتغلب أحد الطرفين. ومن المعروف أن الفلسفة قد برزت في تجربة روما والإغريق، وكان الساسانيون والمانيون يريدون إبراز الفلسفة لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، لأن الكهنة المتطرفين دينياً كانوا ذوي التأثير النهائي، وشاهد الدين الإسلامي هذه الخطورة منذ البداية، وكان تدخل الدين في الفلسفة السبب الأساسي للشخصية المتشككة للنبي محمد، ومحاولته إثبات وجود وحدة الله التي لا نرى لها مثيل في أي كتاب ديني، كانت نابعة من تفكيره بأسئلة مثل: هل كان سيدير النظام الاجتماعي الذي كان سيخلق بقوانين تنسجم مع العقل أم بقوانين وأحكام دينية سهلة التأثير ومنسجمة مع البنية الذهنية لمجتمع العصر

القديم، وكان واضحاً أن التركيز والارتباط بمصطلح الله إلى هذه الدرجة ليس ناتجاً عن إشباع فكري بسيط وذلك من خلال تجربته التي عاشها.

يمكن فهم ذلك بشكل أفضل من خلال تحديد أمثلة حديثة،مثل السؤال أية اشتراكية؟ رغم مناقشة هذا السؤال منذ قرون فإنه لا يتم إيجاد أفضل اشتراكية ولا تطبيقها، والوضع هو نفسه بالنسبة إلى الليبرالية.

يجب التأكيد على أن النبي محمد كان مؤمناً وواثقاً من صدق ما قام به بالفعل عند تكوينه البنية الإيديولوجية "لا يمكن التحد ث هنا عن صوفية مزيفة"، لقد أسس النظام الإسلامي عن معرفة بأنه كان في عصر لا يمكنه الهروب فيه من الشرح المنطقي والفلسفي، بمقدار تقبله لجميع القيم الدينية التي يمكنه الدفاع عنها، إن التداخل الديني والفلسفي هو تركيب صعب جداً لكنه من الخصائص الأساسية للنبي محمد، إن شعوره بالعلوم الاجتماعية، بمعنى شعوره بالعلم وتصرفه بعلمية حسب المرحلة عند إنشائه نظامه، هو من الخصائص الملفتة للنظر عند النبي محمد، وبذلك يمكننا أن نفهم كيف أعلنت الشخصية الدينية والفلسفية والعلمية عن نهاية النبوة في شخصه، إن الإيمان بوصول عقل الإنسان إلى الفكر الفلسفي ومن ثم العلمي يتطلب شخصية داهية، لكن مع الأسف الشديد فالتناقض الكبير غدا بلية أكبر من التخلف الديني هددت نظامه باكراً، والتصقت بالبنية العقلية والروحية لأمته، قال ماركس عندما شاهد المناقشات التي تدور حول الماركسية في فرنسا في عهده: "أنا لست ماركسياً"، وإنني أؤمن تماماً أنه لو نهض النبي محمد وشهد التناقضات التي تعيشها أمته مع العصر لقال "أنا لست مسلماً" وبلغة أكثر صرامة.

يمكن تطوير تقييمات أكثر شمولية حول تحليل الهوية الإيديولوجية للإسلام، ولكن المهم أن تكون واقعية، وهذه مهمة لا مفر منها، ليس فقط من أجل فهم التاريخ بشكل صحيح بل من أجل التنوير في الشرق الأوسط في الحاضر، وما يتم القيام به باسم محمد في يومنا هذا لا يتصف بالعدل، فكيف نقيم الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي الذي عجز حتى عن تعريف نفسه بمحمد، في الوقت الذي قام فيه محمد نفسه بالتركيز على التطورات الدينية والفلسفية والعلمية للمرحلة على أعلى مستوى في ذاته، وطوّر بنية المجتمع المنتج والدولة، وخطى خطوات جبارة في حياته هزت العالم، من الواضح أنه يجب علينا القيام بحركة تحطيم أصنام مشابهة للتي قام بها النبي إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد على صعيد جميع البنى الذهنية والروحية في حاضرنا، ومن ثم القيام بذلك في مؤسسات المجتمع التحتية والفوقية.

ب ـ لقد تطور الإسلام متداخلاً بهويته الإيديولوجية المكثفة وكثورة عسكرية سياسية منذ البداية، وهجم على من حوله ببنيته الإيديولوجية كالأسد

الجائع المتحرر من سلاسله، إن هجوم الإسلام على محيطه يشبه هجوم الغوتيين في مرحلة البربرية في أوروبا والهون" الأتراك" على مراكز الحضارة الرومانية، ففي الوقت الذي كانت تسيطر فيه الإمبراطوريات البيزنطية والساسانية والحبشية ببنيتها المتخلفة على المناطق ذات الاقتصاد المثمر المنتج، لعب التناقض والاختلاف بين الظروف الحياتية للقبائل العربية وتزايدها السكاني دوراً أساسياً في تلك الغزوات، وكانت المراكز الحضارية جذابة كخيال الجنة بالنسبة لهم، وكانت هذه القبائل تعرف نعم الحضارة من خلال تجارتها وغزواتها المستمرة منذ المراحل الأولى للسومريين والمصريين، وفي الوقت الذي كانت فيه الصحراء تذيقهم عذاب جهنم كانت حياة الحضارة مصدراً لمفهوم الجنة. لقد جعل ازدهار الإسلام خيال الخلاص من جهنم والحصول على الجنة مقنعاً، إذ أدت الروح الجديدة وخلق الخيال إلى إيمان لا مثيل له حتى تلك المرحلة، وشجاعة لا حدود لها أدت إلى تفعيل التضحية والعمليات، أي إذا استشهدوا فسيذهبون إلى الجنة التي وعد بها المؤمنون في عالم الآخرة، وإذا بقوا أحياءً سيحصلون على جنة لأرض، وهنا تكمن مهارة النبي محمد، فمن السهل القيام بالتنظيم والتخطيط بعد خلق هذا المستوى من الإيمان.

إن التواجد في مرحلة تتوفر فيها السيوف والخيول بغزارة من الناحية التقنية، وخصائص الصحراء المثالية من أجل الكر والفر على نمط حرب الكريلا، قد فتح الباب على مصراعيه أمام الفتوحات الإسلامية، وكان التوسع الهائل للجيش وانفجاره كالبركان يتطور وكأنه قدر التاريخ من خلال قوانين الفتح المقدسة في الدنيا والآخرة، ولأنها تتيح إمكانيات مادية هائلة لمن لا يمتلكون أي شيء، فمن الواضح أن التاريخ كان يتعرف على حركة ثورية منظمة، وكانت البنية الإيديولوجية والعسكرية مستعدة لفتح العالم بأسرها، وكانت الإمبراطوريات التي تواجهها تشهد مرحلة جمود هائلة لاستنادها إلى علاقات عبودية كنظام للدولة، ولم يعد لها أي دور تقدمي يمكن أن تقوم به من الناحية السياسية، فكانت هذه الإمبراطوريات قد تحولت إلى حواجز أمام شعوبها التي كانت تتطور من مجموعات أثنية نحو بنية قومية إثر مرحلة تطور طويلة، وكانت تلك الشعوب تأمل الخلاص من البنى المتعفنة التي تشكل حاجزاً أمامها، وذلك عن طريق الذهنية الجديدة التي تشكلت من خلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تجاوزت العبودية، ولم يبق ضبط الشعوب سهلاً كما كان في الماضي البعيد، وكانت حادثة ظهور المسيح المنتظر تتكرر من جديد وليس من الصعب خلق إلهام الخلاص ليس من أجل قبائل الصحراء فحسب، بل من أجل جميع شعوب الإمبراطوريات، إن القليل من العدل واحترام ثقافة الشعوب ـ عدا المتخلفة منها ـ

يكفي هذه الشعوب لتتقبل الإسلام، وشخصية عمر العادلة تنبع من هذه الضرورة التاريخية، ويؤدي التفوق الإيديولوجي إلى التخلي بسهولة عن الهويات الإيديولوجية المتخلفة وربما يلعب دوراً أساسياً في نجاح حملات الفتح.

رغم وجود بعض الجوانب الصحيحة لتقييم الإسلام كدين السيف لكنه من الواضح أنه لا يمكن القيام بكل شيء بالسيف دون أخذ التفوق الإيديولوجي بعين الاعتبار، فلا شك أن السيوف والخيول كانت موجودة منذ فترة طويلة لكنها لم تؤد إلى أية خطوة إلى الأمام، فكما تطورت المسيحية في بداياتها كحركة إيمان وسلام وروح اجتماعية فقد تطور الإسلام كحركة سيف وحركة سياسية على الأغلب، لقد تركز الجانب الإيديولوجي والعسكري والسياسي للإسلام بشكل متداخل، وكان يفتح ويهيمن كسلسلة عوامل ثورية تجري بسرعة بينما كانت المسيحية مسحوقة تعيش تحت سيادة الآخرين رغم تطورها في الساحة الاجتماعية.

كانت الحملات العسكرية للإسلام على شكل حرب كَريلا ضد الجيش النظامي، وكانت تنسحب في حال عدم النجاح ويعاد التنظيم من جديد، بحيث لم يكن شن هجوم جديد صعباً، إذ كان من السهل الهجوم على جيش نظامي من أربعة أطراف وتشتيته، وكان لا يتم الدخول في حرب اعتماداً على مواجهة واحدة فقط، إنما كانت هناك استراتيجية طويلة الأمد، مقابل ذلك كانت كلفة الجيوش النظامية كبيرة، وتتحرك ببطئ وخمول وتنتشر حسب نظام حرب المواجهة الواحدة ولا تستطيع لم شملها في حال تشتتها، وكانت في موقع لم يبق لها أية ميزة متفوقة أمام الفن العسكري الإسلامي، وكانت الجيوش الإسلامية تتفوق على الجيش النظامي من الناحية النفسية، وعندما نضجت ظروف القوى الجديدة والقوى التي تريد المحافظة على إرثها القديم شهدت هذه المرحلة التاريخية أمجاداً كبيرة باسم القوى الجديدة.

كان إنشاء النظام السياسي للإسلام يتم بعد تحقيق الأمجاد العسكرية، وكان يتم أحياء نظام الولايات الذي بقي من البرسيين كهوية إيديولوجية جديدة، لقد استخدم الإسلام عرب الصحراء الذين لم يشاركوا بالحضارة والشعوب الأخرى المشابهة لهم كدم طازج لحضارة قديمة، وجددها تحت هويته الإيديولوجية أكثر من أن يفتح ساحات حضارية جديدة، إن أهم خاصية لهذا التجديد هو تحويل البنى الذهنية والمؤسساتية للدولة المستندة إلى النظام العبودي وفق نظام العلاقات الإقطاعية، ويعتبر ذلك خطوة تقدمية في مرحلتها، التجديد في ربط علاقة وذهنية النظام العبودي الذي تمتد جذوره إلى آلاف السنين الماضية إلى كيان مجرد كعبادة الله فقط، أدى إلى ارتياح معنوي كبير، وقيم معنوية مناسبة عند مقارنة ذلك بأنهم كانوا عبيداً للملك الإله وأصبحوا عباد الله المحبوبين،ويملكون الثقة والمعنويات

المرتفعة والشرف الكبير. إن أساس التفوق النفسي هنا يكمن في تحطيم الذهنية العبودية وبنيتها المعنوية التي تقلل من احترام وقيمة الإنسان، ووضع هوية جديدة تحقق للإنسان الشرف والاحترام والعدل كبديل لها.

في الوقت الذي قامت المسيحية فيه بنشاطات على مستوى القاعدة وحاولت فتح البنية السياسية من خلال خلق ساحات اجتماعية لها مع البقاء بعيدة عن البناء العسكري والسياسي، قام الإسلام بتطوير البنية السياسية من القمة عن طريق الفتوحات العسكرية وأعطاها شكلاً حسب هويته الإيديولوجية، أي كان أحدهما يتجه إلى الثورة الاجتماعية من خلال الثورة السياسية والعسكرية بينما يقوم الآخر بالاتجاه إلى الثورة السياسية من خلال الثورة الاجتماعية.

وكأن ذلك يشبه العلاقة الموجودة في التجربة البلشفية التي اتبعت أسلوب النزول من القمة إلى الأسفل، ومع النهج الديمقراطي الاجتماعي الذي ينطلق من القاعدة، ويذكرنا ذلك بالسؤال الذي يقول: أيهما افضل الوصول إلى الهدف بطريق التطور أم عن طريق الثورة ؟.

لا شك أن الإسلام هو الذي بدأ بالمهام العسكرية والسياسية المذهلة للثورة الإقطاعية، وأن دور الإسلام واضح في قيام المسيحية بفتح أوروبا، ويجب أن نؤكد على أن المسيحية هي جزء من ثقافة الشرق الأوسط، وإذا كنا نتحدث عن المساهمة، فأننا نقول إن الشرق الأوسط مازال يغذّي أوروبا حضارياً، وقد بدأت هذه التغذية منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد واستمرت حتى أصبحت المسيحية ثانوية أمام حركة التنوير الأوروبية، وإذا تناولنا تاريخ الحضارة نرى أن التطورات الاجتماعية ذات الجذور الشرق أوسطية تغذي أوروبا منذ 8000 سنة، بما في ذلك العصر النيوليثي الذي استمر أربعة آلاف سنة، وكانت تقدم بعض القيم الحضارية المحدودة لكنها لم تنج من التيبس حتى النخاع باستمرار، وسنحاول مقارنة حضارة الشرق والغرب بشكل شامل عندما يتطلب بحثنا ذلك.

إن نظرية السياسة في الفكر الإسلامي تقدم موضوعاً متميزاً، إذ ينشر مصطلح الله الموجود في الهوية الإسلامية كل ظله كما هو عندما طرح التمأسس السياسي، إن وصف السلاطين وأصحاب الحكم انهم ظل الله يشير إلى مصطلح آخر هام جداً، والصفات التي تم تحميلها لمصطلح الله كالقهار والحكيم والجبار والستار والعادل والقادر هي صفات ذات طبيعة سياسية ستظهر أمامنا فيما بعد كصفات لأصحاب السلطة، يجب أن لا نبسط ذلك بالقول أنها عبارة عن لعبة إيديولوجية، فهناك عدة مصطلحات تم تضمينها للاشتراكية كأيديولوجية علمية وتم عرضها كنظام سياسي فيما بعد، وتشهد جميع التمأسسات الإيديولوجية والسياسية

نظام علاقات مشابهة لذلك، وهذا الوضع لا يخص الإسلام فقط، وكنا قد حاولنا شرح كيف قام الكهنة السومريين بنفس النمط من النظام سابقاً.

سيلعب إضافة صفات سياسية إلى مصطلح الله دوراً كبيراً كأساس إيديولوجي للحكم المطلق، ولذلك لابد من أن يؤدي إلى مفهوم نظام أكثر تصلباً من المسيحية، ويتميز عن النظام العبودي بفارق واحد هو طرح صيغة الرب وظله الملك بدلاً من صيغة الإله الملك، يتحول الملك إلى إله في أحد الصيغ لكنه يقترب في النظام الإسلامي إلى صلاحيات الله من خلال ظل الله، وامتلاكه جميع صفات الله بشكل مبطن ولا سيما المتعلقة بالسياسية منها. تنبع خطورة النظرية السياسية للإسلام من بنيته الإيديولوجية، وعدم القيام بالتمييز الكامل بين الفلسفة والدين هو تقصير يولد نتائج هامة، ولن تتردد السلطة بالقيام بأعمال غادرة اكثر من النظام العبودي كلما تردت أوضاعها، ولم يكن الملك والرب متطورين لأن آلهة المجتمع العبودي لم تكن متطورة، ولكن تم تطوير رب الإسلام إلى درجة كبيرة بتعدد صفاته السياسية بشكل خاص من حيث التنوع والقوة، وعندما يتقاسم أصحاب السلطة الذين هم ظلال الله صفاته عندها تحل الكارثة. لقد محا هذا الجانب عدة خصائص إيجابية في الإسلام، ولم تظهر هذه الحقيقة في البنى السياسية المفتوحة للاجتهاد في المرحلة التقدمية للإسلام حتى القرن العاشر بعد الميلاد. لكن النظام السياسي شهد صلابة جامدة بعد أن تم قطع الطريق أمام الاجتهاد والنقاش عن طريق فتاوى شيخ الإسلام بطريقة عمياء، وحسب التقاليد والإرث. وبعد دخول النظام الإسلامي مرحلة التخلف والتعصب، لم يستطع أن يكون جواباً للواقع لا من الخارج ولا من الداخل. ففي الوقت الذي غيّرت الحضارة الأوروبية جوهرها وشكلها عبر حركة التنوير منذ القرن الخامس عشر بعد الميلاد، وتصاعدت على أساس الرأسمالية، كانت المؤسسات السياسية المتسلطة للإسلام ستترك بصمتها على المرحلة الأكثر تخلفاً في تاريخ الشرق الأوسط، وكان المجتمع والتاريخ الذي تطور بشكل تصاعدي منذ 15 ألف سنة، سيتدحرج بعد الآن في مرحلة الظلمة التي لا تليق به والتي لا يستحقها، ولم يستطع العثور على طريق للخروج من هذه الظلمة حتى يومنا هذا.

ج ـ لقد لعبت المرحلة المزدهرة للتجارة دوراً مصيرياً في المضمون الاقتصادي والاجتماعي لانطلاقة الإسلام. إن التغير هو الذي شكل الأساس المادي للتجارة في انطلاقة الأديان ذات الجذور العبرية، والتطوير الذي جرى مع البحث عن الهوية الإيديولوجية الجديدة هو تطور مهم. ويجب أخذ هذا الإثبات بعين الاعتبار بشكل دائم ومهم من زاوية القيام بتقييمات علمية لتاريخ الأديان. فكما ترك الفلاح الحر، والقروي، والتطور الذهني والروحي المستند إليها والمرتبط

بالثورة الزراعية بصمته على العصر النيوليثي، فإن ثورة المدينة والحرف شكلت أساس البنية الذهنية للمجتمع العبودي. ورغم ظهور التجارة بهاتين المرحليتين التاريخيين الهامتين، فإنها لم تستطع أن تكون قوة طبقية مستقلة، إذ كان القصر يبذل جهوداً كتابعٍ للمعبد والقرية، وكان تطور فائض الإنتاج وتغييره سيلعب دوراً في أن تكون التجارة هي العامل الأساسي في التاريخ مع مرور الزمن. في الوقت الذي أدت فيه الحياة القروية والمدينة الروتينية إلى ميثولوجيا متجمدة وبنية آلهة كسولة، كان التغير والتحول الدائم للتجارة سيساهم في تغيّر المصطلحات في المجال الذهني من حيث مضمونها وتجّردها، وكانت الاتجاهات الدينية الجديدة في مؤسسات البنية الفوقية ستظهر بالاستناد إلى ذلك، وستؤدي إلى تصور آلهة ذات صفات متطورة وأكثر تحركاً. وهناك تجرد في جوهر التجارة نابع من تغير جوهرها. تعتبر قابلية التجرد في التطور الذهني والمنطقي مرحلة مهمة وتمتلك مساهمة أساسية في غنى اللغة والفكر. بدأت مرحلة تطور مرتبطة بهذا التغير ابتداءً من الميثولوجيا المستندة إلى آلهة جامدة غير وظيفية حتى تطور الأديان ذات الإله المنطقي والفاعل على الأغلب، وكانت التجارة تحتاج إلى آلهة مرتبطة بالقوانين وعاقلة، وتبعث على الثقة، وجاهزة وموجودة في كل مكان وليست لآلهة تتحرك حسب مزاجها.

وعند القيام بتحليل مصطلح الله عند النبي محمد، فإن بناء العلاقة مع التجار الذين تحولوا إلى طبقة لا يمكن الاستغناء عنها وإرسائها لجذورها في المجتمع يحظى بأهمية بالغة. إن النبي محمد هو نتاج الوحدة بين حياة مضت في الطرق التجارية مع امرأة تاجرة. حيث كان الأمن مشكلة أساسية للتجارة في تلك المرحلة، وكان إيقاف قطّاع الطرق من قبائل الصحراء مشكلة منذ آلاف السنين. وكان إبراهيم أيضاً رئيساً لقبيلة تجار، وكان أمن الطرق الذي بدأ ظهوره في عام 1700 ق.م تقريباً يتطلب قوة. ويظهر الكيان الاجتماعي في شبه الجزيرة العربية تطوراً يرتبط بشدة مع التطور الحضاري في الأناضول وميزوبوتاميا في الشمال ومصر والحبشة في الغرب وإيران في الشرق وقد ارتبطوا بالمجتمعات الزراعية الموجودة في هذه الساحات سابقاً، وكان دورهم القيام بالتجارة والمواصلات بين هذه المراكز، وكان القطاع الأرستقراطي لقبائل الصحراء هو الذي يدير تغيير جميع القيم المادية والمعنوية والتجارة التي أظهرتها المراكز الحضارية الأولى. وكان الجمل هو الوسيلة الأساسية للمواصلات كسفينة صحراء، وإن وجود أكثر من مائة اسم للجمل يعود إلى عدم إمكانية التخلي عنه كوسيلة نقل.

لم تكن التجارة تعتمد على السلع وحسب، بل أن الميثولوجيا والأديان والمسائل الفكرية الأخرى أيضاً كانت من مواضيعها، وهناك عدة دلائل على بيع

هياكل الآلهة في الأسواق مثلما تباع سلعة. وطورت الحضارة الإغريقية ذلك في ظروف البحر، لأنها شغلت مكان الصحراء، وأخذت السفن الشراعية مكان الجمل، وكان يتم الإبحار بالآلهة والأديان مع تجارة السلع عبر الصحراء والبحر، وكان سبب تحول مهنة بناء الهياكل إلى مهنة مهمة يرجع إلى الحاجة للمنتجات الإلهية وقيمتها العالية. لقد تطور الفكر الفلسفي بواسطة الطرق التجارية بمقدار ما حصل تغيير في الدين، وتحققت مرحلة النهضة البابلية والآشورية وبناء إمبراطوريتهما بفضل تطور أهمية التجارة وكيانها، إن التجار السومريين والبابليين والآشوريين هم أول من أضاء شرارات بدء الحضارة في الهند والصين وآسيا الوسطى وإيران، وان عمليات القرصنة على الطرق تطلبت إنشاء مخافر قوية للدولة، ومن المعروف أنه تم إنشاء مستوطنات تجارية حول المخافر ومن ثم مراكز حضارية وعدة دول مستندة إلى ذلك.

ومن المعروف أيضاً أن مكة هي إحدى أهم الحلقات لهذه المرحلة التاريخية، وكما كانت سومر ومصر هي نتاج للفرات ودجلة والنيل فأن مكة وأطرافها هي نتاج للتجارة، ومن الواضح أنه لا يمكن بناء خيمة واحدة في مكان مكة لولا وجود التجارة، كما كانت الكعبة سوق أصنام والنبي محمد أكد ذلك في أحاديثه وهي موثقة أيضاً في الآيات القرآنية.

إن هذا التقييم القصير يظهر علاقة الإسلام بمفهوم التجارة من ناحية الهوية الإيديولوجية والتمأسس العسكري والسياسي أيضاً، فظهور الإسلام وصعوده يمثل قوة وهيبة التاجر وذكاءه والتزامه بالقواعد وتعتبر أول عملية للأسرة التجارية تخلق قوة ضاربة كبيرة ودولة وحضارة جديدة بهوية إيديولوجية مستقلة، وهي انفجار كالبركان لتراكم تجاري تحقق عبر آلاف السنين في شبه الجزيرة العربية وأدى إلى التأثير على جميع أنحاء العالم بعد التجربة الملكية للقبائل العبرية في القدس، وذلك يمثل حملة دينية وعسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مستندة إلى تجارة القبائل العربية لتحولها إلى دولة أساسية وقوة حضارية، وتظهر سنة محمد وعدة آيات قرآنية المديح للتجارة وتقدسها كقيمة إلهية، بينما نرى أن الغذاء النباتي والفواكه والحيوانات الأليفة كانت مقدسة في العصر النيوليثي وفي المجتمع السومري الذي كان يعتمد على الزراعة، والمصري الذي كان يعتمد على العبودية، إن كلمة مقدس "كاووتا" بالسومرية تعني الغذاء، وإن طبقة التجار هي القوة الاجتماعية الكبيرة الثانية التي اعتمدت عليها الحضارة بعد الطبقة الزراعية القروية، وانتشرت العبودية بين تلك الطبقتين، ويأتي الحرفيون المرتبطون بالتجارة بعد التجار على الأغلب، ويطلق على هذه الطبقة اسم طبقة التجار المرابين في الشرق الأوسط، وهؤلاء رواد تطور الفائدة والربا كمؤسسة

تتصدر التجارة الدور الأول في تطور النقد والعمليات الحسابية والرياضيات، ويظهر التفكير المجرد وحمل الكلمات لمعاني مختلفة تطوراً يعبر عن انعكاس لتغيير الحياة الاقتصادية والتجارة.

كانت التجارة محدودة التطور والتجار طبقة غير مستقلة في الاقتصاد الزراعي في المرحلة النيوليثية وفي العصر العبودي، لكن ظهر وضع مختلف في عصر الإقطاع، فقد قامت المدن كمراكز تجارية مستقلة وحققت تبعية الزراعة لها، والدولة الإسلامية في مكة والمدينة هي من الأمثلة الأولى لهذا التحول التاريخي.

كانت البنية الاجتماعية للحضارة تشهد تغييراً هاماً، وهذا كان يتطلب تنظيم الاقتصاد مجدداً حول التجارة، وازداد الاهتمام بالمنتجات التجارية أكثر من غيرها، ودخل النقد قيد الاستخدام كوحدة تبادل اقتصادي، وكأن الإسلام قد ظهر كقوة تجار للعالم الحضاري، وذلك شبيه بالعولمة في يومنا هذا، فكما تلعب قوة أمريكا دوراً بارزاً في تخلص السوق الحر من جميع الحواجز، لعبت الدولة الإسلامية أيضاً كقوة في تلك المرحلة دوراً مشابهاً في تطور التجارة بطريقة حرة وآمنة، لقد تركزت الدولة ذات الثقة بين مراكز الإنتاج الكبيرة ووصلت إلى موقع لا يمكنها التخلي عنه في التطور الحضاري ابتداءً من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهادي مروراً بالمحيط الهندي حتى سيبيريا.

د ـ إن تقييم تأثير الإسلام على الحركة الإنسانية والفرد مسألة مهمة، ومن المؤكد أن المسيحية قد تجاوزت التعصب القومي والطبقي، وهي أهم خطوة في خلق دين إنساني "حركة إنسانية" من جميع الشعوب والشرائح الاجتماعية، وهكذا تجد الإنسانية معنى لها كمصطلح لأول مرة، وإذا كنا من قبائل وأثنيات وطبقات اجتماعية مختلفة فإن ذلك لا يشكل عائقاً أمام الأخوة، ويمكننا رؤية بدء الإسلام كحركة كونية عند مقارنته مع المجتمع والدين اليهودي، ومازالت المسيحية تواصل الموقع الريادي لها حتى يومنا هذا، كدين متقدم على هذا الصعيد، لكن اليهودية هي عكس ذلك وهي تأتي على رأس الأديان التي تحافظ على خصائصها القومية المتطرفة منذ ظهورها وحتى الآن، كما بقيت عدة ظواهر دينية في إطار الحدود القومية والإقليمية، ويقف الإسلام ما بين هذا وذاك على هذا الصعيد، ويجب أن نؤكد على أن الإسلام لم يتجاوز الصفة القومية كثيراً حتى قال النبي محمد " لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى".

لقد جعلت شخصية الطبقة الفوقية لليهود من القومية العرقية المتطرفة أمراً ضرورياً، وإن مواصلتها لموقعها المميز مرتبط بمحافظتها على خاصيتها هذه، كما جعلت اليهودية من القومية شيئاً ضرورياً لأجل أن تكون طبقة فوقية ويبقى

الشعب المختار في السلطة، إن قول الرب يهوا: "أنت قومي المميز، لقد زوجتك مع نفسي" يظهر الصفة الشوفينية للغيرة، إن لعب اليهود دوراً هاماً عبر التاريخ وتعرضهم لمآسي أليمة لا تحصى له علاقة وثيقة بالتزمت الإيديولوجي، فمفهوم شعب الله المختار يرغمهم على التفكير بأمور كبيرة، والقيام بأهم الأعمال من خلال عدم المساواة والحسد والحقد والعدوانية التي يبثونها في الجوار، إن الفاشية الهتلرية هي آخر حلقة في سلسلة هذا المسار، وتأخذ المأساة الفلسطينية الإسرائيلية جذورها من هذه المخلفات التاريخية.

لقد ساهم طرح المسيحية لمفاهيم معاكسة، مساهمة مهمة في أخوة البشر والسلام. ويعتبر تناولها لجميع الجذور العرقية والقومية والأفكار المختلفة بمساواة وسلام، وعيشها لأولى الممارسات الجديدة للاشتراكية البدائية، خطوة كبيرة في الوعي الإنساني لدى البشرية، وعدم تفريقها بين الجنسين جعل قيمتها تسمو أكثر. ومن الصواب أن نقول أنها أول حركة كونية كبيرة للاشتراكية البدائية. إن تردي المسيحية الذي جاء فيما بعد لا يمثل تطورها الجوهري الذي حدث في المراحل الأولى. ومن المؤكد أن المسيحية تحتاج إلى تجدد على أساس العودة إلى الجوهر.

يقف الإسلام في الوسط بهذا الصدد، ويعود ذلك إلى شخصيته الطبقية، فهو لم يكن قومياً بمقدار اليهودية، ولم يكن اممياً بمقدار المسيحية لأن طبقة التجار تشكل القوة الاجتماعية الأساسية للبناء الاجتماعي السياسي لهويته الإيديولوجية، ولا شك انه لعب دوراً كبيراً في تطوير القومية العربية بسبب اضطراره لتوحيد قبائل الصحراء.

لم يقم الإسلام بعمل قومي عن معرفة، فالله هو إله جميع البشر، يتصرف بمساواة أكثر مع جميع القوميات والجذور العرقية بالمقارنة مع الإله ياهوفا، لم يقم بالتفرقة العرقية، وبالتأكيد لم يكن اشتراكياً أيضاً، ولكننا نرى في القرآن والسنة أنه يقوم بالتفرقة الطبقية والجنسية بشكل مرن في البداية، ونرى أن رب الإسلام مرن إلى درجة كبيرة مقارنة بالبراهما"brahma" الهندي، وتم الوصول إلى المفهوم الإنساني للبشرية. كما أن الإسلام يرى الأديان التوحيدية الأخرى مشروعة، ويمكن لأي شخص منهم أن يأخذ مكانه ضمن النظام بعد أن يدفع الجزية، ويتم الإعلان عن أن الذين يعتدون على الإسلام هم كفرة، وإن محاربتهم حتى النهاية عبادة كبيرة، ويوضع ذلك أمام الأمة كمهمة جهادية، إن الأمة هي الأمة الإسلامية بالذات. وتقابل في يومنا هذا موقع الطبقة الليبرالية. وبذلك تكون اليهودية دين الطبقة العليا والمسيحية دين الطبقة الدنيا والإسلام دين الطبقة الوسطى، ومحافظة الأديان الثلاثة على كيانها حتى يومنا هذا له علاقة بمواقعها الاجتماعية والإنسانية.

يكون دور الإسلام إيجابياً في التحول القومي للعصور الوسطى إلى حين توحيده للقبائل، لقد لعب الإسلام دوراً هاماً في تكوين الأمة والقوم مثلما أدت الرأسمالية إلى تشكل القومية والأمة. لقد لعب الأشخاص الموجودين في السلطة والذين كانوا من أقوام مختلفة دوراً ناجحاً في تطوير أقوامهم. وإن أكثر الذين بقوا في السلطة هم من القومية العربية والفارسية والتركية، ولهذا حصة كبيرة في أن يكون العرب والفرس والأتراك هم القوميات الإسلامية البارزة في يومنا هذا، حتى لو لم يتم ذلك عن معرفة، ومن الواضح أن مصيرها كان سيصبح مختلفاً لولا وجود الإسلام. ومن المفيد تحليل العلاقة الموجودة بين الوطنية والطبقية بعمق، إذا لم يجر التركيز على هذه المسألة كما يجب. إن الوصول إلى الأممية والإسلامية المنفتحة على الأخوة والسلام وتجاوز الشوفينية القومية والدينية بهذا الصدد، سيلعب دوراً بناءً في تجاوز كثير من القضايا. إن في جوهر الإسلام كما المسيحية مفاهيماً إنسانية تتيح إمكانية كبيرة للعدالة والسلام ، وهناك وظائف هامة يجب أن يقوم بها كالتوجه للأممية.

يرى الإسلام أن الإنسان بمفهومه الفردي أشرف المخلوقات. ولا يمكننا إنكار وجود مفهوم إنساني في عمق ذلك، ويمكننا أن نقول أن الإسلام قد سما بهذا المصطلح ضد العبودية. ويريد الإسلام أن يسمو بالإنسان الذي حطت العبودية من شأنه إلى الشرف. ومن المؤكد أنه يمتلك مفهوماً فردياً تقدمياً. يجب أن نرى سمو الإنسان الذي بقي في قيد العبودية منذ آلاف السنين في الشرق الأوسط كأكبر تطور للعصر. وربما يتم الاقتراب إلى حرية فردية متقدمة أكثر من مستوى حرية المجتمع. يجب أن نفهم تحطيم البنية الذهنية والروحية للعبودية، والإعلان بأنه لا يمكن للإنسان أن يكون عبداً إلا لرب مجرد كثورة لحرية الفرد التي لم تدرك قيمتها حتى الآن. إن عودة الإنسان الذي أصبح غريباً عن جوهره عن طريق البنى الذهنية والروحية وعبر علاقات العبودية الصارمة في الشرق الأوسط والتي بقيت من السومريين والمصريين إلى جوهره، حتى لو كان ذلك بشكل محدود هو من أهم مكاسب الإسلام، وسنكون واقعيين إذا وجدنا هنا أحد الأسباب الرئيسية لتأثيره.

لقد فهمت إنسانية المرحلة هذا الجانب من الإسلام بعمق، وأظهرت التزامها به دون تردد، وذلك يظهر قابلية الإدراك الصحيح لخطوات التاريخ. هذه أكبر نتيجة لثورة الإسلام على مستوى الفرد، إنه لم يقض على العبودية بشكل كامل، ولم يحقق الجو المناسب للحرية الفردية التي حققتها الرأسمالية، لكن الإسلام لعب دوراً هاماً ومصيرياً في إلغاء العبودية تماماً، وفي المساهمة التي قامت بها الرأسمالية على مستوى الحرية الفردية. وإننا لن نكون موضوعيين إذا فكرنا بإلغاء العبودية بعيداً عن الإسلام. لقد استطاع الإسلام تجاوز العبودية بخطوات

راديكالية أكثر من المسيحية، ونقل عمليته الراديكالية إلى جميع ساحات الحضارة بسرعة، ونقل عدة قبائل وبنى عرقية إلى مواقع متقدمة عن طريق قفزها طبقياً دون الوقوع في العبودية. وإن القول أن الإسلام بجانبه هذا هو النظام الحضاري الذي أعد العالم أكثر من غيره للأممية الرأسمالية سيكون تقييماً أكثر موضوعية.

لا تزال الثورة والانفتاحات الذهنية، التي شهدتها أوروبا عبر النهضة والإصلاح والتنوير، بعيدة كل البعد حتى عن مجال الطرح والنقاش في المجتمع الشرق أوسطي. فالاقتباسات المتمفصلة لا تعني النهضة والإصلاح والتنوير. بل ويمكن الحديث فيها عن انتقالٍ في الاتجاه المعاكس أيضاً. فالإسلام الراديكالي لا يعبر أصلاً عن التحديث، بل عن إنعاش التزمّت والتصلب. ومصطلح "الإسلام السياسي" لا معنى له سوى كونه استخدام ديني تقليدي للسلطة. من غير الوارد أن تسلك منطقة الشرق الأوسط درب التطور الذهني بالوثوب على مراحل الذهنية التي شهدها الغرب. فالتشبث الدين، بل وحتى بالعلمية المحضة، أو التوجهات الفلسفية الإيجابية؛ لا يمكنها بمفردها تأمين التحول الذهني. للاتجاهات المذهبية "الاشتراكية المشيدة"، وغير المعتمدة على مراحل الفكر الغربي؛ تأثير مصيري في أساس التخلف القائم في روسيا والصين حالياً.

الثورة الذهنية شرط أولي من أجل تخطي مؤسسات المجتمع المتحولة إلى عقد كأداء، وإعادة بنائها من جديد. لا تقتصر الثورة الذهنية على هضم الفكر الغربي واقتباسه وحسب. فحتى التطورات المحدودة في هذا الميدان لا تذهب أبعد من كونها رقع مهترئة، بسبب نوعيتها المتمفصلة. فحفظ الفكر الغربي عن ظهر قلب، لا ينمّ عن الإبداع. بل يقود إلى العقم والسقم، مثلما يعيق ظهور الثورات الفكرية المحتملة. ورغم كثرة أعداد الاستظهاريين الحفظيين في الأوساط الموجودة، إلا إنه لا يوجد عالِم اجتماع حقيقي. حيث أن الموجودين منهم ليسوا في الحقيقة سوى طَلَبَة دين معاصرين متزمتين إلى آخر درجة. ذلك أنه ثمة تصوف دارج ومتفشٍ على نحو أكثر رجعية حتى من صوفيي العصور الكلاسيكية. ولو بحثنا عن الفلاسفة والعلماء والمثقفين المتنورين الحقيقيين بالمجهر والمصباح، لما وجدناهم. ولا يؤمن أحد بوجود ضرورة كهذه. وقد اقتُبِسَت لوازم الغرب الأيديولوجية بأسوأ الأشكال. فسواء كانت النزعة القومية، أو الليبرالية والاشتراكية من الصياغات الأيديولوجية المعاصرة؛ فهي لا تذهب في أدوارها أبعد من نطاق الرجعية والتخلف في ذهنية المتنورين الشرق أوسطيين. الكل يدرك انطلاقاً من الممارسات والتطبيقات الجارية، استحالة إيضاح الواقع الشرق أوسطي عبر مثل تلك القوالب الشعاراتية. بل وتعرُّضه أكثر للدنس والتلوث من خلالها.

يجب على الثورة الذهنية أن تملأ فحواها بواقعها الذاتي الخاص بها، إلى جانب استخدامها الصياغات والأشكال الغربية. فبدون تخطي أرضية المعاني التي ترتكز إليها كافة البنى الاجتماعية التاريخية الأولية، عبر قصف ذهني – إن صح التعبير – لا يمكن تكوين قوة المعاني التي ستشكل دعامة البنى الجديدة. أما البنى الخاوية من المعاني، فلا مكانة اجتماعية لها ولا قيمة. هذا ومن الصعب تنوير المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية بالسياسة، ما لم تُحلَّل الحقيقة والواقع الاجتماعي الذاتي بالأفكار الخاصة به، وما لم تتوَّر

الظواهر الوطنية والقومية والإثنية والدينية عبر تلك الأفكار. تطلبت المستجداتُ المعنية بالتيارات البارزة في الفكر الغربي – من قبيل الدين، القومية، والعرقية – بذلَ الجهود المضنية. وأصبح بالإمكان سيادة براديغما الحياة الجديدة، عبر إيجابية مثل تلك الجهود الدؤوبة.

أما المتنور (والسياسي) الشرق أوسطي، فيسلك مواقف، وكأنه سيبلغ هذه المرحلة عبر الاقتباسات الاستظهارية الحفظية والتكنيكية؛ دون أن يرى داعياً لبذل جهود عظمى توازي تلك المبذولة في الغرب، ولكن حسب واقعه المرئي. ومحصلة ذلك كانت عدم القدرة على إبداء الجرأة في إحداث الثورة الذهنية الذاتية، بل التخبط في التبعية الذهنية والعقم والوهن إزاء الرأسمالية العالمية. لا يمكن تجاوز فوضى الشرق الأوسط لصالح الشعوب، ما لم تعش المنطقة مراحلها الخاصة بها من النهضة والإصلاح والتنوير. وإن لم يحصل ذلك، فلن تنجو المنطقة آنئذ من استبدادية آلاف السنين المموَّهة والمصقولة بمكياجات الغرب خلال القرنين الأخيرين.

2 –الهرمية وتمأسس الدولة هما الظاهرتان الاجتماعيتان الأصعب تحليلاً. كذلك فالقدرة على الغوص في ثقافة الشرق الأوسط، منوطة بتحليل لغة ثقافته السياسية. فالحِبكة والخصال المنسوجة في العلاقات الكائنة بين التمايز الطبقي والميول الدينية والسلالاتية، والعائلة والعشيرة، والمتزامنة مع تصاعد الهرمية والدولة؛ تكاد تُخرِج النظام الاجتماعي القائم خارج دائرة الزمان والمكان. كما تُزيد الألفاظ الميثولوجية والدينية والطبقية والإثنية، من ضبابية الماهية الحقيقية للظواهر.

تعيش المنطقة، التي شكلت المركز النواة للطور النيوليتي للمجتمع المشاعي البدائي، ثقافة تلك المرحلة كذاكرة اجتماعية هي الأعمق على الإطلاق. ولا تزال البنية النيوليتية متفشية فيها على الصعيد المادي أيضاً. ولم تكن القروية – حتى الماضي القريب – مختلفة كثيراً عن المراكز النيوليتية. هذا ويعد نظاما المجتمعين العبودي والإقطاعي أيضاً قيمتَين ثقافيتين جذريتين في المنطقة. لذا، فالثقافة الغربية المضافة إلى هذا المجمّع الثقافي، لا تعني أكثر من كونها قناعاً صاقلاً إياه. بالتالي، فالنظر إلى هذا القناع الصقيل، والانطلاق منه في التحليلات الاجتماعية، يعد مغالطة كبرى.

تكاد لم تبقَ أي ثغرة أو مسام، إلا وتسربت إليها الهرمية التي تُعرَف أيضاً باسم نظام السلطة الأبوية. ولربما قامت تقاليد هذا النظام على إدارة شؤون المجتمع قبل مؤسسة الدولة بآلاف من السنين. وربما تكون قوة نظام السلطة الأبوية مطوّقة للشرق الأوسط وخانقة إياه بدرجة لا مثيل لها في أي بقعة من العالم. حيث لا تزال هذه القوة بارزة للعيان، وبنسبة لا يستهان بها، في تأثيرها على مفاهيم شخصية المرأة والرجل، والثقافة الإثنية، والعائلة والشرف؛ التي تُعتَبَر قِيَماً لا تزال حية تنبض في المنطقة. أما المدن التي كان يجب أن تطوّر الثقافة المضادة لها، فهي مشحونة بالآثار العميقة للثقافة الريفية، وبالتالي لقوة نظام السلطة الأبوية؛ بحيث تبقى كأشباه جزر ضئيلة تسبح في المحيط الريفي.

علاوة على أن الدولة تنامت على الأرضية الثقافية لذاك النظام على مر آلاف السنين. حيث لعبت المجموعات الأبوية السلطوية الوطيدة دورها في تأسسها بشكل أساسي، أكثر مما لعبته العناصر الطبقية فيه. والعنصر الأبرز داخل تلك المجموعات هو الحكيم المسن. ولربما كان هذا الحكيم أقدم سلطة عرفتها القبيلة، باعتباره المسن الخبير ذو التجارب الوفيرة. هذا ومن المحتمل أيضاً أنه، ومن بعد الأم الحكيمة التي لعبت دورها في الثورة الزراعية، تَطَوَّر الحكيمُ العجوز الخبير خطوة خطوة، لتتعزز مكانته الاجتماعية تدريجياً على شكل شامان – شيخ – نبي. ولدى تطور التمايز الطبقي في المجتمع وتوجهه من مؤسسة السلطة الأبوية نحو الدولة؛ يبلغ الحكيم وحلفاؤه منزلة السلالة، ومنها يصل إلى المَلَكية.

هذا ومن الوارد أيضاً أن يكون الراهب انبثق من الشامان، وتشكلت الكتائب العسكرية من الشبان الماهرين في إصابة الهدف، بالارتقاء إلى منزلة أعلى. وبينما يعمل الراهب على تطوير التصورات الأيديولوجية الجديدة، تتجه الكتائب العسكرية نحو التجيش تدريجياً. ومثل هذا النمط من التدوّل أكثر واقعية على أرضية المنطقة. ما من معطيات تشير إلى وجود جيش العبيد مسبقاً. فالاستعباد لم يتطور إلا بعد تعزز مؤسسة الدولة. حيث نشاهد القوة البارزة للرهبان والقبائل قبل مدة طويلة، من خلال المثالين السومري والمصري. لكن الاستعباد لم يحصل بسهولة. بل جرى في خضم صراعات عتيدة وضارية متشابكة.

لربما كان موضوع تعويد المجتمع على العبودية من أكثر الفترات التي تستلزم تحليلها واقتفاء أثرها في ثقافة الشرق الأوسط. تتأتى الأهمية الكبرى للميثولوجيا، كأيديولوجية خاصة بالرهبان السومريين والمصريين، من دورها في ظاهرة التدول. فمثلما أسفر الصراع الذي خاضته الرأسمالية في سبيل بعض الأيديولوجيات – كالقوموية والليبرالية – عن ظهور شكل الدولة الرأسمالية؛ فقوة الألفاظ الميثولوجية أيضاً نمّت عن ظهور شكل العبودية في العصور الأولى. ولولا قوة مشروعية الألفاظ الميثولوجية في تأثيرها على المجتمع، لما كانت تأسست – على ما يُعتَقَد – سلالات الملوك الآلهة المذهلة. وحتى لو كانت تأسست، لما تجذرت ودامت بهذه الدرجة البارزة.

تُعبّر أقوال فرعون ونمرود عن أقوال الملوك الآلهة في ثقافة الشرق الأوسط، بكل ما للكلمة من معنى. ومصطلح المَلك الإله هو من مبتكرات منطقة الشرق الأوسط. وهو أبعد من كونه مجرد شخص، بل إنه يمثل ثقافة ومؤسسة. ومكانة كافة أعضاء المجتمع تجاه شخصية المَلك الإله، أشبه بمثال النمل الحمّال. لقد بولغ في الفرق الكامن بين المَلك الإله من جهة، والمجتمع "الآخر" من جهة ثانية. وقُلِبَت موازينه بدرجة برز فيها نَسَبان في نهاية المطاف: الملوك الآلهة الخالدون، والناس الفانون. أَولى المكرُ الميثولوجي (أو الكفاءة الميثولوجية) عنايةً فائقة لعدم اعتبار الشريحة المتدولة من نسل "الإنسان العادي". والديمومة التي تطلبتها الدولة (كمؤسسة) من أجل حياة الحكام، هي التي لعبت الدور البارز – حسب اعتقادي – في تشكل صفة "الخالدون" تلك. فالأواصر الكائنة بين مصطلح "الخلود" في فكرة الإله، وبين الديمومة والسيرورة في مؤسسة

الدولة، جلية جلاء النهار. حيث كان يُعتَقَد بوجود الموت لأجل الآلهة أيضاً قبل ظهور التدول. وكانت ثمة أيام خاصة من العام، يموت فيها الإله ويحيا، لدى آلهة الحقبة النيوليتية والتعابير الرامزة إليها. وكانت تُقام مراسيم الحداد أو الاحتفاء المنتشرة آنذاك عبر الطقوس والشعائر الدينية. لكن، ومع اكتساب مؤسسة الدولة صفة الديمومة (الأشخاص مؤقتون، ولكن الدولة دائمة)، أصبح الملوك أيضاً خالدين أبديين.

هنا يبرز الدور المهم الامتيازات التي حظيت بها أنساب الملوك الآلهة وسلالاتهم. فخلودهم وعدم تصنيفهم ضمن الناس العاديين، يزوّدهم بعظمة خارقة وتمايز واضح. ولدى تأليه طبقة الدولتيين (أصحاب الدولة) على هذا النحو، وتحويلها إلى نَسَب خالد؛ لم يبتقَّ أمام الناس "الآخرين" (كافة أناس المجتمع الآخر) سوى تعبدها.

يختلف هذا التعبد أشد اختلاف عن أشكال التبعية اللاحقة في العبودية الإغريقية والرومانية، تماماً كالفرق بين التبعية للسيد والتبعية للإله. حيث هناك تكامل وطيد للعبادة والعقيدة في التبعية الإلهية. وقد رُتِّبَت التبعية للدولة كمَلِك إله في تقاليد الرهبان، بدهاء حاذق ومكر خارق، لدرجة أن جيش العبيد والرقيق قد تَنَمَّل (تحول إلى نمل) ليغدو خادماً قزماً وحمّالاً للعبء.

يُشار في الميثولوجيا السومرية إلى أن الإنسان خُلِق من براز الآلهة، أو – في مرحلة متقدمة – من التراب (الطين). وزادت دقة خلق الآلهة للإنسان بأكثر الأساليب دناءة وخفية، لتستمر حتى يومنا هذا. فالمرأة هنا منسية لدرجةٍ لا يمكن أن تُخلَق من الإله. بل إنها مخلوقة من ضلع الرجل، وهذا هو نصيبها.

إن هذه السرود مهمة من حيث الإشادة بالنظام الأيديولوجي العظيم الذي ساد أثناء بداية نشوء شريحة الدولة. فتقسيم الناس معمول به لدرجة لا تقتصر فيه الأغلبية الساحقة من المجتمع على المصادقة على ألوهية شريحة الدولة على مر الأجيال، بل وتعبدها أيضاً. وترى في العمل من أجلها أمراً إلهياً مقدساً. هكذا يتوطد العمق الأيديولوجي في هذا الخصوص. وما جرى هنا في الحقيقة، ليس سوى تحويل خاصية مؤسساتية معتمدة على الاستبداد والكذب والرياء، إلى ميتافيزيقيا أو إلى فَتَشية تجريدية تستحق العبادة والقيام بكل شيء من أجلها.

وفيما بعد، تنتشر هذه السمات الأساسية للانطلاقة الحضارية ذات المصدر الشرق أوسطي، في كافة أرجاء العالم على موجات متتالية، عبر قمعها للخصائص النيوليتية القيّمة والشديدة الغنى في ثقافة المنطقة على وجه الخصوص، وخلقها للميثولوجيا التي شكلت الأرضية الخصبة لأشد الأفكار والعقائد رجعية وتخلفاً. وانطلقت من ذات القنوات لتنتشر في أغلب المجتمعات المتقدمة، وعلى رأسها المجتمع الشرق أوسطي. إنه لَتَأثيرٌ شديد الرسوخ لدرجة إنها استمرت حتى لدى هيغل، الممثل الأعظم والأخير للفلسفة المثالية، والذي قال "الدولة إله مجسَّم" (أي مرئي). لا تزال الألفاظ الحالية بشأن أبدية الدولة وسموها وقدسيتها تستمد مصدرها من هذا النظام التعبدي العتيق.

ثمة تغير ملحوظ ومهم حاصل أثناء العبور من أيديولوجية الدولة ذات الجذور الميثولوجية، إلى مصطلح الدولة المعتمدة على أيديولوجية الدين التوحيدي. حيث يتجسد

التناقض الرئيسي ذو النوعية الرمزية بين المسيحية والإمبراطورية الرومانية، في استحالة أن يكون الإمبراطور إلهاً، وفي القبول والاعتراف بسيدنا عيسى المسيح بأنه ابن الإله. وهذه المقولة دارجة في كافة الأديان التوحيدية. يكمن سبب وجود تقاليد النبوة، في رفض وجود الملوك الآلهة، والاعتراف بالأنبياء كرُسُل الإله. إنه انقطاع جذري عن أيديولوجية المَلك الإله.

إذا ما وضعنا نصب العين الرأي الإلهي العالمي السائد في الذهنية الاجتماعية للعصور الأولى والوسطى، سنجد أن ثورة عقلية اجتماعية قد تحققت. يتمثل التعبير الملموس لهذه الظاهرة في الهرب من قوة (وبالتالي من دولة) الفرعون ونمرود. نشاهد الاتجاه ذاته في الممارسة العملية للنبوة، وفي مقدمتها لدى سيدنا إبراهيم، موسى، عيسى، وسيدنا محمد. يجب النظر إلى هذه العمليات، التي يبرز فيها الجانب السياسي بقدر جانبها الاجتماعي، كثورات حقيقية تحققت في تلك الأزمان. أما شعارها الأيديولوجي الأولي، فمفاده: "البشر ليسوا آلهة، ولا يمكن أن يكونوا إلا رُسُل الإله". إذا ما أسقطناه على نحو مرئي أكثر، فإنهم بذلك يفرضون تمرين وتطويع المَلك الإله، وتحقيق وفاقه مع شريحة من مجتمعه بأقل تقدير. أي، تُوضَع الحدود للتصرفات اللامحدودة للمستبد، الذي يدّعي بأنه المَلك الإله الذي يفعل ما يحلو له.

والمستبد الذي ينادي بإصرار "أنا المَلك الإله"، دعك من قيامه بالوفاق، لا يرغب ولا يطيق حتى سماع أصوات عبيده وعبّاده. وقصة سيدنا أيوب غريبة حقاً ومفعمة بالدروس إلى أقصاها في هذا المضمار. إذا ما قمنا بتفسير عميق لبند سيدنا أيوب في الكتاب المقدس، سيكون فحواه على الشكل التالي: كما هو معلوم، يفقد سيدنا أيوب كل شيء لديه، ويئن وجعاً في زاوية مظلمة (أو في غياهب السجون)، بعد أن عشعش الدود في جسده فاحتقن. والمَلك الإله هنا (أي نمرود الموجود في أورفا)، لا يولي أي معنى لتألُّم وتوجُّع عبيده. فالعبد بالنسبة للملوك الآلهة، هو ذاك الأخرس الأبكم الذي لا يتألم، والمكلَّف بخدمتهم. بل حتى أن التألم ذنب وجريمة. تتمثل العملية الكبرى لسيدنا أيوب في هذه الحالة في فرضه على المَلك الإله (أي الدولة) القبول بأنه يتألم. أي أنها المرة الأولى التي "يفهم" فيها المَلك الإله أن العبد يتألم. هذا "الفهم" هو ثورة بحد ذاتها. ما يُرمَز إليه في شخص أيوب هنا، هو تألم الشعب وفاقته وعَوَزه.

لقد عُثِر على ما يقارب الآلاف من جثث الموتى في بعض قبور الملوك الآلهة السومريين والمصريين. وأغلبهم كانوا نساء. نخلص هنا إلى أن كل حاشية المَلك تُدفَن معه لدى وفاته. فالحاشية لا تملك روحاً أخرى غير روح المَلك، حسب مفهوم المَلكية في تلك الأوقات. وكيفما أن الذراعَين والساقَين تموتان بوفاة المَلك، فالحاشية أيضاً تُعتَبَر ذراعه أو ساقه الميتة. بشكل عام، يُعتَبَر المَلك ورعاياه في الأنظمة المطلقة والتوتاليتارية المشابهة كياناً وجسداً واحداً متراصاً كما اللحم والظفر (أو بالأحرى كشَعر البدن). إذ لا حياة أخرى خاصة بالرعايا. إنها "القاعدة الذهبية" التي تأمل كل الدول من رعاياها الامتثال لها، وإنْ بشكل أكثر مرونة ولطفاً. أي أن مفهوم "المَلك الإله – العبد" قد وصل يومنا هذا، دون أن يفقد من مضمونه أو يعدّله، سوى بشكل محدود في الحضارة الغربية.

لقد غدت ثورة أيوب تعبّر عن الفترة التي بات فيها الناس يعربون عن أوجاعهم، ليباشروا بتمرد من أوهن أشكاله. من هنا تنبع قدسية تلك الثورة التي يجب ألا نستخف بها أبداً. فلربما كانت الثورة الأولى في التاريخ، والتي أعرب فيها الناس عن اعتراضاتهم إزاء الدولة. ورغم عدم إلمامنا الكامل بمدى مرونة الدولة تجاه ذلك آنذاك، إلا أن قوة النبوة المتعاظمة كالسيل الجارف، تؤسِّس في أعوام 1000ق.م أولى دولها الشهيرة بزعامة سيدنا داوود وسيدنا سليمان. إن تأسيس داوود للدولة غريب الأطوار حقاً. تكمن الغرابة في أن داوود لعب دوراً يماثل ما يؤديه الفلسطينيون اليوم، لدى تأسيسه دولته. حيث أسس إمارته في خضم صراعه تجاه الإمارات المحلية القائمة وقتذاك. هكذا انفصل الإله عن المَلك في مرحلة شديدة الشبه براهننا. وغدا كل منهما كيانَين مختلفَين. ورغم مناداة المَلك ونعته بِظِل الإله، إلا أن الإله في الحقيقة أضحى تعبيراً اصطلاحياً وعنصراً تجريدياً للمَلكية.

من المهم استيعاب مسألة "ظل الله" في الأديان التوحيدية. فالتغير الحاصل في قوة الدولة مهم هنا. لكن، يجب الانتباه جيداً إلى أن المضمون لم يتغير. فالمَلكية المُعلاة إلى السماء، تستطيع إنزال أوامرها الخطيرة من هناك أيضاً. بل وتستطيع دفع العبيد للقيام بما تشاء بمكر ودهاء أكبر وأدق، باعتبارها عنصر لا يُرى، عنصر مخفي تماماً عن أبصار العبيد. بل وبإمكانها الغرق في اللامبالاة والبلادة أكثر فأكثر، عبر "ظلها" السلطان، الذي يقول على الدوام "نحن مسؤولون فقط أمام الإله". النقطة الواجب الالتفات إليها هي زيادة متانة الأواصر بين إعلاء الإله ورفعه إلى السماء، وبين تمأسس الدولة التجريدي. فكلما تحولت الدولة إلى كيان مؤسساتي تجريدي (مستقل عن الأشخاص)، كلما اكتسب مفهوم الإله أيضاً الصفة التجريدية، باعتباره انعكاس أيديولوجي لها.

يكاد هذا المفهوم، الذي يتحول إلى تقاليد وأعراف راسخة مع سيدنا إبراهيم وموسى، يغدو الفرضية النظرية الأساسية السائدة في القرآن مع سيدنا محمد. تتجسد المساهمة العظمى لسيدنا محمد هنا في تسليح الإله بتسع وتسعين صفة ليضفي عليه صفة الكمال. فهو الواحد الأحد، الذي لا يُرى ولكنه يرى ما في القلوب، ما من مكان إلا ويبلغه، هو الرحمن الرحيم، وهو المعاقِب المحاسِب، لا شريك له، ...الخ. ما ينتصب أمامنا هنا أيضاً، هو مدى تغلغل التجريدية لمؤسسة الدولة. فكلما تصاعدت المؤسساتية، كلما تطلبت معها ألوهية مجردة توازيها وتحاكيها. ورغم أن الأنبياء السابقين لسيدنا عيسى وسيدنا محمد، كانوا أبدوا معارضتهم وسيَّروها ضمن شروط المجتمع العبودي بالأغلب، ورغم أنهم أسسوا أنظمتهم السياسية (التي هي ضرب من إدارة القبيلة أو الدويلات القصيرة العمر) بشكل محدود للغاية؛ إلا أن النبيَّين الأخيرَين قد جهّزا الأرضية المناسبة لانطلاقة الدولة الإقطاعية. أو بشكل أصح، ورغم عدم تواؤم صراعاتهم العظيمة مع أهدافهم بشكل تام، إلا إنها ترسخت في أرضية مؤسسة الدولة الإقطاعية كوفاق ذي أبعاد أوسع. تتزامن الأديان التوحيدية مع واقع الطبقة الوسطى الآخذة في النمو والاتساع. وبينما تتزامن أديان المَلكية الإلهية مع فترات نشوء الدولة الأبوية والعبودية المهيمنة، فإن الألوهية الشخصية

والمتعددة تتزامن مع الشروط النيوليتية البارزة على شكل قبائل، ومع شروط تواجد الطبقات السفلى أيضاً.

بمقدورنا استيعاب العلاقة الكامنة بين الإلهيات (اللاهوت) من جهة، وبين المجتمع والسياسة من جهة أخرى، بشرط ألا ننسى إطلاقاً أن القدسية هي التعبير الجماعي المجرد للهوية والإرادة الاجتماعية المتطورة. وبينما تشمل دولة الشرق الأوسط الطبقةَ الوسطى أيضاً في العصور الوسطى، فإننا مقابل ذلك لا نجد أي تغيير حقيقي في سماتها الاستبدادية. فالعنوان الجديد للمَلك هو السلطنة. أي تمثيل السلطة بالشخص. وما من إرادة يمتثل إليها السلطان، سوى إرادة الإله. وطبقة رجالات العلم القائمة على تفسير أوامر الإله، ليست سوى فئة أو نوع من أنواع الجيوش العثمانية القديمة. وهي لا تمثل سوى إرادة السلطان. كما بسط المجتمع الفوقي للدولة نفوذَه بشكل ساحق على المجتمع، مفهوماً وأخلاقاً. وبسطت الدولة المتوطدة في المدينة نفوذها في الضواحي الريفية أيضاً. لقد شهدت دولة العصور الوسطى أوج ازدهارها وانتعاشها مع الإسلام والمسيحية على السواء.

أما في الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، اللتين تُعتبَران الشكل المتردي الأخير لعبودية العصور الوسطى، فقد لوحظ حدوث مرحلة عبور نحو الإقطاعية في القرنين الميلاديين السادس والسابع. ولربما تصدَّرتا قائمة الدول الإسلامية القائمة بانطلاقة راديكالية قاسية نحو الإقطاعية. يمكن اعتبارهما صفحة جديدة في الثقافة الشرق أوسطية. أما الدول العربية الإسلامية التي شهدت أوجها في عهد الأمويين والعباسيين والسلاجقة الأتراك؛ فقد خارت قواها بنسبة ملحوظة مع تعرضها للغزو المغولي من الشرق، والصليبي من الغرب. ودخلت مرحلة السبات والجمود مع تبعثر السلالة الأيوبية في أعوام 1250.

إن النظر إلى العثمانيين كدولة نصف بيزنطية – نصف إسلامية، هو أكثر واقعية. حيث التحمت الخصائص الإقطاعية للدولتين لدى العثمانيين. وبذلت هاتان الدولتان المطبَقتان لأعتى أشكال الاستبدادية، جهوداً حثيثة للحد من انهيار المجتمع الإقطاعي. في حين أن العثمانيين، الذين كانوا يشكلون قوة طرية حديثة العهد، أكملوا تلك الجهود والمساعي عبر الوفاقات والتحالفات الواسعة، فكانوا آخر دولة إقطاعية أطالت عمرها لهذا الحد الملحوظ في الشرق الأوسط.

كانت الدولة الإقطاعية التي نشهد مرورها بمراحل شبيهة في كل من الصين والهند وأوروبا، لا تعرف الديمقراطية. فالشعار الذي هتفت به الشعوب في تلك الأزمان كان مفاده: "أكبر سعادة في هذه الدنيا هي العيش بعيداً عن الدولة". لقد استمر الاغتراب بين الدولة والمجتمع، رغم كل مساعي الدين التوفيقية. واستمرت الإثنيات والمذاهب المنشقة (غير الرسمية) في الحفاظ على سلوكياتها ومواقفها المشاعية والديمقراطية، بإيواء نفسها في نهاية المطاف في الجبال والبراري وأديرة الراهبات والدراويش، وصون وجودها فيها مقابل مشقات عصيبة وقاسية. لقد بات التمرد على الدولة خاصاً بهذه المجتمعات، لتتحول المقاومة والتصدي إلى طراز حياتها.

غرضنا من تعريف الدولة في الحضارة الشرق أوسطية هو إلقاء الضوء على يومنا الحاضر. ومقابل نشوء الدولة وتكونها في الحضارة الغربية بالارتباط بمنطقة الشرق الأوسط من حيث الجذور، إلا إنها فصلت نفسها عنها وتمايزت مع الزمن. انتقل هذا التمايز المبتدئ مع الدولة في عهد أثينا وإسبارطة، إلى روما أيضاً عبر الهيلينية. واستمر معتقد المَلك الإله فيها مع افتقاده قواه وتأثيره بنسبة ملحوظة، ليكتمل التمايز والانفكاك مع قبول قسطنطين الديانةَ المسيحية واعترافه بها. إن معتقد "دولة الإله" المعمِّر ألف سنة، ليس إلا امتداداً لكلمة "يوم الحشر" القديمة في منطقة الشرق الأوسط. لكنها أكثر دنيوية قياساً بشكلها الشرق أوسطي، حيث لم يتحقق توطد قدسية الدولة تماماً. فعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية تحت الضربات القاضية للأقوام البدوية، فقدت حُرمتها ومكانتها أيضاً. كذلك لعبت الأنساب الجرمانية أدواراً مهمة في كشف النقاب عن الوجه الدنيوي للدولة، باعتبار أن هذه الأنساب لم تشهد الدولة كثيراً. ورغم مساعيهم في إحياء وإنعاش الدولة، التي ورثوها عن الإمبراطورية الرومانية، تحت اسم الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة؛ إلا أن الدويلات المدينية والمَلَكيات المونارشية قد جُرِّدت من حصانتها الإلهية جيداً. وبرزت الكيانات السياسية الديمقراطية والوطنية للشعوب والأوطان إلى الميدان، لدى الشروع في إدراك ماهية الدولة. وقطعت الثورات الإنكليزية والأمريكية والفرنسية أشواطاً بارزة في سيادة النوعية العلمانية على الدولة. كما أدى وضع الحدود والضوابط عبر الدساتير إلى دفن الدولة الاستبدادية بين طيات التاريخ.

أما في منطقة الشرق الأوسط، وكما أن مثل هذه التغيرات لم تحصل في تقاليد الدولة، فقد ولجت مرحلة أكثر تزمتاً وتخلفاً. وما قامت به الدولتان العثمانية والإيرانية، لم يكن سوى إدامة وجودهما مدة أطول عبر الآليات الدفاعية الأخيرة التي بحوزتهما، تجاه الدول الغربية المتصاعدة. وبينما كانت الدولة الشرق أوسطية تتشتت وتتبعثر، لم تكن استعمارية الدولة الغربية قد ترسخت بعد. يُعبِّر القرنان التاسع عشر والعشرون عن مرحلة الأزمة بالنسبة للشرق الأوسط. حيث برزت خلالهما كيانات سياسية يمكن وصفها بشبه الاستعمار الحديث، حيث اتصفت ببعض الجوانب التي تميزها عن غيرها من الساحات في العالم. والتعريف التاريخي الوجيز كافٍ لتسليط الضوء على هذه الفروقات.

نخص بالذكر هنا المقاومة القصوى للعلاقة الكامنة بين الدولة والمجتمع، إزاء التغيير والتجديد، والتي لم تسمح بظهور انطلاقات قصيرة المدى للنفاذ من الأزمة. من جانب آخر، فلا الشروط المساعدة على الهضم السريع لأشكال الدولة الرأسمالية موجودة، ولا إمكانية التفكيك السريع لتقاليد المنطقة موجودة. فالتقاليد الاجتماعية لا تحتوي الديناميكيات الخلاقة المتجاوبة مع كلا التطورين المحتملين. أو بالأحرى، تسمَّرت قوة التقاليد والأعراف في الأرضية الاجتماعية منذ العهد النيوليتي، لدرجة لا يمكنها أن تصحو أو تلملم أشلاءها بهذه السهولة. أما مساعي الشريحة العليا، والتي لم تتخطَّ إطار التواطؤ، فهي بعيدة كل البعد عن جعل تلك المساعي مُلكاً للمجتمع، وعن القدرة على حلها. هذا ولا يمكن تطبيق الشكل الأمريكي، ولا الشكل الياباني الباسيفيكي على هذه الأرضية، بغرض ولوج درب التطور والتقدم على الطراز الغربي.

ليست القوالب الإسلامية فقط هي العائق هنا. بل إن القيم الحضارية برمتها تقاوم وتتحدى. حيث ثمة تعقيد وتشابك كثيف فيها، بدءاً من قيم المجتمع النيوليتي وحتى القيم العبودية السومرية والمصرية، ومن القيم الإسلامية إلى القيم الإثنية الوافرة الغنى. لا تقبل الحضارة الشرق أوسطية اللقاح الغريب بسهولة من أجل التحول. وهي بذلك أشبه بالشجرة العجوز التي لا تحتمل التطعيم. ولأجل التجديد، إما أن تقوم بقلب الشجرة القديمة واقتلاعها من جذورها، أو أن تعثر على نوع جديد من اللقاح. لكن الخيارين غير ممكنين. لقد حاولَت الجونتا التركية وتركيا الكمالية تجريب التلقيح الأول في أعوام 1900. لكنه كان مثل لقاح الاشتراكية المشيدة الفاشل. إذ لم يفلح اللقاح الغربي المُنَقَّع جيداً بماء النعرات القومية في إعطاء النتيجة، رغم مرور ثمانين عاماً عليه. أما الشاهنشاهية (المَلَكية) الإيرانية والأفغانية، فلم تنجُ من الانهيار السريع عندما برزت بسيماء الحداثة. في حين أن القومية العربية تحتضر. والحالة التي شهدتها في العراق تبرهن على مدى الصعوبة الملاقاة، حتى في رفع جثتها. تشهد النزعة القومية الصهيونية الإسرائيلية أيضاً حالة مشابهة. حيث حوَّلت المشكلة الإسرائيلية – الفلسطينية إلى وحشية بكل معنى الكلمة. أما التشبث بالإسلام الراديكالي والحديث، فلا معنى له سوى كونه تهيُّجات وميول انتحارية ناجمة عن الخيبة واليأس تجاه الحملة العالمية الكبرى للرأسمالية. ومن المحال أن تسفر عن إبراز قوة أو حلول أخرى مغايرة.

إن سرداً تاريخياً مختصراً للمصطلحات الأساسية يكفي للإشارة إلى أن ظاهرة الدولة تتخفى في أساس كافة المشاكل القائمة في الشرق الأوسط. لقد خاضت الحضارة الغربية صراعات مريرة في سبيل فك لغز الدولة ذات الأصول الشرق أوسطية. وقد أسدلت النهضة بجانب من جوانبها الستار الأيديولوجي عن الدولة. ومزقت الدروع الميثولوجية الدينية عبر الثورة الذهنية؛ فحققت بالتالي إمكانية تعرية الحقيقة وإبرازها للعيان. أما الإصلاح، فقد حطم حصانة وتكامل أيديولوجية الدولة الإلهية ذاتها وبيروقراطيتها، التي كانت الكنيسة تحميها وتدافع عنها. وأزال من الوجود سلطنة الخوف المسلَّطة على المجتمع، فمهَّد السبيل بذلك ليعبر كل واحد عن معتقداته بحرية. أما في منطقة الشرق الأوسط، فخلافاً لذلك، تم تهميش المعتزلة وأصحاب المفاهيم المشابهة، والقضاء عليهم.

ساعد انهيار السلطنة الدينية في الغرب على تسريع ظهور حرية الفكر والعقيدة. ووسَّعت مرحلة التنوير آفاقَ التطورات، ونقلتها بين صفوف الجماهير. وبينما عملت الاتجاهات الثلاثة على تحطيم وتمزيق دروع الحصانة المحيطة بالدولة موضوعياً، فقد فتحت الطريق أمام بروز القوة الديمقراطية للمجتمع. هكذا قامت الثورات الإنكليزية والأمريكية والفرنسية بدك دعائم الدولة الكلاسيكية، لتقود إلى تحديثها على الصعيدين الأيديولوجي والبيروقراطي. وحَدَّت من نطاقها بالدساتير وحقوق الإنسان، لتُسَرِّع من بروز مبادرة القوى الاجتماعية. هكذا حصلت التطورات الحضارية العظمى في القرنين التاسع عشر والعشرين.

أما في منطقة الشرق الأوسط، فاتجهت المرحلة في اتجاه معاكس في هذين القرنين. حيث ساد نفوذ كلي لقوى جناح السلطة القتالية بعد جهود مروّعة ومريرة، لتنهب وتسلب المجتمع منذ البداية، وبأسوأ الأشكال، تحت ذريعة ضرورة وجود الدولة من أجل منفعة "المجتمع" العامة والأمنية. والتصقت الدولة المستبدة كلياً بظهر المجتمع، كما تلتصق حشرة القُرّادة بظهر الشاة. وما الفترة اللاحقة للقرن الخامس عشر، سوى تعبير عن القصة المأساوية لهذه المرحلة.

وبينما تصاعد الغرب من "المانكا كارتا Manga Charta"* نحو الدساتير العصرية الحديثة، قامت منطقة الشرق الأوسط والاستبدادية الشرقية برمتها بتطوير مختلف أشكالها. والمقولة الشعبية القائلة بأنه "كثيرة هي ألاعيب العثمانيين" هي من بقايا هذه الفترة. والمقولة الأخرى أيضاً "أكبر سعادة في هذه الدنيا، هي العيش بعيداً عن الدولة"؛ إنما تشير إلى هذه الحقيقة. إن المجتمع الشرق أوسطي أشبه بمادة مقيَّدة بمتانة بين يدي الدولة الشرق أوسطية. وأي أمارة تدل على الإشعار أو النمو البسيط فيها، تؤدي إلى استنصالها وانتزاعها. لا يمكن تحجيم الدولة دستورياً هنا، لأنها تتضخم كالديناصور.

تقمصت الدولة الشرق أوسطية المنكمشة على ذاتها والغاصّة في تزمتها تجاه المجتمع داخلياً والغرب خارجياً، الغطاء القوموي في القرن العشرين لتقود إلى تفاقم المشاكل وتثاقلها أكثر فأكثر. وبينما استحدثت نفسها بالنزعة القوموية، وببعض الإصلاحات المحدودة، مع حظيها بدعم حفنة ضئيلة من الدول الأخرى؛ فقد أسفر التعصب والتحجر السائد في المجتمع إلى ظهور ذهنية مغفلة وشاحبة متخلفة، ومريضة، وكأنها تحيا خارج دائرة الزمان والمكان. وبينما افتقدت التقاليد والأعراف قدسيتها كلياً، لم تَقُم العصرية سوى بتكوين شريحة عميلة ملتفة حول الدولة. لم تتحطم الدولة الشرق أوسطية كلياً، بل تجاوبت مع مؤسسة العمالة المنتَظَر انبثاقها من سماتها الموجودة. والغرب بدوره لم يشأ أن تنهار تماماً، لِما في ذلك من منفعة كافية له على المدى القصير. هكذا ساعد على إطالة عمر المونارشيتين العثمانية والإيرانية قرنين من الزمن، عبر التوازنات الخاصة؛ رغم أنه لو تركهما وشأنهما، لانهارتا تلقائياً آنذاك. هذا وكانت "الرأسمالية الكومبرادورية" التي طورها النظام الرأسمالي (المهيمن في الغرب) على الصعيد العالمي، تشكِّل الأرضية الاقتصادية المثلى لهذه العمالة. لكن، دعك من حل مشاكل المجتمع، لم تكن ثمة رغبة آنذاك حتى في رؤية أي مشكلة منها. وكأنه ساد شكل عصري لدولة المَلك الإله. فالقوة العسكرية التقنية المأخوذة من الغرب، كانت كطَوق النجاة بالنسبة للدولة الشرق أوسطية، حيث كان بمقدورها الصمود تجاه مجتمعها بسهولة أكبر عبرها. وبحظيها بمؤازرة أسيادها من الخلف، لم يكن صعباً على جناح السلطة القتالية أن يُطيل من عمره. بل وبصقلها نفسها بأدوات النظام الرأسمالي الاحتياطية (مذاهب الاشتراكية المشيدة، الديمقراطية الاجتماعية، والتحرر الوطني)، كانت تَعتَبِر نفسها في ضمان أكبر.

بدأت هذه المرحلة، التي زُعم أنها مرحلة الإصلاح، بالتساقط شَعرة شعرة تجاه الأزمة والفوضى العامة للعولمة الرأسمالية الإمبريالية، والمتسارعة في وتيرتها مع انهيار

الاشتراكية المشيدة في أعوام التسعينات. وبات من الصعب على إمبراطورية الفوضى الأمريكية السير مع هذه البنى. فهذا يخالف منطق نظامها القائم. وبينما أخذت من ربح النظام وأمنه أساساً لها، راحت الدولة الشرق أوسطية تُقحِم الآليتَين معاً في مرحلة ديناميتية في ضوء الأوضاع المستجدة. فالدولة الشرق أوسطية تعني الاضطراب والانفلات الأمني، والهدر الذي لا جدوى منه. علاوة على أن انقطاعها عن الحشود الغفيرة من الشعب أدى إلى تفاقم الانفلات الأمني والهدر، ليصل أبعاداً لا تطاق. من العصيب حقاً على الاستبدادية القائمة بحديقتها المرقَّعة وبشكلها المطلي هذا، أن تشكل الجواب المرتقب لمطاليب الشعوب المتخبطة في مشاكلها المتكدسة منذ أيام العهد النيوليتي. تضغط هذه الشعوب على تلك الاستبدادية من الأسفل، في حين تضغط الرأسمالية العالمية عليها من الأعلى. ومن الصعب عليها الرد على كليهما.

3 – تُشَكِّل الذهنية والسلوكيات الاجتماعية المتشكلة حول المرأة والأسرة، مشكلة تساوي في ثقلها ما عليه مشكلة الدولة بأقل تقدير. الدولة في الأعلى والأسرة في الأسفل. كلاهما يشكلان تكاملاً جدلياً أشبه بثنائية الجنة والسعير. فبينما تطبّق الدولة نموذجها المصغر في الأسرة، تكون الدولة نموذجاً مكبَّراً لمتطلبات الأسرة المتعاظمة. كل عائلة تجد الحل الأمثل في التدول. وانعكاس استبداد الدولة على الأسرة هو الرجل "رب الأسرة"، الذي يظهر كـ"مستبِد صغير". وبقدر ما يسعى المستبد الكبير في الدولة لإضفاء نظام معين على العالم عبر صلاحياته ومواقفه المؤثرة والمزاجية، يقوم الرئيس الصغير بالانهماك في أعمال نظامية مطلقة مماثلة، ليطبقها على حفنة من النساء والأطفال.

سيبقى أي تحليل اجتماعي قديرٍ شديدَ النقصان، بدون تحليل الأسرة في الحضارة الشرق أوسطية على أنها نموذج مصغر للدولة. وإن كانت مشكلة المرأة متفاقمة بقدر مشكلة الدولة – على الأقل – في مجتمعنا الشرق أوسطي الراهن، فالسبب في ذلك يكمن في تاريخ عبوديتها الطويل والمعقد بقدر تاريخ الدولة. لذا، وبدون وضع البنان على مثلث برمودا "المرأة – الأسرة – الرجل" في الخريطة، لن تنجو سفينة أي حل اجتماعي مارٍّ بجانبه من الغوص في أغواره. إذاً، فالأسرة (كدولة مصغرة) في الشرق الأوسط هي مثلث برموذا السابح في المحيط الاجتماعي. ولدى تصاعد الدولة والهرمية، محال ألا تتركا آثارهما على مؤسسة الأسرة بشكل مطلق. وأي هرمية أو دولة لا تعكس صداها على الأسرة، لن تعزز من فرص حياتها، ولن تؤمِّن سيرورتها. يتم تلمس هذه الثنائية الجدلية وتناولها بعناية فائقة، ودون أي إهمال، داخل الحضارة الشرق أوسطية.

من المهم بمكان وضع مشروع تخطيطي يتناول تاريخ عبودية المرأة وتحليلها من الناحية السوسيولوجية – ولو بشكل محدود – باعتبارها الجنس والنَّسَب والطبقة الأقدم في تعرضها للأَسْر والاستعباد؛ وإلا فمن الصعب تفهم الأسرة والرجل، وبالتالي الدولة والمجتمع من الجوانب الأخرى. وسيتضمن فهمنا لها عندئذ نواقص حقيقية لا تُغتَفَر.

لن أكرر تعريف المرأة، كوني سعيتُ لصياغته في الفصل السابق. مع ذلك يجب، وبكل تأكيد، ألا نهمل أو نغفل عن وصف التقييمات التي تنظر إلى المرأة كجنس بيولوجي ناقص وقاصر أثناء ولوجها في المجتمعية، بأنها توجهات أيديولوجية. بل وهي من

تصوير وتخطيط وبُدَع الذهنية الذكورية المهيمنة. والعكس صحيح، أي يجب ألا نغض الطرف عن الحقيقة التي برهن عليها العلم في كون المرأة كياناً اجتماعياً وبيولوجياً أكثر كفاءة وقدرة.

منطقة الشرق الأوسط هي مركز ثقافة الأم الأهلية. تشيد المعطيات التي بحوزتنا بأن هذه الثقافة تشهد حالة من التطور المتواصل منذ أعوام 1500ق.م. فوجود النباتات والحيوانات على الحواف الداخلية لسلسلة جبال طوروس وزاغروس، قد زَوَّدها بالإمكانيات الأولية اللازمة من أجل التأهيل. ولعب المناخ والبنية الأرضية الملائمين لزراعة الحبوب وتربية المواشي دوراً رئيسياً في ذلك.

لا يمكن أن تتحقق احتياجات المرأة اللازمة لإنجاب الأطفال وتنشئتهم ورعايتهم بسهولة، إلا في الظروف الاستيطانية المستقرة. ولدى التحام هذه الاحتياجات مع الظروف المناخية المناسبة ووجود الحيوانات والمواشي؛ تولَّدت الشروط الأولية للتأهيل والاستئناس. وفن جمع الثمار والعديد من الفواكه والأعشاب، يلبي الاحتياجات اللازمة من أجل القوت. بالإضافة إلى أن تدجين الماعز والمواشي البرية زاد من وفرة المحاصيل لتلبية الاحتياج اللازم من الصوف والحليب. ومع التجربة، شوهد أن زراعة النباتات والأشجار المفيدة والمثمرة في الحقول يزيد من وفرة الإنتاج أضعافاً مضاعفة. وعوضاً عن قتل الحيوانات مباشرة، سيكون من الناجع أكثر تدجينها ورعايتها والإفادة من حليبها وصوفها، وقتل الجوع بها في أوقات العَوَز والفاقة. كانت المرأة الأم صاحبة خبرة واسعة في كلا المسألتين لتطوير النظام الأهلي من حولها مع أطفالها الذين ترعاهم وتربيهم. قد يكون الخروج من المغاور والكهوف من أجل زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات في الأماكن المناسبة، وبناء البيوت؛ أمراً بسيطاً آنذاك. ولكنه سيلعب فيما بعد دوراً تاريخياً عملاقاً، مثلما لعبه الصعود إلى القمر في أيامنا.

لن يكون من الصعب تحوُّل الأكواخ الصغيرة إلى قرية. يمكننا العثور على بقايا الآثار القوية لهذه الثقافة المستمرة حتى أعوام 11000ق.م، في العديد من مناطق كردستان اليوم، مثل "أرغاني جايونو" في ديار بكر، و"جمه خالان" في باطمان، و"نوالا جوليه" و"كوبه كلي تبه" في أورفا، ومنطقة برادوست، و"ماغ" في هكاري. لم يُعثَر بعد على مواطن استيطانية أقدم من هذه في أي بقعة أخرى من العالم. تأتي في مقدمة البراهين المؤكدة على كثافة ثقافة المرأة الأهلية في هذه المناطق، كون التماثيل المنحوتة هي تماثيل نساء. كما أن البادئات الأنثوية في البنية اللغوية لتلك المناطق أيضاً مثال يُحتَذى به. هذا وكون المرأة ماهرة في نفس المجال من تلك الثقافة، يؤكد صحة هذه الحقيقة.

تشير المصادر السومرية أيضاً إلى مدى نفوذ تأثير هذه الثقافة لدى تأسيس المدن الأولى، وإلى استمرار وجودها بشكل وطيد. والحِبكة الميثولوجية المحبوكة حول الإلهة إينانا (إلهة أوروك) تلقننا دروساً كبرى. نخص بالذكر هنا مقاومتها العنيدة تجاه تصاعد الهيمنة الرجولية، بحيث تضاهي في حِدّة مقاومتها الحركات الفامينية الأكثر وثوقاً بنفسها في راهننا. فإينانا هنا تدافع عن معتقداتها بأن المرأة صاحبة الحضارة، وتتحدى بكل قوتها الإله أنكي (العنصر الممثل لنظام السلطة الأبوية المتصاعدة لدى السومريين). وتسرد

إينانا بلغة شعرية بارعة كيف أنها تملك الـ"ما"ءات المائة والأربع (وهي الاكتشافات والمخترعات والمصطلحات الحضارية لتلك الحقبة)، وأن أنكي سرقها منها بالحيلة والمكر، وأنه عليه ردها إليها. يشير هذا السرد الميثولوجي الممتد حتى أعوام 3000ق.م، بشكل ملفت للنظر، إلى دور المرأة فيما بعد الحضارة السومرية. هذا وتعود إينانا في جذورها إلى نينهورساغ، إلهة الجبل القديمة. وكلمة "نينهورساغ" من ناحية علم الصرف والاشتقاق تكون كما يلي: "نين = Nin = إلهة"، "هور = hur = kur = الجبل"، و"ساغ = sag = منطقة". أي أن كلمة نينهورساغ تعني "إلهة منطقة الجبل". وبما أنَّ سلسلة جبال زاغروس وحوافها تأتي على البال بمجرد لفظ كلمة "الجبل" في منطقة ميزوبوتاميا السفلى، فهذا يشير إلى أن ثقافة الإلهة الأنثى قد نزلت من المنطقة الجبلية نحو السهول المنخفضة.

لا تزال ثقافة المرأة الأم مؤثرة كمركز حضاري في الفترة المتراوحة ما بين 4000 – 2000ق.م لدى السومريين. وتتمتع بثقل يوازي ثقل الرجل. وقد انعكس ثقلها هذا على جميع الوثائق الميثولوجية المتعلقة بتلك الحقبة. فمعابد الإلهات الإناث منتشرة في كل مكان. ولم تتطور بعد قوة التوبيخ والتعييب المحيطة بالمرأة. بل وتُسرَد ممارسة الجنس بشكل خاص كعملية مقدسة. دعك من التوبيخ والتعييب، بل ثمة سرد أدبي لا يمكن مصادفته حتى في أروع القصص الجنسية والشَّبَقيّة. كل تصرف أو عملية معنية بممارسة الجنس، تجد معناها كجماليات الحياة وقيمها الثمينة. وجنسية المرأة تلقى جاذبية عظمى وتبجيلاً خارقاً. لم يكن آنذاك ثمة أي تلويم أو تعييب خاص بالمرأة على نحو طراز الحياة التي شكلت الثورة المضادة الكبرى لها فيما بعد. كان جسد المرأة موضع مدح وتقدير على الدوام. ومراسيم الزواج المقدس الحالية تعود إلى تلك الحقبة، وإنْ كانت أصبحت بشكل محرَّف ومشوَّه (عملية تقبيح الرجل لها). تصوِّر العديد من النقاط المعنية بالشكل والمضمون في ملاحم "ممه آلان" و"مم وزين" و"درويش عبدي" – التي لا تزال تُذكَر اليوم في كردستان – المنزلة الرفيعة والمرموقة للمرأة. وبالإمكان القول أنه يمكن العودة بأصل هذه الملاحم إلى فترة أعوام 4000ق.م.

تصوّر إينانا في حِبكتها الميثولوجية الرجلَ الراعي والرجلَ المزارع كمساعدَين لها. فالراعي "دوموزي" (هذا الاصطلاح هو الأصل الأول لكل ظواهر تصاعد الرجل) والمزارع "أنكومدي" يتبارزان على الإعراب عن ارتباطهما وتقديرهما لإينانا. ولم يبقَ عمل إلا وهرعا إليه كي يكونا مساعدَين أوليَّين لها. وإينانا لا تزال تتمتع بالريادة البارزة، في حين أن الرجل – مزارعاً كان أم راعياً – لا يزال بعيداً عن الهيمنة. نرى أن الوضع ينقلب رأساً على عقب في الملحمة الشهيرة الأخرى للسومريين، ألا وهي الملحمة البابلية "أنوما أليش". فثنائية الإله "ماردوخ"، ممثل الرجل المكتسب للقوة الخارقة، والإلهة "تيامات"، ممثلة الأم الخائرة القوى؛ تلقننا دروساً كبرى. حيث ثمة ثقافة تعييب وتعتيم مروِّعة بحق المرأة الأم والإلهة الأم. وتُقحَم القوالب الأيديولوجية في مصاعب حقيقية بهدف إبراز المرأة ككيان عديم الفضائل، عديم الفائدة، كثير الضرر ومخيف.

نرى أن هذه الثقافة تبدأ بالانتشار اعتباراً من أعوام 2000ق.م. حيث ثمة تغير ملحوظ على حساب المرأة في المكانة الاجتماعية. ويمتلك مجتمع السلطة الأبوية القوة التي تؤهله لتحويل هيمنته ونفوذه إلى ملاحم بطولية. كل شيء معني بالرجل يُعلى من شأنه، ويُنعَت بالبطولة والبسالة؛ في حين أن كل ما يَمُتُّ للمرأة بِصِلة يُحَط من شأنه ويُعاب ويُجرَّد من قيمته.

هكذا حصل انكسار جنسي من النوع الذي ربما سيمهد الطريق لأكبر التغييرات في حياة المجتمع على مر التاريخ. يمكننا تسمية هذا التغيير الأول المعني بالمرأة والجاري في الثقافة الشرق أوسطية بـ"ثورة الانكسار الجنسي المضادة الكبرى الأولى". إننا نقول بأنها ثورة مضادة. بالتالي، فهي لا تساهم في حصول التغييرات الإيجابية في المجتمع. بل، وعلى النقيض، إنها تجلب النفوذ والهيمنة المجحفة للسلطة الأبوية على المجتمع، وتُخرِج المرأة من دائرة المجتمع وتُهَمِّشها؛ لتمهد السبيل بالتالي لسيادة حياة مجدبة وقاحلة. إنها تقود إلى المجتمع الرجولي الأحادي الصوت، بدلاً من المجتمع الثنائي الصوت. ولربما كان هذا الانكسار الحاصل في الحضارة الشرق أوسطية، الخطوة الأولى للسقوط والتهاوي. فنتائجه تزداد دِكنة وجلكة مع تقدم المراحل. لقد تم العبور إلى ثقافة المجتمع الذكوري المفرط الأحادي البُعد. وبينما يضيع ويخبو ذكاء المرأة العاطفي، صانع المعجزات والحيوي والإنساني إلى أبعد حدوده؛ يتولد الذكاء التحليلي اللعين (أصحابه يصفونه بعكس ذلك) لثقافة ظالمة مستسلمة للدوغمائية، منقطعة عن الطبيعة، تَعتَبِر الحرب فضيلة نبلى، وتتلذذ من سفك دماء البشر حتى الركب، وترى في ذاتها الحق بمعاملة المرأة والرجل المستعبَدين كيفما تشاء وتهوى. وهذا الذكاء (أو نوع التفكير) يتميز ببنية مناقضة كلياً لذكاء المرأة العادل والمتمحور حول الطبيعة الحية والإنتاج الإنساني.

يُلاحَظ بروز جمود وسبات حقيقي في الخلاقية والإبداع، بعد تصاعد البنية الذكورية المهيمنة في المجتمع. فبينما حصلت الآلاف من الاكتشافات والاختراعات في الحقبة ما بين 6000 – 4000ق.م (عهد المرأة الأم)، لوحظ أنه ثمة عدد ضئيل جداً من الاكتشافات المأخوذة على محمل الجد بعد أعوام 2000ق.م. إلى جانب ذلك فقد شهدت هذه الحقبة بروز ثقافة السلطة القتالية ببنيتها التي عمت الأرجاء، واعتَبَرت الفتوحات أسمى مهنة (مهنة الملوك)، وهدفت فيها الدول أساساً إلى الفتح. باختصار، تزامَنَ وتشابَكَ تهميش المرأة مع إيلاء القيمة الكبرى للسلطات ذات البنية الرجولية القتالية والفاتحة. وبينما تُكتَسَب مؤسسة الدولة كبُدعة من بُدع الرجل بكل معنى الكلمة، غدت الحروب الهادفة إلى النهب والسلب وجمع الغنائم، ضرباً من ضروب الإنتاج. وحَلَّ النفوذ الاجتماعي للرجل، والمعتمد على الحروب والغنائم، محل نفوذ المرأة الاجتماعي المستند إلى الإنتاج. ثمة أواصر كثيبة بين أسْر المرأة وبروز ثقافة المجتمع القتالي (المحارب). لكن الحرب لا تنتج، بل تستولي وتنهب وتسلب.

غالباً ما يكون دور العنف سلبياً ومدمِّراً، فيما عدا بعض الظروف الخاصة التي يكون فيها محدِّداً لوجهة التطورات الاجتماعية، مثل شق الطريق إلى الحرية، والتصدي للاحتلال أو الغزو أو الاستعمار. تتغذى ثقافة العنف المهضومة في المجتمع على

الحروب. و"سيف" الحرب المسلَّط بين الدول، هو تمثال الهيمنة والنفوذ في "قبضة" الرجل، يسلِّطه داخل العائلة. يتواجد المجتمعان الفوقي والتحتي في مكبس "السيف وقبضة اليد". حيث يُغدِق المديح الدائم لثقافة الهيمنة والتسلط. وتَعتَبِر أشهر الشخصيات أن مَدحها بسفكها الباطل للدماء، وافتخارها بذلك؛ هو أسمى فضيلة لديها. نخص بالذكر هنا الملوك البابليين والآشوريين الذين يَعتَبرون جمع جثث البشر كمحصول لهم، وبناءهم القلاع والأسوار بها؛ مدعاة للفخر الأعظم والشرف الأكبر. وظاهرتا ثقافة العنف الاجتماعية وإرهاب الدولة، اللتان لا تزالان متفشيتان في يومنا الحالي، تستمدان منبعهما من هذه الثقافة.

تقطع "ثورة الانكسار الجنسي المضادة الكبرى الثانية" أشواطاً ملحوظة حول المرأة في عهد الأديان التوحيدية. وفي هذه المرة، تغدو الثقافة البارزة في الانكسار الحاصل في العهد الميثولوجي قانوناً إلهياً. وتُرجَع الممارسات المطبقة بحق المرأة إلى كونها أمر إلهي مقدس. فمحور العلاقة الكامنة بين سيدنا إبراهيم وزوجتيه سارة وهاجر، يشيد بالمصادقة على تفوق الرجل. أي أن السلطة الأبوية مترسخة تماماً. كما وتشكلت حينها مؤسسة الجواري، ويُصادَق على تعدد الزوجات بأعداد كبيرة. أما العلاقة القاسية بين سيدنا موسى وأخته ماريام، فتفيد بأن المرأة لم يعد لها نصيب من الميراث. أي أن مجتمع سيدنا موسى مجتمع ذكوري بكل معنى الكلمة. حيث لا تُناط النساء بأية مهمة أو وظيفة. هذا هو السبب الأصلي للصراع مع ماريام. ومقولة "على المرأة ألا تحشر نفسها في أمور الرجل، ويدها ملوثة بالعجين" تعود إلى هذه الحقبة.

نلاحظ العبور إلى ثقافة الحَرَم النسائي مع عهد داوود وسليمان في المَلكية العبرية المتصاعدة في أواخر أعوام 1000ق.م وما قبلها. وكانت النساء تُهدى آنذاك. إنها بداية مرحلة جديدة تُكبَت فيها أنفاس المرأة أكثر. إذ لا فرق على الإطلاق بين التصرف بالمرأة أو بأي مُلك آخر. ستجد هذه الحالة المعاشة في الدولة الدينية الجديدة انعكاساتها على الأسرة أيضاً. بات من المحال الحديث عن أي دور للمرأة القابعة تحت الهيمنة الثنائية لثقافة السلطة الأبوية من جهة، وثقافة الدولة الدينية من الجهة الثانية. المرأة المثلى هي الأكثر تأقلماً مع رَجُلها، ومع نظام السلطة الأبوية. لقد أصبح الدين أداة للتعتيم على المرأة وتسويدها. فهي (حواء) المرأة الأولى المذنبة، التي سلبت عقل آدم وتسببت في طرده من الجنة. و"ليليت" التي لم تخنع لإله آدم (رمز نظام السلطة الأبوية)، تعمل بأقوال الشيطان (رمز الإنسان الذي لم يسجد لآدم ورفض تَعَبُّده)، وهي صديقة له. أي إنه أُخِذ بالتعتيم الميثولوجي كقدوة، وحُوِّل إلى تعتيم ديني. بل واحتل الزعم الذي كان سائداً في أيام السومريين، والقائل بخلق المرأة من ضلع الرجل؛ مكانه في الكتاب المقدس أيضاً. هذا ولا يوجد نبي واحد "أنثى" من بين ما يقارب الآلاف من الأنبياء الذكور. كما يُنظَر إلى جنسية المرأة كأكبر حرام، لتُعاب وتُعتَّم باستمرار. بل واحتُقِرت، حتى غدا ذلك مبدأ تقليدياً وعرفياً. هكذا غدت المرأة ذات المنزلة المرموقة في المجتمعات السومرية والمصرية، مادةَ معابة وحرام وسالبة للعقول.

ينتصب رمز مريم أمامنا لدى وصولنا إلى عهد سيدنا عيسى، بحيث لا تكون لها أية علاقة بالألوهية، رغم أنها أم "ابن الإله". أي أن عنوان الإلهة الأنثى للإلهة الأم قد ترك محله للأم الصامتة الدامعة العينين. هكذا يستمر السقوط والتهاوي. فالحَمل بنفخ الإله فيها (الرجل المهيمن على المرأة) مصطلح مشحون بالتناقضات. يعبّر ثالوث "الأب – الابن – الروح القدس" في المسيحية، في حقيقته عن تركيبة جديدة من الأديان المتعددة الآلهة والدين التوحيدي. تشهد هذه المرحلة صراعات ضارية ومتوالية بين الألوهية التوحيدية كعقيدة عِبرية صلبة ومتحجرة من جهة، وبين العقيدتين الغنوسطية (مذهب العرفان والاعتراف بالإله) والوثنية – اللتين كانتا شديدتا الانتشار، ولهما علاقات وطيدة مع المسيحية في تلك الأثناء – من الجهة الأخرى. المحصلة كانت أن انتهى وفاق هذه الاتجاهات الثلاثة بتشكيل دين ثلاثي الآلهة (يُلاحَظ انخفاض بارز في عدد الآلهة. حيث كان ثمة مثل هذه الثلاثية في عهد سيدنا محمد أيضاً). الغريب في الأمر هو أنه، وبينما كان من الواجب أن تكون مريم أيضاً إلهة بأقل تقدير، نُظِر إليها كآلة تنفخ فيها الروح القدس. تشير هذه الظاهرة إلى "تذكير" الألوهية بكل ما للكلمة من معنى. في حين كانت الآلهة والإلهات الإناث متكافئة تقريباً في عهد السومريين والمصريين. بل وحتى في العهد البابلي، كان لا يزال صوت الإلهة الأم جهوراً.

ما وقع على كاهل المرأة مع سيدنا عيسى ومريم، هو أنْ تكون تلك المرأة والأم الدامعة العينين، الهادئة والصامتة. وهي لا يمكن أن تتحدث عن الألوهية عبثاً في أي وقت من الأوقات. بل ستعتني أشد الاعتناء بأطفالها الذكور (أولاد الإله) ذوي القيمة الخاصة في بيتها. إذ ما من دور مُناط بها، سوى أن تكون امرأة منعكفة في منزلها. أما الساحة العامة، فهي موصَدة تماماً في وجهها. أما ممارسة القدّيسات (العزيزات، النساء العذراوات) في المسيحية، فهي حالة المرأة المنزوية على نفسها للتخلص من ذنوبها الكبرى. لكن، بالإمكان القول أنها أسفرت عن تطور إيجابي لديها، وإنْ ضمن حدود ضيقة. فالقديسات تعني – على الأقل – الخلاص من المصطلحات والتعييبات والتوبيخات الجنسية. ودوافع تفضيلها إياها على الحياة المستعرة في البيت، قوية مادياً ومعنوياً. ما من شك في أنها ممارسة عملية تاريخية. بل ويمكن نعتها بأنها ضرب من ضروب أول حزب للنساء الفقيرات. بل وتعبّر عن إحياء ثقافة معابد الإلهات الإناث، داخل ثقافة دير الراهبات، وإنْ بشكل باهت.

لممارسة القديسات مكانة مهمة في تاريخ الحضارة الأوروبية. فقد استَلهم الزواج من زوجة واحدة فقط (الزواج الثنائي) فكرته من ممارسة القديسات بنسبة كبرى. ورغم عيش المرأة فيها ضمن شروط شديدة القساوة، فقد ساهمت بعذريتها الجنسية في إعلاء شأن المرأة، وإنْ كانت تَعتبِر جنسيتها مصدر أخطار ومهالك. أما الجانب السلبي لهذه الممارسة، فهو تقييم المرأة كسلعة جنسية، كَرَدّة فعل متطورة تجاه الزواج الكاثوليكي في الحضارة الأوروبية (حيث الطلاق محظور). بالطبع، فقد برز هذا بفضل الرأسمالية المتنامية.

أما المرتبة الجديدة التي اكتسبتها المرأة مع سيدنا محمد والدين الإسلامي، فتتخذ الثقافة العبرية أساساً لها في مضمونها، رغم تحليها بنسبة معينة من الإيجابيات، نسبةً إلى عامل نظام السلطة الأبوية المترسخ في ثقافة القبائل الصحراوية. فموقع المرأة هذا، والمتخذ شكله تماماً، هو لدى سيدنا محمد مثلما كان عليه لدى داوود وسليمان. إلى جانب ذلك، لا يزال تعدد الزوجات لأغراض سياسية، وحياة الجواري المتزاحمة، أمراً مشروعاً. فرغم تحديد الزواج بأربع نساء، إلا إنه لا يغير من المضمون شيئاً. حيث ينظر المفهوم القائل: "المرأة حقلكم، فاحرثوه كما شئتم"، إلى المرأة المُلك كمعطاة هِبة، لا غير.

مفهوم سيدنا محمد في العشق أيضاً غريب الأطوار. إذ يشير هيامه بعائشة رضي الله عنها، التي تبلغ التاسعة من العمر – رغم أنه في عقده الخامس – إلى رفعة اهتمامه بالمرأة. كما ينمّ مدحه الدائم لزوجته الأولى خديجة، عن القيمة التي يوليها إياها. إنه حساس ويقظ عموماً إزاء المرأة. إلا أن تركه مؤسسة الحَرَم النسائي والجواري وشأنها، وعدم مسه إياها، سيُستخدَم بأسوأ الأشكال من بعده، داخل شرائح الدولة.

عندما تدخلت السيدة عائشة في أمور السلطة والصراع عليها مع الخلفاء الراشدين، بعد وفاة سيدنا محمد، خسرت المعركة. وأدركت بألم شديد قيمة المرأة ومنزلتها، فتذمرت قائلة: "يا رب، ليتك صنعتني قطعة حجر، على أن تخلقني امرأة!". لقد حُدِّد حظر السلطة على المرأة منذ أيام العلاقة القائمة بين موسى وماريام. لم تحصل أية تطورات إيجابية في موقع المرأة داخل الشرق الأوسط في العصور الوسطى الإقطاعية. فالقوالب التاريخية لا تزال دارجة. وحتى في علاقة العشق المرموز إليها في العلاقة بين ليلى ومجنون، ليس هناك نتيجة تنمّ عن الخير والبشرى. أي، لا مكان للعشق في الإقطاعية.

شهدت المرأة أكثر مراحلها تجرداً من الشخصية داخل الأسرة القابعة تحت وطأة السباق القائم بين الدولة ونظام السلطة الأبوية. إنها أسيرة مطلقة لنزوات وشهوات أصحاب السلطة. وهي آلة مكمِّلة لتعزيز سلطاتهم. لقد تجردت من المجتمع عموماً. هكذا باتت امرأة المدينة تتخبط في أغوار العبودية الغائرة. في حين أن المرأة ضمن الجماعات التي تعيش في شروط البداوة والترحال، والحاملة بين طياتها الآثار المتبقية لديها من النظام المشاعي البدائي؛ لا تزال تلقى الاحترام والتقدير.

وبالتدريج يصعب تعريف مكانة المرأة تحت وطأة نظام التسلط والمُلكية. فالمرأة في راهننا تعيش حالة أنقاض وأطلال، كمعطاة من معطيات ممارسةٍ دامت آلاف السنين. فحتى التأثير المُغوي والمفسِد للنظام الرأسمالي، بعيد كل البعد عن الانعكاس والظهور على حقيقته. إنها – المرأة – العضو الأصلي القابع في نواة التخلف السائد في المجتمع الشرق أوسطي. والرجل الشرق أوسطي الفاشل في كل الميادين، يفجر سخطه بفشله هذا على رأس المرأة. فبقدر تعرضه للإهانة والازدراء في الخارج، يُفرغ جام غضبه على المرأة، سواء بوعي أو بشكل تلقائي. والرجل المغتاظ والمشحون بالنقمة لعجزه عن حماية مجتمعه، وعن إيجاد منفذ له؛ يصب جام حنقته على المرأة والأطفال كالمجنون داخل الأسرة، ويفرّغ عنفه الصارم عليهم. وما ظاهرة "جنايات الشرف" في حقيقتها سوى

عملية يقوم بها الرجل الذي يطأ شرفه وكرامته في كافة الميادين الاجتماعية، فيُفرِغ نقمته، وبشكل معكوس، على رأس المرأة. وهو يعتقد بذلك أنه حل قضية الشرف بتظاهر بسيط ورمزي، ولكنْ باهتٍ وفانٍ. إنه يطبق نوعاً من العلاج النفسي*. ما يتوارى تحت المعضلة أصلاً هو تاريخٌ وقضيةٌ اجتماعية مفقودان. من أهم المشاكل التي تواجهنا هي إفهام هذا "الرجل" وإقناعه باستحالة خلاصه من تلطخ شرفه، ما لم يواجه تلك القضية التاريخية الاجتماعية، وما لم يقم بواجباته تجاهها. يجب، وبكل تأكيد، تعليمه أن الشرف الحقيقي لا يمر من عذرية عضو المرأة الجنسي، بل من تأمين العذرية التاريخية والاجتماعية؛ وأن نحثه على تطبيق هذا المبدأ.

إني على قناعة تامة بأنه، وعبر هذا السرد التاريخي الموجز، ظهر لدينا بشكل أوضح، أن المشاكل المعاشة في الأسرة الشرق أوسطية في راهننا، لها من الأهمية ما للمشاكل المعاشة في الدولة منها. فالكبت والقمع والمشاكل التنائية الاتجاه، تزداد في حدّتها فيها. أما انعكاسات مجتمع الدولة ونظام السلطة الأبوية عليها على مر التاريخ من جهة، وانعكاسات القوالب الحديثة للحضارة الغربية عليها من الجهة الثانية؛ فلا تشكل تركيبة جديدة، بل تخلق معها عقدة كأداء. فالانسداد المخلوق في الدولة يزداد تعقيداً داخل الأسرة. ويُقحِم عجزُ الشبان اليافعين عن إيجاد عمل لهم، الأسرةَ في شلل حقيقي. باتت الأسرةُ المضبوطة حسب الدولة والاقتصاد، عالقةً في درب مسدود لا يمكن السير فيه، عبر هاتين الرابطتين القديمتين. فلا طراز العائلة الغربية متوطد، ولا طراز العائلة الشرقية. هكذا يتحقق التآكل والنخر في جسد الأسرة ضمن هذه الشروط.

يتأتى حفاظ الأسرة على قوَّتها قياساً بالأواصر الاجتماعية المنهارة والمتفككة بسرعة أكبر، من كونها المأوى الاجتماعي الوحيد. علينا بالتأكيد ألا نستخف بالعائلة أو نستصغرها. والانتقادات التي طرحناها لا تستوجب رفض العائلة أو دحضها جذرياً، بل تطرح ضرورة إكسابها معناها وإعادة بنائها.

من المهم طرح مشكلة الرجل أيضاً، والتي هي أكثر وطأة من مشكلة المرأة. فتحليل مصطلح الهيمنة والسلطة في الرجل، لا يقل أهمية عن تحليل عبودية المرأة. بل وقد يكون أكثر صعوبة. فالذي لا ينحاز إلى التحول بالأغلب هو الرجل، لا المرأة. ولو تركنا رمز الرجل المهيمن وشأنه، سيشعر بذاته كالحاكم المفتقد لدولته، فيتخبط في عواطف الفشل والهزيمة. في الحقيقة، علينا أن نُظهِر له بأن هذا الشكل الأجوف للهيمنة والتسلط هو الذي أفقده حريته، وجعله متزمتاً بشكل كلي.

إن القول بتناول مشكلة الدولة أولاً، ومن ثم مشكلة الأسرة؛ هو موقف خاطئ. يجب دراسة هاتين الظاهرتين المرتبطتين ببعضهما بروابط جدلية، ومعالجتهما بشكل متداخل معاً. والنتائج التي أسفر عنها الاعتقاد السائد في الاشتراكية المشيدة بحل مشكلة الدولة أولاً ومن ثم معالجة المجتمع، إنما هي ظاهرة للعيان. لا يمكن حل المشاكل الاجتماعية بإيلاء الأهمية لواحدة منها دون الأخريات. بل إن الأسلوب الأصح والأسلم هو النظر إلى المشاكل الاجتماعية ككل متكامل، وإيلاء المعاني لكل واحدة منها ضمن روابطها مع الأخريات، واتباع الأسلوب عينه لدى العمل على حلها. فبقدر ما يبرز النقص

لدى تحليل الدولة دون تحليل الذهنية، أو تحليل الأسرة دون الدولة، أو تحليل الرجل دون المرأة؛ فسيبرز النقصان عينه لدى الهرع نحو الحل دون القيام بخلاف ذلك.

4 الاثنية,الامة, الوطن, الطبقة, الملكية, الاقتصاد , الديكتاتورية و الشدة.

. فظواهر الإثنية، الأمَّة، الوطن، العنف، الطبقة، المُلكية، والاقتصاد وغيرها؛ لا تزال بعيدة عن التعريف على الصعيد الاصطلاحي. فاصطلاح الظواهر بمستواها التعريفي لا يزال غير منقى من شوائب الدروع الأيديولوجية الشوفينية. ولم تُطرَح بعد القيمة العلمية الحقيقية لهذه الظواهر في الثقافة الشرق أوسطية. حيث يُنظَر إليها بمنظار الأيديولوجية الدينية، أو بمنظار القومية الشوفينية؛ ليسفر ذلك عن نتائج مشحونة بالعقم والانسداد، حسبما يُرتأى لها. ولا تُطرَح في الميدان بعض التساؤلات، من قبيل: ما هي قيمة ومكانة وثقل ظواهر الإثنية، الأمة، الوطن، العنف، المُلكية والاقتصاد؟ عَمَّ تعبّر العلاقة فيما بينها؟ بل ويُجعَل من الحقيقة ضحية للإرشادات الأيديولوجية السائدة. أما السياسة، فتقترب منها بتهكم وتهجم أناني عبر إرشادات أشد سوءاً. ولا تُولى أية فرصة لإبداء المواقف العقلانية المنطقية، أو العادلة الديمقراطية. وكأنه ثمة إحساس سائد يفيد بأن تنوير الظواهر بسلوكيات علمية خارج النطاق الأيديولوجي والسياسي، سيُفسِد كل الألاعيب المحاكة. وإبقاء الحقائق متوارية في الظلمات الداكنة في منطقة الشرق الأوسط، هو وظيفة هامة أُنيطت بها السياسة والمجال التعليمي. وبدون النجاح فيها، يستحيل القيام بإجراءات فن السلطة. يمر إبطال السحر من الشفافية والنقاوة.

. لا تزال الإثنية واقعاً يحافظ على وزنه في الشرق الأوسط، وإنْ ليس بالقدر الذي كانت عليه قديماً. وهي أكثر توطداً في المناطق الجبلية والريفية، في حين أنها تركت محلها في المدن للطرائق الدينية والجماعات المشابهة. وبما أن المواطَنة والديمقراطية لم تترسخا بشكل كامل، فلكلٍ إثنيته وجماعته التي ينتمي إليها. والدول أيضاً تراقب الأشكال الأخرى للوجود الإثني، بقَدر مراقبتها للأسرة. ذلك أنه من الصعب الفلاح في السياسة، دون أخذ قوة العشائر الموجودة بعين الحسبان. ويزداد التعقيد الاجتماعي أكثر لكونها لم تنصهر تماماً في بوتقة التمايز الطبقي ولا النزعات القومية. لكن هذا مهم من ناحية حملها لثقافة النَّسَب كعضو مقاوِم تاريخياً. إن الرفض الجاف والمحض لها، ليس بموقف واقعي ولا ناجع. بل من المهم تناول الأواصر الإثنية ودراستها بعناية، وتحليلها بصحة؛ بغرض الفصل بين الإثنية وبين الميول المنزلقة في القومية المصغرة والسياسة الضيقة كساحة أساسية. فبقدر ما يؤدي الاتجاه الأول إلى نتائج صائبة، قد ينمُّ الثاني عن قدر مماثل من النتائج الخاطئة والوخيمة.

يشكل مصطلحَا "الأمة" و"القومية" مشكلة قائمة في المجتمع الشرق أوسطي، أكثر مما يشكلان الحل. لقد ابتُكِر مصطلح "الأمة" ومن ثم "القومية"، وبُذِلت المساعي لتحليلهما في فترة المَرْكَنتَلية (الرأسمالية التجارية) كفترة ولادةٍ ونشوء للرأسمالية؛ قبل تحديد احتياجات السوق الوطنية، أو رسم حدود اللغة القديمة. يُعبّر مصطلح "الأمة" عن مفهوم الأمة الجماعة المعتنقة لدين ما بمعناه المحدود بإطار اللغة. وهو في مضمونه مصطلح سياسي أكثر منه سوسيولوجي. حيث يتم التوجه إليه بمآرب سياسية. وهو يلبي

احتياجات المطالبة بتكوين الدولة ضمن حدود أكثر استقراراً وسلامة. لهذا المصطلح أهميته بالنسبة للدول، والتي تنبع من أرضيته السياسية، أكثر مما تنبع من أرضيته الإثنية. فحتى في مفهوم "الأمة النقية" تبرز الحقائق السياسية للعيان بكل وضوح. وبالطبع، تبرز من خلف هذه السياسة أيضاً مشكلة السوق. فالسوق والسياسة هما رَحِم الشعب.

لا يتمتع مصطلح الأمة بالقيمة التي تتمتع بها الإثنية من الناحية السوسيولوجية. فالإثنية هي إحدى الظواهر السوسيولوجية الوطيدة. والإثنية كقوم تشبه الأمة. و"القوم" يختلف في مضمونه عن الأمة، حيث يعتمد على خلفية لم تتطور فيها بعد قيم السوق والسياسة. وفي منطقة الشرق الأوسط يتم الالتفاف حول القومية أكثر منها حول الأمة. والقومية – أو القوموية – تحل محل العلاقات الدينية المتراخية والواهنة. وهي ضرب من الدين الدنيوي. كما أنها آلة أولية لمشروعية الدولة. إذ من الصعب تسيير شؤون الدولة دون الارتكاز إلى الدين والقوموية. فالدين بالأصل هو جينة الدولة. والقوموية هي شكلها الحديث.

لا يتحلى مصطلح الأمة والقومية بأية قيمة للحل الاجتماعي في راهننا. بل، وخلافاً لذلك، فهو يُصَعِّب الحلول ويعقدها بمواراته إياها تحت غطاء الأمة والقوموية. من المهم تعريف هذه الظاهرة والمصطلحات – التي لا يمتد ماضيها حتى قرن واحد فقط – ضمن واقعها هي. قد تفضي السلوكيات والمواقف السياسية والأيديولوجية المستندة إلى القومية أو الأمة بشكل بحت، إلى العديد من الأخطاء. فالأدوار التي لعبتها القوميات البالغة إلى المرتبة الشوفينية، واضحة للعيان في الحروب المندلعة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا ومنشور أمام العيان النتائج التي تقود إليها كافة القوميات عموماً في الشرق الأوسط، والقوموية العربية – الإسرائيلية على وجه التخصيص؛ وما تتسبب فيه من عقم وعمليات دموية وآلام جسيمة، بسبب استثمارها في مآرب سياسية. من المهم بمكان عدم اللجوء إطلاقاً إلى القوموية في السياسة والأنشطة الأيديولوجية، واستخدام ظاهرة "الأمة" كمادة أو عنصر أولي في حال مساهمتها في الحلول الاجتماعية، لا غير. وإلا، ففي حالة العكس، لن ينمّ الأمر عن نتائج، سوى تجذير الفوضى بسبب الاشتراطات الأيديولوجية (مثلما هي الحال في أوروبا) التي تتميز أصلاً بأرضية متينة في منطقة الشرق الأوسط.

إلى جانب امتداد مصطلح "الوطن" إلى القديم الغابر كمكان للاستيطان والاستقرار، إلا إنه حديث باعتباره الجغرافيا التي تستند إليها الدولة القومية، حيث تعمل بالحدود السياسية أساساً بدلاً من الحدود الإثنية. والفارق الكامن بين الشرق الأوسط وأوروبا، هو أن الحدود التي تستند إليها الدولة، لا الحدود اللغوية، هي التي تحدد التخوم القومية في منطقة الشرق الأوسط. وفي هذه الحالة يغدو الوطن ظاهرة سياسية. فكل دولة تشكل وطناً بمعناه العصري. لا يمكننا صياغة تعريف صحيح للوطن عبر الاتجاهات الأيديولوجية والسياسية. هذا ولا تكفي الحدود اللغوية أيضاً لتشكيل الوطن. لذا، فتقييمنا له كمصطلح ثقافي سيقرّبنا من الحقيقة أكثر. يمكن إطلاق تسمية الوطن على المساحات الجغرافية التي تتجاوز نطاق القومية السياسية وتمتلك تاريخاً أقدم منها بكثير، حيث

استقرت فيها الشعوب القديمة على مر التاريخ الطويل. ومثلما يقال أنه لكل شعب وطن، فثمة أوطان مشتركة للشعوب المتعايشة بشكل متداخل أيضاً.

إذا ما تناولنا الشرق الأوسط ككل متكامل، فإن تقسيمه ضمن حدود على الطراز الأوروبي يخلق معه مصاعب شتى. ذلك أن التكامل والخاصيات متوطدان للغاية. فالروابط الاقتصادية والاجتماعية هي التي تحدد تسمية مكان ما بالاسم اللازم. أما التقسيمات السياسية الإرغامية، فليست وطيدة بقدر القيم المخلوقة عبر التاريخ. أدت الحدود السياسية المرسومة في نهايات الحرب العالمية الأولى، إلى تحريف مصطلح الوطن؛ أو بالأحرى إلى ولادة المشاكل المعنية بالوطن الحقيقي. إن الواقع السياسي المتكامل لمنطقة الشرق الأوسط يشل من واقعية الخريطة السياسية المعروفة اليوم. كما تستلزم ديناميكية السياسة تكامُلَ الساحات الجغرافية على نحو مغاير لما هي عليه. والوضع القائم يتطلب صراعاً دولياً عالمياً، ويؤجج النعرات القومية، كما هي الحال في المشكلة الفلسطينية – الإسرائيلية، أو في مشكلة كردستان العراق.

تقاليد الإمبراطورية الشرق أوسطية أقرب إلى الفيدرالية. فالبنية الإدارية والسياسية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة كانت فيدرالية، منذ أولى الإمبراطوريات وحتى الإمبراطورية العثمانية الأخيرة. إنها فيدرالية مرتكزة إلى المناطق الواسعة الخاصة، وأشبه بحال الولايات المتحدة الأمريكية في راهننا. تنبع المشكلة الاساسية للشرق الأوسط فيما يخص موضوع الوطن، من عدم العودة ثانية إلى الوضعية الفيدرالية التقليدية المألوفة، وإلى التجزئات والتقسيمات غير الواقعية، وغير اللازمة، وغير المجدية، فيما بين العديد من الدول القومية. ومن دون تخطي هذا الوضع، سيكون من الصعب بلوغ مفهوم أكثر واقعية بشأن الوطن والمواطَنة.

تتميز ظاهرة "الطبقة" بمعاني سوسيولوجية أقل مما يُتَصوَّر لها في أنظمة المجتمعات. فالروابط الأكثر تأثيراً في المجتمع هي الروابط الأيديولوجية والسياسية والإثنية، وغيرها من المجموعات والأصناف. في حين أن الحركية ذات الوعي الطبقي تكون محدودة. يكون التمايز الطبقي ضرورة لا بد منها في المجتمعات الهرمية والدولتية. ذلك أنه لا يمكن للهرمية أو الدولة أن تتطور، دون تَشَكل ظاهرة الطبقة. لكن، ومن الجانب الآخر، لا يمكن القضاء على أية بنية للدولة أو الهرمية من قِبَل الطبقة الاجتماعية السفلى التي تشكل دعامة أساسية لها. التمايز الطبقي والتدول ظاهرتان تشترطان وجود بعضهما البعض، ومنوطتان ببعضهما البعض. قد يكون ثمة صراع ضارٍ بينهما. لكن وفاقهما أمر لا مفر منه في منتهى المآل. تُشَكِّل الطبقة الحاكمة على الدولة، والطبقة المحكومة من قِبَلها قريناً (ثنائية) جدلياً. وتكون الدولة هي الواقع القائم والسلوك المتبع فيما بين هذه الثنائية، بحيث لا يمكنها الصمود أو الثبات في حال غياب أحد عنصرَيها. فبغياب الطبقة لا تتشكل الدولة. في حين أن الإصرار على تشكيل الطبقة يعني تماماً الإصرار على الدولة. أما مديح الطبقة المسحوقة، فيتحول في آخر المطاف إلى مديح للدولة المهضومة والمقبولة، بشكل أو بآخر.

إن القول بـ"دولة الطبقةالعمالية" خاطئ كمصطلح. فهذا القول لا يعني سوى "إني أخلق بورجوازيتي بيدي". والتجربة السوفييتية برهان ضارب للنظر في هذا المضمار. أما الشكل الأصح في موضوع الصراع الطبقي، فيتمثل في عدم عيش التمايز الطبقي على الصعيدين الأيديولوجي والعملي. وهذا ما مفاده العيش على شكل "فرد حر" أو "مجموعة إثنية" أو أي ضرب من ضروب الجماعات. حينها لا يتبقى من الدولة سوى جهاز تنسيقي، أو منظومة تسمى "الأمن العام والمصلحة العامة المشتركة"، والتي تحدَّد وفق إرادة المجتمع المشتركة.

يُعاش التمايز الطبقي بأنقى أشكاله وأكثرها أصالة في الحضارة الشرق أوسطية، في عهد نشوء الحضارة السومرية والمصرية. حيث يجد معناه في الميثولوجيا على شكل مخلوقات إلهية، وأخري طينية. إنه تمايز جذري. وقد تحول هذا التمايز في الأديان التوحيدية، ليتخذ شكل "أهالي الأنبياء" (أهل البيت) و"الأمة". في حين يمنح سيدنا موسى صلاحية "الكهانة" للقبيلة الأقرب إليه من بين القبائل العبرية؛ ليباشر بذلك بإبراز تمايز طبقي خاص به. أما سيدنا عيسى، فتتبين منزلته بالبدء بتمرد الفقراء تجاه طبقة الكهنة بالأرجح. وشهدت المسيحية أيضاً تمايزاً طبقياً فيما بعد، بحذوها حذو الإمبراطورية الرومانية. فبينما أسَّست الطبقة العليا للكنيسة دولتها الدينية، تمكنت من تطوير تمايز طبقي خاص في الأسفل بين صفوف الشعب، تحت غطاء ديني.

أما في الديانة الإسلامية، فيُعاش التمايز الطبقي على نحو مختلف. فبينما تتأسس الدولة الإسلامية على يد الخلفاء الراشدين المفتقرين إلى العمق الأيديولوجي، وعلى أرضية تتكون بالأرجح من بقايا الدولتين البيزنطية والساسانية؛ تحولت الأمة، كمجموعة واسعة من المؤمنين، إلى دعامة أساسية لهذه الدولة. و"الأمة" هنا، تعبِّر عن شريحة المجتمع المؤمنة كلياً بالدولة الإسلامية، والمعتادة على الطاعة المطلقة لها. إن غطاء الأمة يدثر وجه التمايز الطبقي الحقيقي، ويجذبه نحو الوفاق.

وهنا تظهر أمامنا الهوية الاجتماعية الديمقراطية للأديان التوحيدية: إنها الوفاق الوطني. يمثل سيدنا عيسى في حقيقته ثورية الطبقة الراديكالية. فـ"الأريوسية" (Ariusçuluk) في الديانة المسيحية، وخاصة في فترة التدول، تمثل المقاومة الطبقية الضارية والعتيدة للفقراء. ويُشاهَد الاتجاه عينه في ظاهرة تمثيل المذهب العلوي للفقراء ولمجموعات الشعب المسحوقة في الديانة الإسلامية، في نفس الوقت الذي يتدول فيه المذهب السنّي. أي أن الطبقات لا تظهر ببناها العارية المكشوفة في منطقة الشرق الأوسط. بل تنتصب أمامنا على الدوام متقمصة أغطية إثنية ودينية ومذهبية. بمعنى آخر، يجب العثور على التمايز الطبقي في أعماق الأغطية الأيديولوجية والإثنية والمذهبية الغائرة. والصراعات الحاصلة إنما تُشِيد بالخصائص نفسها. يتواجد على الدوام مضمون طبقي في كل صراع إثني أو ديني أو مذهبي أو فكري أو ...الخ. يجب وضع هذه الحقيقة نصب العين دائماً لدى القيام بتحليل أي ظاهرة اجتماعية كانت.

لدى تصارع الطبقات في الشرق الأوسط الراهن على الدولة (كما في العراق مثلاً)، يبرز ذلك في العلاقات القائمة بين المذاهب العربية، العلوية الشيعية منها والسنية

من جهة، وبين الإثنية الكردية وجماعات الأقليات الأخرى من الجهة الثانية. أي أن الظاهرة الطبقية تعاش في أغوار البنى الأيديولوجية والدينية والإثنية للدولة وللشعب كرعيّة تابعة، على السواء. لهذا السبب، لا تتسم الأحزاب الطبقية العلنية ذات الطراز الغربي بمعنى حقيقي فيها. لذا، سيكون من الأنجع ألا نهمل مسألة التمايز الطبقي أو نغفل عنها إطلاقاً، ولكن أن نراقب شكلها المرئي الخاص بها بعين واقعية. وبالتالي، أن نعمل على تحليلها دون الوقوع في مفهوم الإسقاط الزائد أو الانزلاق في المفهوم الطبقي الفظ (كالقول بالطبقة العمالية أو القروية مثلاً)؛ وأن نطور الممارسات العملية ونطبقها بموجب ذلك. وإلا، ففي حالة العكس، ستغدو ظاهرة الطبقية آلة أو وسيلة تقبع في أعماق العقم واللاحل، مثلما هو عليه الأمر في يومنا الحاضر.

لم تنجُ الأحزاب الشيوعية الكلاسيكية، والديمقراطية الاجتماعية، والتحررية الوطنية من ملاقاة الفشل والهزيمة، بسبب توجهاتها الطبقية الحديثة الفظة، والتي لها دور بارز في عدم فلاح الأحزاب الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية والقومية الراديكالية، بأي شكل من الأشكال، في كل من إيران، العراق، تركيا، مصر، وسوريا. بل، وخلافاً لذلك، أدت – ورغم مساعيها المهمة – إلى هزيمتها النكراء تجاه التيارات التي عرفت كيف تستخدم الغطاء الديني بمهارة في الصراع على السلطة (كالشيعة، الإخوان المسلمين، حركة حماس، حزب الله، وغيرها).

تتشكل ظاهرة "المُلكية" أيضاً في أغوار عواطف الانتساب الاجتماعي والهوية الاجتماعية، إلى جانب بروزها إلى الوسط في فترة التمايز الطبقي من سياق التطور الاجتماعي. قد يكون من الناجع الفصل بين شكلين من أشكال المُلكية. حيث بالمقدور تعريف المُلكية الجماعية أساساً بأنها إرادة التصرف بأي شيء تستدعيه الضرورة المشتركة من أجل مجموعة منظمة معينة. فكل فرد من الجماعة له نفس الحق في التصرف (الانتفاع من إرادة الاستخدام والاستهلاك) بالشيء المعني. في الحقيقة، لا يمكن القول بأنها مُلكية بكل معنى الكلمة، انطلاقاً من ماهيتها هذه. فالجماعية تعني إنكار المُلكية الخاصة.

أما المُلكية الخاصة، فتعني إرادة التصرف والاستهلاك المتزايدة من قِبَل الفرد أو مجموعة الأفراد، على حساب المُلكية الجماعية العامة. تمثل الحضارةُ الشرق أوسطية المجتمعَ الأقدم الذي شهد المُلكية، انطلاقاً من نوعيتها الأقدم في معايشتها التمايز الطبقي. وقد تَشَكَّل التدوُّل بتأسيس مُلكية في أطرافه، بحيث تشهد النوعين الجماعي والخاص من المُلكية بشكل متداخل. بمعنى آخر، فقد تشكل نظام مُلكي جماعي وخاص متداخل مع التدول، وليس على الشاكلة التي تقول بتأسس أصحاب المُلكية الخاصة أولاً، ومن ثم بناء نموذج الاستيلاء على الدولة. وبقدر تدول الشريحة العليا، تكون صاحبة للمُلكية. فالدولة بحد ذاتها تعني الإعلان عن الحدود التي تهمين عليها كمُلك لها. والدولة ذاتها هي أكبر شراكة مُلكية. وهي وحدة للمُلكية الخاصة. كما أنها تسمح بوجود محدود للمُلكية الخاصة في الشرائح السفلية والوسطى، والتي بدورها لا تتخلص أبداً من مصادرتها على التوالي. لهذا السبب لا تتطور المُلكية الخاصة فيما بينها كثيراً. ذلك أنه ما من ضمان جدي للمُلكية

الخاصة خارج إطار الدولة. يوضح هذا الوضع – بما فيه الكفاية – أسباب عدم تطور المُلكية الخاصة بقدر ما تطورت في الغرب. فطراز تكوُّن الدولة عامل مؤثر أولي في تحديد كيفية تطوير التملك.

إن تحجيم الدولة الغربية منذ بدايتها من قِبَل الشرائح البورجوازية الأرستقراطية المتميزة بمكانتها الراسخة من حيث المُلكية الخاصة، أفسح المجال لتكوين مؤسسة المُلكية الخاصة بشكل أقوى وأكثر تعزيزاً. وقد برهنت تجربة الحضارة الغربية على أن المُلكية الخاصة أكثر إبداعاً وخلاقية من مُلكية الدولة.

أما المُلكية الجماعية الكامنة في أغوار المجتمع، فغالباً ما استمرت في تواجدها ضمن العائلة والقبيلة والمذهب وغيرها من المجموعات والجماعات. ثمة أهمية قصوى يتميز بها موضوع عدم الخلط بين هذه المُلكية الجماعية، وبين المُلكية الجماعية – الخاصة الموجودة في الدولة. فشكلُ المُلكية الأكثر رجعية وطفيلية وافتقاراً للإبداع هو ذاك الموجود في الدولة. يجب رؤية الإفراط في المُلكية داخل الدولة كأهم عامل للتخلف الاقتصادي السائد في منطقة الشرق الأوسط. تُكبَتُ أنفاسُ المجتمع على يد الدولة ونظامها المُلكي المتعاظم كورم اجتماعي خبيث. وغالباً ما تتطابق معاني المُلكية والدولة معاً. وتداخُل معاني "المُلك – المَلِك – التملك" يشير إلى هذه الظاهرة ويُبرِزها. وإذا ما قمنا بتعميم تصنيفي، فسنحصل على النتائج التالية: "الإله = صاحب كل شيء"، "دولة المَلك الإله = المَلك الإله صاحب كل شيء"، "المَلك الإله = مؤسسة الدولة"، "مؤسسة الدولة = الدولة صاحبة كل شيء". سيكون من الصعب جداً تحقيق التطور الاجتماعي، ما لم تحلَّل هذه العلاقة الكائنة بين الدولة والمُلكية بالمستوى الأمثل. إن الكل المتكامل للدولة المقيّدة للعلاقة السليمة الكائنة بين الفرد والمجتمع، وكذلك للأموال المقتصَدة التي استولت عليها؛ إنما هو مُلكية.

الاقتصاد مصطلح كوني. ويمكن تعريفه بأعم الأشكال بأنه إجراءات البيع والشراء وتبادل السلع، كما في حادثة الأيض (التغيرات الكيماوية) الحاصلة في عالم الأحياء. فالحصول على مادة حية من المادة الجامدة، واستهلاكها وتحويلها ثانية إلى مادة جامدة؛ إنما يشكل مضمون الأنشطة الاقتصادية. جلي بسطوع تام استحالة افتقار المجتمع لهذه الأنشطة في تكونه وديمومة وجوده. لكن الحقيقة الأخرى المتعلقة بهذا الشأن هي أنه لا اقتصاد بلا حيوية (يمكن تعريف هذه الحيوية بالذهنية أو الروح). بالتالي، فوضْعُ الثقل على عنصر واحد فقط لدى تحليل هذه الظاهرة، يفضي إلى نتائج خاطئة. إذن، فالأسلوب الأصح والأسلم هو تحليل الذهنية والاقتصاد بشكل متداخل (المجموعات الاجتماعية البينية، الدولة والعائلة، وبشكل أعم الظواهر السياسية والاجتماعية معاً). أما التحليلات المعنية بالاقتصاد لوحده، أو بالذهنية بشكل منفرد؛ فتؤدي إلى أخطاء تماثل ما لتعريف الفيل بشَعره. بقدر ما تكون الذهنية خلاقة ومنتجة، يكون التأثير الاقتصادي معطاء ومثمراً. يتضح من الأمثلة التاريخية أن الفترة ما بين 6000 – 4000ق.م التي شهدت الثورة النيوليتية، هي إحدى الحقب التي كانت عقلية الإنسان فيها في ذروة عطائها (وقد حصل هذا في الحواف الداخلية لسلسلة جبال أمانوس وطوروس وزاغروس، والمعروفة

باسم الهلال الخصيب). هذا وقد أسفر العطاء الاقتصادي على ضفاف بحر إيجة عن ولادة الحضارات الكريتية والإغريقية والرومانية. وارتباطاً بذلك، حدثت الثورات الفكرية والفلسفية والعلمية. علاوة على أن ذهنية النهضة أدت إلى ولادة أعظم اقتصاد أوروبي. التأثيرات إذاً متبادلة ومغذية لبعضها البعض.

إن العصور الاقتصادية الناجمة عن التطور الذهني بارزة في الحضارة الشرق أوسطية. مقابل ذلك، فما حصل في هذه الذهنية من انقطاع عن عالَم الظواهر، والانقطاع المتتالي عن الفيزياء في عالم الميتافيزيقيا، والغوص في عالم الخيال والأوهام والتصورات المبهمة والضبابية؛ كان مؤثراً أساسياً في انخفاض مستوى العطاء الاقتصادي. فبقدر انفصال ميتافيزيقية الشرق الأوسط عن عالَم الظواهر (الميثولوجية منها والدينية والفلسفية) وانهماكها بالمصطلحات المجردة؛ مهَّدت السبيل للانحسار والتدهور الاقتصادي. إن التركيز على الإلهيات، وسلوك اتجاه العداوة تجاه الفلسفة المؤدية إلى صياغة التعريف الصحيح للعالَم الطبيعي على وجه الخصوص، وعدم تطوير الفكر الفلسفي والعلمي؛ قاد في المجال الاقتصادي أيضاً إلى التخبط في عقم أشد وأعمق، وعدم التطور، بل والتسمر في الأساليب النيوليتية التي كانت شائعة قبل الآن بآلاف السنين.

من المحال حدوث ازدهار ونمو اقتصادي راسخ ودائمي ومؤسساتي في الشرق الأوسط، ما لم تمر المنطقة بتطورات ذهنية على شاكلة النهضة والإصلاح والتنوير. هذه هي الحقيقة المتوارية خلف دوافع العجز عن القيام بالإنماء، سواء على يد الدولة، أو عن طريق الأفراد بشكل خاص؛ وخلف أسباب السفالة والبطالة المتفاقمة التي تجترها الجماهير. لا يمكن أن تفلح هذه المنطقة الأغنى بمواردها، في ثورتها الاقتصادية، ما لم تمر بالثورة الذهنية الجذرية. حينها بالتالي، لن تقدر على النوء عن عبء المشاكل المتفاقمة كالبطالة والفاقة والعَوَز. لن يسفر البحث عن الحل عن أية نتائج في الشرق الأوسط، ما لم توضع الثورة الذهنية والديمقراطية في نواة الحل الاقتصادي. وحتى إن حدثت التطورات، فلن تذهب أبعد من لعب دور الضمادات. إذاً، فالأسلوب الأصح هو اتخاذ العلاقة الموجودة بين الاقتصاد والذهنية والديمقراطية أساساً، والتوجه نحو الحل بناءً على هذه الخلفية.

من المهم تسليط الضوء على ظاهرتَي السلالة والطرائقية ارتباطاً بالدولة والدين، أثناء توضيحنا لبعض المصطلحات. حيث أن إكمال التعريف سيبقى محمَّلاً بالنواقص، إنْ لم نُلقِ الضوء على دور السلالة والطرائقية في الحضارة الشرق أوسطية.

السلالاتية ظاهرة ملفتة للنظر، متصاعدة داخل العائلة والدولة، ومشحونة بالعناصر الإثنية والميثولوجية الدينية. وفي كل الأزمان لعبت سلالة محددة دورها البالغ الأهمية في كل تصاعد أو انهيار للعوائل والدول. ويندر التفكير بدولة بلا سلالة. تسري هذه القاعدة، حتى في يومنا الحالي بنسبة كبيرة. بالإمكان الإشارة إلى قوة ومتانة بنية العائلة البطرياركية كسبب لذلك. إنها جينة الدولة البطرياركية. بالتالي، بمقدور أقوى العائلات البطرياركية التسامي إلى طابق دولة السلالة. هكذا تصبح السلالة دولة بذاتها.

السلالاتية مؤسسة يمكن إرجاع أصولها إلى ما قبل آلاف السنين. ولها آثارها العريضة جداً في الدولة والمجتمع على السواء. إنها أشبه بمجمع للطبقة الحاكمة والمجموعة الإثنية والعقيدة الدينية. ويكمن حُسْن طالعها – من جانب آخر – في تأثيرها عبر سلالات النَّسَب أزماناً طويلة. هذا وتُعَد مُساعِدة أيضاً من أجل التوسع المكاني عبر الزيجات الحاصلة بين السلالات. هذه المزايا توضح بجلاء دوافع تأسيس الدولة داخل السلالات أولاً.

من المهم عدم غض الطرف عن المؤسسة السلالاتية، باعتبارها تشكل بؤرة متينة في التطور الدولتي بقدر التطور الاجتماعي. والحضارة الشرق أوسطية، بمعنى من معانيها، تُحمَل وتُنقَل عبر السلالات. نخص بالذكر هنا سلالات الدولة كأمثلة تركت بصماتها على التاريخ أكثر من غيرها. فبينما تتميز السلالات الخارجة عن نطاق الدولة بثقلها الراجح في الحضارة الغربية، تبرز نجومية وشهرة السلالات المرتبطة بالدولة أكثر في الشرق. السلالاتية في الوقت نفسه مدرسة، ونموذج اجتماعي. فبعد حدوث التطورات المهمة في مدرسة أو أنموذج السلالة، يتم نقلها إلى المجتمع. وحتى المجموعات الإثنية والشعوب، كثيراً ما تُعرَف بأسماء السلالات. والحوادث التي تلعب فيها الأدوار الرئيسية، ليست بقليلة العدد. فأقوى الإثنيات والشعوب يتم ذكرها بذكر اسم أو قوة السلالات التي أبرزوها من ضمنهم. فالأمويون، العباسيون، الأيوبيون، السلاجقة والعثمانيون والبرامكة؛ إنما يعنون في الوقت نفسه الشعب العربي أو التركي أو الكردي أو الفارسي.

من الجوهري عدم إنكار واقع السلالة، ولا إعلاء شأنها، باعتبارها لا تزال تحافظ على وجودها في الأوساط الذهنية والمادية في راهننا. والسبيل الأكثر واقعية هو تناولها كظاهرة اجتماعية، وجذبها إلى الأرضية الديمقراطية الاعتيادية. فبقدر عدم الوقوع في الشغف بالسلالاتية، من المهم تناولها بشكل تحليلي، مع الإدراك التام بأنها واقعة اجتماعية. وإلا، فقد يقود الاقتراب المعاكس إلى إفراز نتائج سياسية واجتماعية وخيمة بحق، وإلى تجذير الأزمات أكثر. ستُدرَك أهمية الموضوع بجلاء أكبر، إذا ما أشرنا إلى النتائج المأساوية المروّعة التي أفرزها مرض السلالة الصَّدَّامية في العراق مؤخراً.

الطرائقية أيضاً كالسلالاتية. لكنها تنتشر بالأرجح في الميدان الديني والمذهبي. وهي تعتمد أساساً على تطبيق المبادئ الدينية العامة حسب المراحل الزمنية والمكانية الملموسة. يتم تعبئة الثغرات الناجمة عن ضعف التنظيم الديني العام، عبر التنظيمات الطرائقية. غالباً ما تتحول الأديان إلى قوة تنظيمية ملموسة عبر الطرائق والمذاهب. لذا، من الطبيعي أن تتواجد الطرائق والمذاهب في كل أماكن تواجد الأديان. والطرائقية حادثة معايشة الدين بحالة أكثر كثافة وتنظيماً. وما دامت كذلك، فإن شخصيات وزعماء الطرائق والمنظِّمين لها تلعب دوراً مهماً. فأينما يتواجد فراغ أو ثغرة ما، تكون الطريقة الدينية هناك. نخص بالذكر هنا الجماهير التي لا تروي الدولة ظمأها، فتهرع إلى تنظيمات على شاكلة الطريقة الدينية. وفي الظروف التي تكون فيها العائلة ضيقة النطاق، والدولة مكاناً صعب المنال؛ يكون احتمال وجود التنظيمات الطرائقية قوياً، في حال غابت فيها التنظيمات الاجتماعية الأقوى.

أما التنظيم المذهبي، فهو الحالة الأكثر تقليدية والأوسع نطاقاً للطرائقية. ثمة العديد من الطرائق التي ترى حاجة في أن تكون نصف علنية بهدف الحماية من الدولة، وتخطي حدود العائلة الضيقة الآفاق. وبينما تكون بعضها تابعة للدولة، يكون البعض الآخر منها مناهضاً حاداً لها. عادة ما يكون الشرق الأوسط أشبه بمجتمع من الطرائق الدينية. وقد لعبت الطرائق الدينية أدواراً مهمة لدى بروزها في الفترات التاريخية التي عجزت فيها الإثنية عن تلبية متطلباتها بشكل تام (وخاصة في المدن)، وبقيت فيها العائلة ضيقة الآفاق، واعتَبَرَت الدولة نفسها أنها تشكل الكل بالكل بمفردها. في الحقيقة، فالطرائق الباطنية السرية البارزة في العصور الوسطى، ليست سوى أحزاب لطبقة الفقراء. ومن أشهرها الطريقة الباطنية لـ"حسن الصبّاح" (1100 – 1250م)، حيث قَضَّت مضاجع السلاطنة والوزراء السلاجقة، الذين كانوا يمثلون السلالة الحاكمة والمذهب الحاكم، وأدمَت أفئدتهم وعقولهم. والفاطميون، والخوارج، والعلويون أيضاً يمثلون تقاليد مشابهة. إن الطرائق الدينية والجماعات الشبيهة بها في الحقيقة ضرب من ضروب مؤسسات المجتمع المدني في المجتمع الشرق أوسطي.

بما أن ظاهرة الطريقة الدينية تنبع من الفراغ الاجتماعي، فهي تستدعي دراسة موضوعية. وبما أنها مؤسسات شبه سياسية وشبه اجتماعية، فإن أدوارها تتميز بأهمية ملحوظة، سواء بالنسبة للسلطة أو المعارضة. إذ لا مفر من تواجد مثل هذه التنظيمات في الأماكن والفترات التي تكون التطورات العلمية فيها محدودة، والمفاهيم الديمقراطية غائبة. يكمن السبيل لتجاوز كل ذلك، في تطوير علم الاجتماع والنضال والصراع الديمقراطي. أي أن الطريق الصحيح للانشغال بالطرائق المتردية بنسبة ملحوظة، والتي تلعب دوراً أشبه بدور الشركات ذات العلاقات المنفعية المتعددة في يومنا الراهن؛ تتمثل في تعبئة الشعب بالعلم والديمقراطية، وتحقيقهما له. هذا بدوره يتطلب الإيمان بالعلم بقدر عمق إيمان أصحاب الطرائق كأقل تقدير، وإيلائه قيمته، وسلوك المواقف العازمة والعنيدة الدائمة في سبيل الديمقراطية. والأسلوب الأكثر تأثيراً في حل التزمُّت وتفكيكه هو، عدم إنكار المجموعات الجماعاتية الممتدة في جذورها إلى ما قبل مئات السنين. بل الإدراك بوجود مكان لها أيضاً ضمن الديمقراطية، وإبداء الموقف الديمقراطي منها بموجب ذلك.

بالمقدور إبداء مواقف مشابهة من أجل بعض التنظيمات الحزبية السياسية وبعض منظمات المجتمع المدني، التي يمكننا تسميتها بالطرائق الحديثة بالمعنى الأوسع نطاقاً. يتحلى النظر من آفاق أوسع إلى ظاهرة المجتمع المدني بأهمية كبرى في حاضرنا، في الشروط التي تتشابك فيها الأواصر العائلية والقَبَلية والعقائدية مع الأواصر الأيديولوجية الأكثر عمومية. هذا وقد يسفر توحيد العناصر الكلاسيكية للمجتمع المدني مع العناصر العصرية، عن نتائج أكثر عطاء وإثماراً. ذلك أن مؤسسات المجتمع المدني التي لا ترتكز إلى الماضي والتقاليد، قد تمر بمشكلة الأصول والجذور. بالتالي، ثمة خطر جفافها السريع أيضاً. بمعنى آخر، فأي حركة أيديولوجية أو سياسية أو اجتماعية أو فنية تعجز عن عقد علاقتها مع التقاليد، لن تكون فرصتها في النجاح دائمة، ولن تنجو من كونها وقتية ومؤقتة كالموضة. نخص بالذكر هنا ضرورة استنباط الدروس من فشل اليسار الذي استخف

بالتقاليد وازدراها، لدى تأسيس مؤسسات المجتمع المدني والحركات السياسية الديمقراطية ذات الآفاق الشاسعة، والعاقدة أواصرها مجدداً مع التقاليد. حينها ستكون قادرة على صياغة الحل في النفاذ من الأزمة، وبالتالي تكون ناجحة وموفقة.

5 – رغم العمل بالديكتاتورية والعنف وتفعيلهما ارتباطاً بالدولة في الحضارة الشرق أوسطية، إلا إنه من الضروري تحليل السلطة بشأن الشكل والعنف عبر تعاريف أعمق. وبشكل عام، يكون مضمون الدولة ذاته في كل مكان. حيث يمثل التقاليد المتأسسة على خلفية فائض الإنتاج والقيمة الزائدة. أما عندما يكون الموضوع متعلقاً بشكلها، فتبرز أمامنا متغيرات كبرى. تلعب الشروط الزمانية والمكانية دورها في ذلك. حيث تتولد أشكال مختلفة للعديد من الدول على اختلاف الفترات والظروف. مع ذلك، يلفت نظرنا وجود اتجاهين عامين في ثنائية (قرين) الشرق – الغرب. فبينما نصادف الأشكال الجمهورياتية والديمقراطية في الغرب بشكل أكثر، تكون الاستبدادية هي الشكل الرئيسي في الشرق.

تشاهَد الجمهورية في النظام العبودي الكلاسيكي، وبعض الدول المدينية في العصور الوسطى، إلى جانب وجودها في أوروبا العصر الحديث. يكمن الفرق الأولي بين الجمهورية والاستبدادية في الميدان القانوني. ورغم أن شرائح الأسياد المهيمنة هي التي تلعب دورها في كلا الشكلين، إلا إن القواعد المحدَّدة عبر صراع اجتماعي كثيف ومتوالٍ هي الدارجة والفعالة في الشكل الجمهورياتي. وتكون هناك بنية اجتماعية ديناميكية، تقوم بتحديد حقوقها. بل وتدافع عنها بالعنف أيضاً إن دعت الحاجة. إذاً، فالجمهورية تمثل المجتمع الديناميكي (الحركي). أما في الاستبدادية، فالعكس هو الصحيح. فشخص واحد هو الذي يفرض عملياته الكيفية على المجتمع كقاعدة أو حُكم صارم، وبشكل أحادي الجانب. في الحقيقة، لا فرق جدي بينها وبين المونارشية. يكمن الفرق – فقط – في أن المونارشية تعتمد على السلالة المحدَّدة سلفاً، وتكون موضِّحة بتعبير أكثر تقليدية عن تحديد المونارشي (المَلك) الذي سيُختار للعرش، عبر قواعد محدَّدة. أي أن القواعد الإدارية تقليدية. وتظهر الأحوال الطارئة في أوقات المآزق والفوضى بين الفينة والفينة. حينها، إما أن تعتلي العرش سلالة جديدة، أو أن تبقى السابقة مع تغيير المَلك، ليبدأ الجديد بإجراء حكمه ونفوذه. أما في الاستبدادية، فقواعدها قابلة للتغيير من المستبد ذاته. وكثيراً ما يسن القواعد الكيفية أو يغيرها. المونارشية الموجودة في الشرق الأوسط أدنى إلى الاستبدادية. وما "الفرمان" (أوامر السلطة) في مضمونه سوى أحكام استبدادية رسمية. ورغم التعامل معه على أنه قانون رسمي، إلا أنه لا علاقة له بالقانون كثمرة من ثمار الصراع الاجتماعي.

أما الديكتاتورية، فهي شكل مغاير. وهي تفيد بالشروط التمهيدية لظهور الأباطرة، أو هي نموذج مصغر عنهم. ويتم إجراؤها من قِبَل شخص سياسي (أو عدة أشخاص) بعد تسلحه (تسلحهم) بالصلاحيات الخارقة. الفرق بينه وبين المستبد هو زيادة ثقل القوة المراقِبة والمتربصة من حوله. حيث أن الوسط الذي يحاسِب الديكتاتور ويسائله متواجد على الدوام. ورغم أن الإمبراطورية نظام دائمي راسخ، إلا أن الديكتاتورية وقتية مؤقتة.

حيث يُلجأ إليها في الأحوال الطارئة. ورغم دنو تشكيلة الدولة في الشرق الأوسط من الاستبدادية أكثر، إلا إنها قريبة أيضاً من المونارشية والإمبراطورية. بالمقدور القول أن الاستبدادية والمونارشية والإمبراطورية قد التحمت في شخصية رئيس الدولة في الشرق الأوسط. تشير هذه الحقيقة إلى مدى تأثير الرئيس ونفوذه بوضعه نفسَه مع الدولة في كفة واحدة. ولربما كانت أكثر أشكال الإرادة كثافة وتأثيراً تتجسد في رئاسة الدولة في الشرق الأوسط. لهذا علاقته بمضمون الدولة ذاتها. حيث تتحد تقاليد السلطة الأبوية والمشيخة والبيكاوية (الآغاوية) والسيادية القوية والوطيدة في رئاسة الدولة، لتتكون مجدداً كقوة عظمى. لأجل ذلك، من الصعب جداً البحث عن الأشكال الجمهورياتية أو الديمقراطية في الدولة الشرق أوسطية، ولو من قبيل الاستثناء. وكأن الدولة تتحرك وفق محتواها ذاك كلياً، وتسعى لإثبات قوتها وقدرتها ليكون شكلها وحيداً. علاوة على أن الدولة الثابتة التي لا تتغير، تَعتَبِر أن الحفاظ على صورتها راسخة دون المساس بشكلها، مهارة وفضيلة سياسية بالنسبة لها.

بالإضافة إلى أن نقش مفهوم "المَلك الإله والدولة" في ذاكرة المجتمع على مر قرون مديدة، له دور بارز في عدم تطور الجمهورياتية. فتَدَخُّل البشر العبيد في شؤون الدولة الإله منافٍ للتقاليد. والتدخل في شؤون الإله (الدولة) أكبر ذنب يمكن أن يقترفه المرء. وما المقولة المكرر ذكرها بكثرة في الكتب المقدسة، والتي مفادها "لا تتدخلوا في شؤون الإله، الإله لا يحاسَب، لا تفكروا في شراكة الإله الذي لا شريك له"؛ إنما تعني مضموناً ما يلي: "لا تتدخلوا في شؤون رئيس الدولة، الرئيس لا يحاسَب، لا تشاركوه السلطة والصلاحيات". ولكنها تقال بتعبير ديني. قد يدّعي البعض أن هذه المقولة ذُكِرَت في الكتاب المقدس خصيصاً لإبراز حاكم يحكم القبيلة العبرية. وهو رأي له نصيبه من الصحة. بل وحتى يقال بأن سيدنا موسى يأتي من الإمارة المصرية. وإعلانه حكمه ومخططه بشأنه عبر التوراة، أمر مفهوم. إضافة إلى أن سيدنا عيسى قُبِض عليه واعتُقِل أثناء محاولاته للاستحواذ على حُكم القدس التي أسماها "بنت الصهيون". والسرد الأكثر فصاحة وعلانية موجود في القرآن. كما أن أقوال سيدنا محمد التي طالما ذكرها، سواء كآية قرآنية أو على شكل أحاديث نبوية، والتي تقول ما معناه: "لا شريك للإله، لا تتدخلوا في شؤون الإله، الإله يحاسبنا جميعاً ولا يحاسبه أحد"؛ قد مهدت الطريق لظهور رئاسة الدولة في العصور الوسطى، سواء على شكل سلطنة باشوية أو إمارة. وقد حصل ذلك سواء كان سيدنا محمد قصده عن وعي أو بدونه. والقرآن بجانبه هذا أقرب إلى بلاغ الدولة أو وثيقة لها. بل ويحدِّد ببصيرته المستقبلية الثاقبة مخطط الإدارة، ويُبلِغ بها وكأنها ستحكم على مدى القرون اللاحقة أيضاً. سيكون من الناجع حقاً تحليل القرآن وفق وجهة نظر النظرية السياسية. بالطبع، فموقعه الكائن بين تبعية الأمة لله، وتبعيتها للدولة، أكثر علانية وتلقيناً للدروس والعظات. كل الوثائق الدينية البارزة في العصور الوسطى، سواء في الإسلام أو المسيحية، أو في أديان الشرق الأقصى كما في الصين والهند؛ أشبه بإعلانات أو تصريحات تمهيدية تُبلِغ عن شكل الدولة التي ستلد بعدها. إنها عبارة عن حكاية نشوء وتطور دولة العصور الوسطى المُبَلِّغ والمبشَّر بها.

إن تعرية الدولة من سماتها الاستبدادية وتطهيرها منها في شرقنا الأوسط الراهن، من أصعب المهام الواجب النجاح فيها. ورغم وجود بعض الدول المسماة بـ"الجمهورية" في الميدان، إلا إنه من الصعب القول بأنها تخطت نوعياتها الاستبدادية. فالجمهورية تستدعي الاتفاق الجماعي والرضائي بين الطبقات. ولا توجد أي دولة دستورية أو جمهورية في أي بلد من بلدان الشرق الأوسط على مر التاريخ، تم تحديدها بالإجماع والاتفاق الرضائي الاجتماعي. فهي لا تتناغم مع الجمهورية، باعتبارها أنظمة معتمدة على إرادة شخص واحد؛ أياً كانت مكانتها، تقدمية كانت أم رجعية. يكون تواؤم أو وفاق إرادة عدة أشخاص متكافئين في القوة والقدرات لا شخص واحد، هو الأساس في الجمهورية. إن هزل ووهن الطبقات الاجتماعية، عجزها عن تطوير الإرادة السياسية، التعبُّد التقليدي للدولة، وغياب التقاليد الجمهورياتية؛ يلعب دوراً بارزاً في ترسيخه. أياً كانت أسماء الدول في الشرق الأوسط، وأياً كانت الفوارق بينها؛ فمن المهم القول والإدراك بأنها لم تتخطّ ماهية الدولة الاستبدادية. هذا مهم من أجل النضال في سبيل السياسة الديمقراطية والجمهورياتية والصراع من أجلهما.

الأهم من ذلك هو تحليل ثقافة العنف في الحضارة الشرق أوسطية. بالإمكان القول أنه تكاد لا توجد أي مؤسسة أو ثغرة (مسام)، إلا ودخلها العنف وحدَّد إطارها في مجتمع الشرق الأوسط. بشكل عام، يُجمَع على الرأي القائل بأن العنف لعب دوراً مصيرياً في البنى السياسية والاجتماعية، بل وحتى الاقتصادية. كما يُجمَع على أن السلطة والعنف توأم حقيقي. لكنه لم يكن مصيرياً في دوره بقدر ما كان عليه في البنية الفوقية والتحتية على السواء في المجتمع الشرق أوسطي، بحيث من الصعب مصادفة مؤسسة متشكلة دون أن تقبع تحت تأثير العنف.

لا أرى جدوى في اللجوء إلى الأطروحات البيولوجية، بل وحتى الطبيعية، لدى تعريف العنف. فجذور العنف الاجتماعية علنية وعارية. كما أن أواصرها مع التمايز الطبقي المرتكز إلى فائض الإنتاج والقيمة الزائدة، ومع سلطة الدولة أيضاً واضحة للعيان. يتم تشاطر هذه الخواص كآراء مجمَع عليها عموماً في علم الاجتماع.

ما يهم هنا ويلفت النظر بشأن العنف، هو ندرة التحليلات المحدَّدة بحقه. حيث يُنظَر إليه كظاهرة استثنائية لا أهمية لها، في المجتمعات المتعرفة على السلطة؛ رغم أن للعنف فيها دوره المصيري البارز. لا يمكن الادعاء بغياب الحروب والصراعات الوحشية في مجتمع الحيوانات. الحرب هي التعبير المُرَكَّز للعنف. بل وتُذكر الذرائع المتتالية لتبرير ضرورتها. يتم تبيان الذريعة الوحيدة للحرب – عدا الدفاع الاضطراري عن النفس، وحماية الوجود وصون الحرية – لأجل الاستفراد بزخم القيم الاجتماعية المتراكمة ونهبها وسلبها، التحكم والهيمنة، بسط النفوذ على المجتمع بالاستناد دائماً إلى سلطة الدولة، وإعطائه شكلاً يوافق تلك المصالح المنفعية. رغم أن هذا الجواب شفاف ومفهوم إلى أقصى الحدود، إلا إنه – مع ذلك – تُبذَل المحاولات لمواراة هذه الحقيقة بألف حيلة وحيلة (كمن يجلب الماء من ألف نهر لتطهيرها)، عبر صياغة التعاريف الناقصة والخاطئة. أما الظاهرة التي طالما ضلَّلها وحرَّفها الدين والميثولوجيا والفلسفة، وأخيراً ما

يُزعَم بأنه علم الاجتماع؛ فهي كون العنف العملية الأكثر خروجاً عن نطاق الإنسانية، والأكثر وحشية بيد الطفيليين الاجتماعيين المهيمنين المتسلطين والاستعماريين.

هذا التعريف الصحيح عموماً، تبرز صحته من أجل الواقع الاجتماعي للشرق الأوسط بشكل خاص. تُبَيّن الأمثلةُ الشعبية من قبيل "العصا من الجنة" (من غرفة الحكام)، و"العنف أحلى من العسل" مصدرَه بكل جلاء. للعنف دوره المعيّن في بقاء المجتمع مكتوم الأنفاس وضالاً تائهاً. لقد تشكلت المواقع وحُمِيَت المؤسسات بدروع الحصانة في كل أنظمة المجتمعات الهرمية والدولتية، بالاعتماد على العنف. وأي مؤسسة لم يطوّقها العنف، لن تجد فرصتها في الحياة أبداً.

جلي جلاء النهار استحالة تطور المجتمع الحر أو التمدن في ظل هذه الشروط. بل وحتى الأفكار لا يمكن أن تُقبَل، إلا بعد تمريرها من مصفاة العنف. لذا، لا يتشكل الفكر الخلاق في مثل هذه الأوساط، بل تُسيَّر أمور العالم وفاقاً للألفاظ المسبوكة بقوالب جاهزة ومجمَع عليها. ويكون رئيس الدولة أو رئيس المنزل على حد سواء، مدركين تمام الإدراك أن قوتهما منوطة بسلطتهما وعنفهما. وعندما يقولان "لنمنح العالَم النظام"، إنما يشيران إلى العنف ويقصدانه. فالعنف الذي قد سلَّل كل تأثيراته إلى كافة مسامات المجمع، لا يترك حيزاً مهماً لقوة المعنى والمعرفة. بالتالي، تتواجد المؤسسات الاجتماعية من الناحية الشكلية فقط. من الساطع بما لا جدال فيه أنه لا يمكن انتظار حصول التطور الحر في مجتمع مؤلَّف من مؤسسات بعيدة عن الخلاقية والإبداع تنشط بنخزها وإثارتها من الخارج؛ بسبب سلب حيز المعاني منها وتجريدها منه.

أما في العائلة، فتُكتَم الأنفاس أكثر فأكثر، باعتبارها خلية سفلى قابعة تحت وطأة التقاليد المقتاتة على العنف في المجتمع. بل وتُشَكِّل حالةً من الحرب الخفية والمستترة على المرأة بشكل خاص. وكأنه لا تبقى خلية في وجود المرأة إلا وترتعش من وطأة العنف. وحال الأطفال مثيلة لها. فالأسلوب التعليمي الأساسي الملقَّن لهم هو العنف. بيّنٌ تماماً أن الطفل المروَّض والمربَّى على العنف، سيُنتَظَر منه السلوك ذاته عندما يكبر، حيث يتفاخر بهيمنته المعتمدة على العنف ويتباهى ويتلذذ بها. وبينما يتوجب النظر إلى عاطفة القوة المعتمدة على السلطة والعنف كأخطر مرض اجتماعي، يُعلَن عنها بأنها أسمى العواطف وأكثرها بعثاً على الغبطة. هكذا تُقدَّم الظاهرة التي تتوجب لعنتها، على أنها الفضيلة الأسمى.

وفي يومنا الراهن أيضاً، لا يمكن التفكير في مؤسسات المجتمع الشرق أوسطي – دون استثناء – بلا عنف. حيث يقدَّم العنف ويفعَّل كوسيلة لحل كل أنواع المشاكل الأساسية؛ بدءاً من عنف الدولة وحتى العنف داخل الأسرة، ومن عنف التنظيم الثوري إلى العنف الفاشي والديني والقوموي. بيد أن ما حقق تفوق الحضارة الغربية هو الحالة المناقضة لذلك تماماً. حيث أنهم أحرزوا نجاحات مظفرة وعظمى لأنهم أولَوا الأهمية أولاً للقول والحوار المفعم بالمعاني إلى أقصى الحدود. ولدى انسداد الحل لجؤوا إلى العنف كأسلوب. والغرب نسبةً إلى الشرق قد حل مسألة العنف لديه واستنبط الدروس منها. يقدم الاتحاد الأوروبي نقده الذاتي بكل شمولية، ويتوخى الحساسية الفائقة في هذا الموضوع.

وأمريكا أيضاً تكون حلاّلة للمشاكل لدى استخدامها العنف. أي أنها لا تستخدمه عبثاً. وهي تدرك يقيناً أنها مدينة في نجاحاتها إلى قدرة الحل الفائقة لديها، وأن فشلها ينبع من التحليلات الخاطئة. لقد استخلصت درسها بشكل حسن.

يشكل تطهير مجتمع الشرق الأوسط من العنف مشكلة منوطة، وعن كثب، بالتعليم الشمولي لأقصاه. فالشرط الأولي لإحراز النجاح هو الثقة بقوة المعنى، وتطبيق العنف – فقط وفقط – في الظروف الاضطرارية، وبشرط الحصول على النتائج المرجوة. إن التقييم الصحيح لأبعاد وآفاق العنف المتعلق بكل الميادين – وليس ذاك المنحصر في مواضيع الحرب والثورة والثورة المضادة وحسب – وإعداد العنف المضاد لدى مناهضة العنف، وتطبيقه بشكل سليم وصائب ومثمر؛ إنما يستلزم التحلي بمهارات فائقة. أما إيلاء الحيز الأوسع لقوة الحوار والتنظيم والمعنى، وعدم الثقة بالعنف فيما عدا دوره الاضطراري كحاضنة لدى إعادة "بعث" المجتمع المقلي والمطهي في بوتقة تقاليد العنف على مر آلاف السنين؛ فيجب النظر إليه بأنه الأسلوب الحلاّل للنفاذ من الأزمة، وبالتالي تطبيقه على أرض الواقع.

الفصل الثاني

ب – الوضع الراهن في الشرق الأوسط، والمستجدات المحتملة

لا تزال صياغة التعريف الصحيح للعلاقة بين التقاليد الاجتماعية والحاضر، تشكل مشكلة في العلوم الاجتماعية. كم بمقدورنا معرفة الظواهر والأحداث والمراحل المعاشة في الحاضر، إن لم نربطها بالتقاليد؟ كم هو تأثير التقاليد على الحاضر؟ كيف يعيش المجتمع بذاته التقاليد والحاضر في آن معاً، وضمن أية مقاييس؟ من الصعب القيام بتحليلات ودراسات واقعية بشأن الوضع الراهن والمستجدات المحتملة، ما لم نرد على

هذه التساؤلات. حتى إن قمنا بذلك، فستكون مليئة بالنواقص والأخطاء. لهذا الغرض نلجأ إلى الأسلوب الذي نربط فيه بين التاريخ والحاضر على الدوام. ولو ذكرتُ قناعتي مرة أخرى، فسأقول بأن التقاليد مدفونة بين ثنايا الحاضر بنسبة كبرى، وإن كانت بشكل مشَفَّر. فالظروف واللحظات الحالية لا تُطرئ التغييرات على المعطاة التقليدية، إلا بنسبة تقل كثيراً عما يتم تصوره. لكن، ومن أجل فهم ذلك في عالم الظواهر، يتحتم فك رموز بعض الشيفرات (الألغاز). يكمن وراء قيامي بصياغة التعاريف التاريخية الكثيفة، هدف فك الرموز الحاضرة المستترة.

بإمكاني الإيضاح أكثر بإعطاء مثال على ذلك. لا يساور الشكُّ أحداً – أيَّ أحدٍ معني بالقرن العشرين على الصعيدين الأيدلولوجي والسياسي – في صدق وأمانة لينين الثورية. لا أعتقد بأن لينين فك رموز السلطة أثناء انشغاله بها، على الصعيدين النظري والعملي على حد سواء. ولأنه لم يستطع فكها، فقد أدى إلى تصفية أهدافه والقضاء عليها بوساطة النظام الذي أسسه بالأرجح. هنا تكمن أهمية العجز عن فك رموز الشيفرة. ثمة كمٌّ لا يعد ولا يحصى من الحكماء الذين قاموا بصياغة تعريفات بشأن السلطة، أصح بأضعاف مضاعفة من تلك التي صاغها ثوارنا الحاليون. ربما لم يهدموا السلطة، ولكنهم لم يدنسوا أنفسهم بها أيضاً. فهل نستطيع الاستخفاف بأهميتهم؟ لم تستطع الاشتراكية المشيدة الصمودَ سوى سبعين عاماً فقط بقوالب السلطة المتبقية من عهد روسيا القيصرية، والتي استخدمها لينين في صراعه. بل وانهارت دون أي مقاومة – ولو بقدر صَدَّام الذي كان منافساً اعتيادياً على السلطة – وبعد أن قدَّمت أَجَلّ الخدمات التاريخية للنظام الذي طالما ناهضَتَه وحاربته. بل وفعلت ذلك بخيانتها للعالَم الذي تواجدت من أجله، واتحدت في أقوالها وأهدافها في سبيله؛ وذلك بعدم إخطارها إياه بالحقائق. حسب رأيي، وبدلاً من إغراق النظام اللينيني بالانتقادات المبهمة والضبابية، سيكون من الأصح الاكتفاء بالقول بأنه عجز عن "فك الرموز الكثيرة لشيفرات السلطة".

سنغالط أنفسنا ونخدعها بنسبة ملحوظة بالاعتقاد بإمكانية خلق التطورات الصحيحة المرتجاة، والمناسبة للأهداف والمآرب المرجوة؛ ما لم نحلل ونفكك الشيفرات المتصلبة النابعة من التقاليد، والمتعلقة بالظواهر والأحداث والمراحل الثورية كافة، والتي تُعرَّف عادةً بمراحل الانطلاقة والوثبة النوعية في حاضرنا الذي ندرسه على وجه الخصوص. تنبع كل رَيبتي وقلقي من العجز عن التعريف الصحيح لحاضرنا، من دون صياغة التعريفات التاريخية الاجتماعية، والتي قمتُ بطرحها هنا، وإنْ بشكل مليء بالأخطاء والنواقص. وما يشير إلى الأهمية البالغة لهذا الموضوع هو حياة الشرق الأوسط المليئة بالفواجع والكوارث المدهشة في ماضيه عموماً، وفي حاضرنا على وجه الخصوص. ويُجمَع بشكل عام على الحقيقة القائلة باستحالة تحليل هذه الحياة بشتى أنواع وأساليب العنف المتبعة، مهما استُخدِمَت آخر التقنيات فيها. كما من المحال خلاصها من وضعها، الذي هو أسوأ بكثير وأنكى من الوحشية، عبر المحاولات الاقتصادية والمالية والسياسية والتعليمية. لكن، ومن جانب آخر، جلي بما لا شائبة فيه، ضرورة اتباع بعض المحاولات والمساعي الحلاّلة بكل تأكيد، وبسرعة قصوى. لهذا السبب، تتمتع محاولاتي

التحليلية بشأن التقاليد بأهمية بارزة، رغم انتقادها ضمن إطار المصطلحات الأولية. ولدي قناعات متوغلة في العمق، تفيد باستحالة وجود أي معنى لأية مساعٍ حاضرة من دونها، أو تمخضها عن نتائج مثمرة.

انطلاقاً من هذه النقطة بالذات، لطالما تجول بخاطري لعنة البابليين المذكورة في "العهد القديم"، أثناء مرور الشرق الأوسط وكافة عواصمه أمام ناظري. هذا وتذكّرني أيضاً بلعنة المسيحية على روما، ولعنة الشعراء السومريين على "آغاد Agad". فهل هناك من يزعم أن بغداد، القدس، مكة، أنقرة، اسطنبول، قابيل، طهران، القاهرة، وإسلام أباد ليست بمدن بابلية معاصرة؟ أيٌّ من الشعوب بمقدوره العيش في هذا الوضع المتردي والسافل والعقيم والذليل لهذه الدرجة، رغم الثقافة العظيمة الموجودة فيما بينها؟ كيف يمكن إيقاع الشعوب في هذه الحالة بالأساليب والمفاهيم التي لا مكان لها في أي كتاب من كتب فن الحرب والسلطة؟ قد يكون ممكناً العثور على معنى ما في آكلي لحوم البشر (اليام يام) الأفارقة. لكن من المستحيل أن نعثر عليه لدى الوحوش المستبدين في الشرق الأوسط الذي تتعرض شعوبه للإبادة والمجازر المعنوية والجسدية. بل من الصعب أيضاً العثور على جغرافيا أخرى مورس فيها القتل بهذا النحو الدنيء والخياني والعشوائي الهمجي (إنه حسب ظنهم قتلٌ ماهر وحاذق)، مثلما هي الحال في الشرق الأوسط.

عليَّ التطرق إلى مشكلة أخرى خاصة بالأسلوب. يقوم الرهبان الغربيون العصريون (المعنيون بالآداب والفلسفة والعلم ومختلف فروع الفن) بتقسيم تكامُل ظاهرةٍ أو حدثٍ أو مرحلة ما، أثناء دراستهم إياها. ويؤمنون باستحالة البحث والتدقيق دون إسقاطها إلى حالة جثة التشريح. هذا ما يذكّرني دائماً بأسلوب الرهبان السومريين في معرفة مصير الإنسان من حركة النجوم في السماء. حسب رأيي، فالنتيجة هي عينها، مهما كان أحد هذين الأسلوبين علمياً والآخر ميثولوجياً. بل وإني على قناعة تامة بأن رهباننا العصريين في منزلة أدنى. فما دمتَ قادراً على تقسيم الشَّعرة أربعين قسماً، لماذا إذن لا تولي المعنى الصحيح للإبادة الجسدية والمعنوية الحاصلة في القرن العشرين، والتي تضاهي في حِدّتها كل القرون الأخرى أضعافاً مضاعفة؟ لماذا لا تتقدم بحل مثمر؟ من المستحيل تعريف أي ظاهرة أو حدث أو مرحلة ما، دون النظر إليها ضمن تكاملها. فالتحليل بالتقسيم إلى أجزاء لا حصر لها، يضيع الحقائق ويخفيها عن الأبصار بنسبة كبرى، ولا يجدي نفعاً من الناحية التعليمية. بل ويعيق التعلم السليم أيضاً. فطراز تكَوُّن الإنسانية مستمر دون أن يغير من مضمونه شيئاً.

لقد أفسد النظام الغربي الرأسمالي طراز التكون ذاك بأسلوبه في التقسيم والتغيير الزائد عن حده. لهذا السبب بات مجتمعاً متأزماً. يحدد الفن والفلسفة والعلم حالة ذهنية الإنسان. والذهنية، أو الروحانية، لا تقسَّم. ذلك أن التقسيم يميتها. وإماتة الإنسان في الغرب على هذه الشاكلة مهيمنة ومتفشية، بل ويتم نشرها في كل أرجاء العالم أيضاً. الجانب الأهم في حكمة الإنسان هو كونه كلٌّ متكامل. النبوة هي الحكمة المكتسِبة مرتبة القداسة العظمى. وتتأتى مصاعبها من قدرتها على تناول الأمور بشكل متكامل. كل

مؤسسة اجتماعية (أو ممثليتها) لا تهضم العلم والفلسفة والفن، تعمل بذلك على إبطال حقيقة التكون وإفسادها.

كخلاصة؛ يأتي كل انحراف وضلال من عدم التحلي بالمفهوم الكلي المتكامل. وتكمن الجهالة الأخطر في النظر إلى الظواهر والحوادث والمراحل بذهنية أحادية الجانب (أو بالأصح، بذهنية مقسَّمة وممزَّقة). ذلك أنها تقتل الحقيقة. هذا هو مرض العصر والنظام السائد. على سبيل المثال، يجب رؤية وجهة النظر المنطلقة من الماهيات الأكثر علمية، بأنها أكثر أشكال الجهالة مكراً وخفاء. تُعتَبَر كل علمية تفتقر إلى الروح، وفنى ذكاؤها العاطفي، مفتوحة أمام كافة أشكال المخاطر والمهالك (العلمية أصلاً، وفي الوقت عينه، تعني الذكاء التحليلي غير المضبوط). إنها ضرب من ضروب سرطان الكلام.

المشكلة ليست أن نتعلم كثيراً، بل أن نحيا حسب ما نتعلمه. يتمثل مضمون التواجد المجتمعي في إدامة التعلم كحالة ذهنية للمجتمع، وضمن تكامل شامل وبجميع الأبعاد (أي الفلسفة، العلم، والفن). هذه هي الحقيقة التي دمرها عصرنا. لهذا الغرض أصبح العلم مدمِّراً هائلاً. وما الدمار النووي – على سبيل المثال لا الحصر – سوى تعبيراً رمزياً عن حقيقة معينة. فتصنيع الإنسان للقنبلة الذرّية تجاه نفسه وأبناء جنسه، ليس أقل وحشية من عمليات آكلي لحوم البشر (اليام يام). وعلم الاجتماع، الذي يتوجب عليه هو بالذات أن يكون مكلفاً بإعاقة هذا التقسيم والتمزيق، وتأمين التكامل الكلي؛ إنما يتمزق بنفسه، ليصبح المنبع الأس للخطر المحدق. والنتيجة كانت اندلاع عدد لا حصر له من الحروب المحلية والإقليمية والعالمية، وتأجج النعرات القوموية، وظهور الفاشية وكافة أشكال العنف.

لهذا السبب بالذات اتخذتُ الذهنية الدينية والميثولوجية والفلسفية والعلمية والأدبية بشكل متداخل في مرافعتي. لا يمكن تطوير مرافعة معنية بالشعوب وبجوهر الإنسان، إلا على هذه الأرضية. فقوة مرافعةٍ ما منوطة بالقدرة على التحليل والصمود تجاه البراديغما الحضارية التي تتحامل على ذاتها.

1 – ثمة حقيقة واقعة تفيد بامتداد جذور حالة الفوضى المتفشية في الشرق الأوسط إلى الماضي القديم. فالثنائية الكائنة بين الجذور الحضارية المتوغلة إلى آلاف السنين، وبين النظام الذي طبقته الحضارة الأوروبية خلال القرنين الأخيرين، لا تثمر الحلول، بل العقد الكأداء. فبينما تُطوِّر الحضارة الأوروبية أنظمة قابلة للتنفيذ والإحياء في كافة الثقافات الطبيعية، تبقى قاصرة عن النجاح في ذلك في الثقافة الطبيعية لمنطقة الشرق الأوسط. المشكلة ليست إقليمية هنا. ورغم الانتقادات الموجهة إلى أحاديث "هون تينغ تون Huntington" بشأن صراع الحضارات، إلا إنها واقعة ماثلة ببعض نواحيها. أي، هناك صراع بين الحضارات. لكنه ليس صراعاً بين الحضارتين الإسلامية والغربية. إن الحدث أعمق من ذلك وأشمل. فلو أطيح بالإسلام كلياً، سيبقى الصراع مستمراً في أساسه. نخص بالذكر هنا أن انفتاح علبة الباندورا في العراق، وخروج كل السيئات منها؛ إنما يشير إلى تواري أشياء كثيرة في الأعماق. وأي محلِّل نبيه وحاذق لن يرى صعوبة في الإدراك بأن ما برز إلى الميدان في مستنقع العراق يفضي إلى نتائج كثيرة؛ بدءاً من القول بخروج

الحل التاريخي، أو عدم خروج أي شيء منه، وحتى بروز ضروب من العناصر والعوامل العصرية والاجتماعية التاريخية باسم الحل. والأطراف المتصارعة هنا، ليست كما يتم تصويرها بأنها صَدّام وبوش. بل هي أعداد غفيرة من الأنظمة المتداخلة فيما بينها. فالأنظمة المتكونة منذ العصور النيوليتية تسعى جميعها، وبكافة ألوانها الإثنية والدينية والجنسوية، إلى احتلال مكانها، أو البحث عن منفذ لها في إمبراطورية الفوضى التي تتزعمها أمريكا.

إن تحقيق التوازنات وإقامتها في الحروب العسكرية أمر مفهوم. أما في الحروب الحضارية، فمجرد تحديد تلك التوازنات أمر عسير. فمضمون الصراع هنا معقد ومتشابك. ونصيب الأسلحة العسكرية في الاستخدام محدود. أما المؤثرات المصيرية أساساً، فهي تحيا في النسج الذهنية والسياسية والاجتماعية. وقد تمر قرون بحالها حتى تبرز النتيجة المتوخاة. وقد تكون الحلول متعددة المستويات، بدءاً من الترميمات وحتى أكثر التغييرات راديكالية. يجب الانتباه إلى عامل الزمان أيضاً في تواجه النظامين. رغم أن منطقة الشرق الأوسط تقاوم عبر حضارتها الإسلاموية الأخيرة، إلا أن هذا ليس سوى مجرد تعبير رمزي. فالإسلام قد منح عطاءه ونتاجه الأعظمي في الفترة ما بين القرنين الثامن والثاني عشر. وما تبقى منه ليس سوى مجرد قشرة. لذا، لن يؤثر أبعد من قيمة اسمه الماضية. فهو خارج دائرة الزمان بدرجة يستحيل فيها إصلاحه. أما انبعاثه الحاصل في العقود الثلاثة الأخيرة، فهو مصطنع. فهذا الانبعاث بحد ذاته ضمن أوساط الحضارة الغربية، إنما يحصل بفضل الغرب، ولا يتسم بخاصياته العائدة له. لذا، فالمناوءة باسم الإسلام تعني قبول الهزيمة مسبقاً. هذا علاوة على أن القيم والإبداعات الذاتية للحضارة الأوروبية، هي أيضاً مصطنعة. فالسياسة والمساهمات الاجتماعية والاقتصادية تسبب العقم أكثر من الحل. وطراز إسرائيل يفتقر لوجود مكان ينفذ منه المرء. كذلك فالطراز الأفريقي غير ممكن. قد تتنازع الثقافات الأفريقية فيما بينها. لكنها لن تقدر سوى على السعي لتَقَبُّل أوروبا. بالتالي فإن فرص نجاحها أو اكتسابها المعنى في صراعها محدودة للغاية. أما البلدان الباسيفيكية كالصين والهند واليابان، فقد تنقل النظام وتقتبسه بكل مهارة لتستنبط الدروس منه. فثقافاتها تجعل من الوفاق والوئام أكثر معنى ونجاحاً، بدلاً من المقاومة والتصدي. في حين قد تفلح البنية الثقافية لأمريكا اللاتينية في تأمين حياة قابلة للاستمرار – وإن بصعوبة – بخلاقيتها وإبداعها، باعتبارها عاشت مع النظام خمسة قرون بحالها. أما ثقافة الشرق الأوسط، فلا تشبه أياً منها. فالفوضى والعقم يفرضان ذاتهما، بدءاً من أنظمتها حتى فردياتها، ومن ذهنياتها حتى بناها الاقتصادية.

تشهد ذهنية الشرق الأوسط اعتلالاً تاماً في نظامها. وهي على مسافة بعيدة من الثورة الذهنية بالطراز الغربي. حيث لا ترى داعياً حتى للمرور بالنهضة والإصلاح والتنوير حسب شروطها الخاصة. لكنها بالمقابل لا تتوانى عن استهلاك آخر الموضات الناجمة عن ممارسات تلك المراحل على الصعيد العملي. حتى الذهنية التي تظن أنها عائدة لها، لا تعي كثيراً جذورها التاريخية أو سياق تطورها. وتفسير التاريخ بالنسبة لكل مجموعة، لا يعني أكثر من المديح الجاف المجدب. أي أن التاريخ بالنسبة للجماعات

الذهنية عبارة عن مديح وثناء للذات، وتصنيف المناوئين لهم في لائحة الخصم اللدود. ولا يوجد طرف "آخر" ثالث. لا يخطر ببالهم قط التساؤل عن مدى موضوعية أو ذاتية هذه التفاسير. ومثلما لا مكان للتركيبة الجديدة بين القوالب الذهنية، فإن عادة التفكير حسب ثنائية "الأطروحة – الأطروحة المضادة" أيضاً لم تتطور بعد. لذا، فبراديغمائيتها أقرب إلى الأبيض والأسود. ثمة وجهة نظر إلى الطبيعة يغلب عليها الرأي الداكن السوداوي واليائس الفاني، عوضاً عن التفكير في النهضة أو حتى في الطبيعة الحيوية والحركية السائدة في العصور النيوليتية. وتغيب اليوتوبيا في وجهة نظرها إلى المجتمع أيضاً، بقدر ما تفنى عناصر الحِكمة الميثولوجية والدينية الرائعة للتقاليد. أي أنها لا تسلك مواقف آملة وغبطة، لا لأجل مستقبلها، ولا لأجل ماضيها. ولدى غياب ذلك، ينعدم الإبداع والخلاقية.

لقد جفت الثمار العلمية والفلسفية والفنية للذهنية في الشرق الأوسط. ولم يبقَ لديها عزم واضح. من جانب آخر، لا يتناقص فيها الوسط الروحي الأنكى من الطيش والجنون. فقد زال وانمحى الاعتزاز بالماضي والأمل بالمستقبل منذ أمد بعيد. وابتعدت الذهنية عن إعطاء المعنى للحياة، فلم تعد ذات عزم في أي نشاط من أنشطة الحياة. حيث خَبَت جذوة حب التعلم والفهم فيها. أما النقطة التي تصرف كل طاقاتها فيها، فهي إدارة يومها فقط وإنقاذه. لم تتطور أية كفاءة أبعد من النطاق المحلي (الأحباب جاويشية) البسيط، حتى في أكثر الميادين الاجتماعية شمولية. وترتكز كل الأشكال التنظيمية والحزبية إلى المركزية الأنانية المفرطة والغائرة. لأجل ذلك فهي ماكرة خبيثة للغاية، وتقوم بمجازر القيم. أما المأوى الأخير لها، فهو العائلية الرمزية التي ربما تتصدر لائحة الميادين الأكثر رجعية في الحياة، لافتقادها معناها منذ أمد غابر. ويغيب فيها حب الإنسان والإنسانية المثالية بأعماقه العميقة. إذ لا يوجد تعريف للإنسان أصلاً حتى تقدر على حبه ووده. حتى أعظم الوطنيين لديها يتحلون بمنفعية منسوجة بنسيج كثيف من المصالح. باختصار، لم يتبقَّ من عوالم الذهنية التاريخية للشرق الأوسط سوى نسيان كبير، وتَبَنٍّ جاهل، وافتقار تام للإبداع، وأخاديع مضلِّلة لا يمكن حتى تخيلها. ولا تتنازل أو حتى تليق بنفسها التفكير أو العمل على اكتساب الذهنية الأوروبية أو ذهنية الشرق الأقصى. بل ولا تفي قدرتها لذلك.

لن يكون بمقدور هذه التعاريف الذهنية، التي بإمكاننا التوسع فيها أكثر، أن تنوّر أية ظاهرة أو حدث أو مرحلة، أو أن تحلها أو تسفر عن نتائج معينة، مهما انعكست عليها. فالانسداد يكمن في الذهنية ذاتها. وبالتحام بعض القوالب الذهنية، من قبيل الدين والقوموية والاشتراكية، مع هذه الذهنية؛ تفقد نوعيتها ومزاياها الحقيقية، لتتحول إلى وسائل عقيمة. هذا الوضع القائم في الذهنية قاصر عن تحقيق الحل بشأن أية مشكلة كانت. وانطلاقاً من طبيعتها المؤدية إلى افتقارها لقابلية تكوين تركيبة جديدة مع الذهنيات الأخرى، تفقد جميع أطروحات ومشاريع الحل معناها قبل أن تُطرَح للنقاش. فهي لا تستطيع استيعابها من حيث المعنى، ولا حتى إعطاءها. بل ولا يُعثَر حتى على ذهنية قد تُشكِّل موضوعاً في "الثناء والإطراء للجنون" الذي كان شائعاً في أوروبا في وقت من الأوقات.

على الأقل كان هناك عشق أعمى في ذهنية ليلى ومجنون. أما الآن، فلا أثر لأي عشق، حتى لو كان أعمى. والنتيجة هي، النهليستية* والانتحار. إنها المحطة الأخيرة لافتقار الوجود الإنساني معناه. وما بعد ذلك تأتي كل أنواع الطيش والتهور. وهي تحصل فعلاً. ففي أي بقعة من العالم يمكننا رؤية التهورات الحاصلة في الجغرافيا الممتدة من أفغانستان وحتى فاس؟ وإنْ وُجِدت، فكم تدوم؟ سيكون من النقصان تعليل الوضع القائم بالمصطلحات الاقتصادية والسياسية والعسكرية الضيقة الآفاق. يتوارى المرض في الذهنية. ولا مفر من خوض صراع مرير من أجل مزية إضفاء المعنى على الأمور. ثمة حاجة ماسة لاتجاهات من قبيل "المولاناوية"، و"المانوية"، و"النورانية" العصرية؛ والتي طالما نصادف أمثلة لها في تاريخ الشرق الأوسط. فحتى الطرائقية المزيفة مريضة في ذهنيتها لدرجة، إنْ لم يتم تخطيها، فلن يكون بمستطاع أية قيمة مبجَّلة للتاريخ إبداء قدراتها. أما بالنسبة للذهنيات الأخرى الموجودة في هذا العصر، فكمْ سيكون بإمكانها تقديم المساهمات، وهي بنفسها تمر من مآزق وأزمات مهمة؟ لهذه الأسباب بالذات، ثمة ضرورة مُلِحّة لإدراك معنى وأهمية الصراع الذهني، والنضال في سبيله، كإحدى الوظائف المرحلية الأولية.

جليٌّ بما لا يقبل الجدل أن التنوير الذهني الموفق يتطلب بالضرورة شروطاً تمهيدية تتمثل في الإلمام الشامل والجوهري بالتاريخ، بقدر بلوغ آفاق العلم والفلسفة العصرية. ليس هناك إمكانية لتكوين تركيبة جديدة ملتحمة بالتاريخ، ما لم يتم هضم العلم والفلسفة الغربيين. هذا العمل ليس من النوع الذي يمكن القيام به بضروب من الإسلاموية أو البوذاوية.

يتواجد في مرافعتي أيضاً صراع – ليس بأعمى – مع الذهنية الغربية، وإنْ كان على شكل مخطوطة. إنني أسعى بكل وسعي لأكون صادقاً وأميناً وجوهرياً. من المستحيل بالنسبة لي أن تروي الذهنية الغربية ظمأي أو أكتفي بها. حيث تتواجد فيها نقاط ضعف معنوياتية كبرى. لكنها بالمقابل تتسم بتعمق خارق في أغوار المعلوماتية العلمية. والجانب الذي طالما حسدته فيها هو الكفاءة في النجاح في ذلك. لهذا السبب فأنا أُقَدِّرُها. بالإضافة إلى ذلك، فإني واثق كل الثقة بأن مرضاً أو نقصاناً كبيراً لا يستهان به، ينبع من هذا الميدان. أنا مقتنع بأنه لا قيمة لها أبعد من كونها كالراهب العصري على الصعيد المعنوي والأخلاقي. ولا أظن أنهم قادرون على تقييم ودراسة نقاط ضعفهم هذه. فالتوجه بلا هوادة أو رحمة لدرجة يكادون يقضمون فيها الطبيعة والمجتمع ويبلعونهما، إنما يُرعِش الأبدان هلعاً. كان عليهم خلق القيم الأخلاقية أيضاً بقدر معارفهم. كيف تقبلت ضمائرهم وذهنياتهم المتنورة تعرية النظام من الأخلاق؟ مَن، أو ما الذي شل تأثيرهم؟ لربما اشترت السلطة ذممهم منذ زمن بعيد. فطبقة رجالات العلم صار لها أرباب أسوأ مما هم عليه أرباب العمال. إنها تابعة. وهذا ما يسبب خيبتي فيهم ويأسي منهم. بيد أنهم كانوا مقاومين أشاوس أيام النهضة. كم سيكون بمقدورنا حضرنة "جيوردنو برونو"؟ وهل نستطيع مناداة "سقراط" ومحاكاته؟ لا يمكن لأحد الادعاء بزوال هذه الذهنيات العظمى.

يجب عدم الادعاء بذلك، بل إحياؤها. هذا ومن الضروري إحياء وإنعاش أمثال مولانا، منصور الحلاّج، ماني، والسحر وردي. ويجب عصرنة روح وجوهر كل من يتسم بالنبوة. علاوة على أنه يجب العيش بالإدراك بأنهم – بمعنى من المعاني – لم يموتوا، والعمل بالتالي على تجسيدهم. بمقدور هذه الحلقات الذهنية أن تُدنينا أكثر إلى الذهنية الحاضرة اللازمة لنا. وهنا بإمكاني فصل القيم النبيلة لعصرنا عن ذلك. لكن إنعاش المهزومة منها شر هزيمة، لن يترك آثاره الخلاقة بالشكل المطلوب.

إني منتبه كلياً، لدى تَوَلُّد الضرورة الحتمية للدفاع عن شعب، عن الشعب الكردي، وبالتالي عن كافة شعوب الشرق الأوسط؛ بأنه يمثل قوة جديدة، أو بالأحرى قوة محوّلة ومغيّرة. وأُدرك يقيناً بأنه سيستمر في اللجوء إلى هذه القوة السياسية أو تلك، رغم أن ذلك لا يعني سوى العقم واللاحل. بالتالي، فإني متيقظ تماماً إلى أن كل مساندة على هذه الشاكلة ستغذي الضعف، ولن تسفر عن القوة. إذ، قد يكون بإمكانكَ تطوير الذهن عندما لا تلجأ إلى أي ملاك منقذ. وإذا كان بمقدوركَ تحمُّل الوحدة والعزلة، فقد تؤدي بك إلى الذهنية التي يحتاج إليها العصر. لقد تحامل كل نظام العالم عليَّ في أرضية الشرق الأوسط. ولا أهمية هنا إنْ كان حصل عن وعي أو تلقائياً. لكن السبيل الذي كان عليّ سلوكه هو خوض أعظم صراع ذهني، والتسلح بأشد المعنويات رسوخاً في الذهن؛ ما دام نظام الناتو مقابلي يشكل أكبر قوة عسكرية، وما دامت أمريكا وإنكلترا وإسرائيل واليونان المكّارة شاركت بالذات، وعن وعي تام، في إقحامي في عزلة عظمى تتميز بالعديد من الدوافع التي تستوجب أن تكون بهذه العظمة والدرجة المروّعة. إن هذا الصراع الذهني والمعنوي هو القادر على لم شملهم هم أيضاً، وإنهاء الحروب المبتدئة في الشرق الأوسط بنجاح وتفوق لصالحه.

• تحليل الدولة في فوضة الشرق الاوسط

تشكّل سلطة الدولة في الشرق الأوسط حجر عثرة حقيقي على درب الذهنية أيضاً، لِما تتسم به من دحضها للمبادرة المدنية المؤدية إلى انفتاح المجتمع. يسلِّط تعريفها التاريخي الضوء على حاضرنا أيضاً. كما أن ميزتها الاستبدادية لم تتغير كثيراً رغم مساعيها في استتارها تحت أقنعة عصرية كالقوموية والجمهورية والاشتراكية. هذا ولا ينبع سلوكها المتبع في غضون القرنين الأخيرين، من قوتها الذاتية. بل يلعب النزاع والخلاف الموجود داخل لغرب دوراً رئيسياً في ذلك. أما في القرن العشرين، فقد واصلت وجودها عبر حسابات توازناتها التي لعبت بها في التجربتين السوفييتية والفاشية. مع أنها في الحقيقة تعيش أكثر التوازنات هشاشة وتعرضاً للانكسار مع أحلاف السلطة الأساسية الموجودة في العالم. من هنا ينبع التعبير المطلق عليها في نعتها بالدولة العاصية (العاقّة). وبعد انهيار السوفييت تركت الهشاشة مكانها لأحلاف سلطات وحكومات السلطنة الأشبه بالأحلاف الجليدية السابحة في المحيط. إنها تشكل خطر حقيقياً بحالتها هذه. فقد تتمكن

الأطراف الغالبة أو المغلوبة في الحروب، من إيجاد حل في خضم التوازنات الجديدة. أما سلطة الشرق الأوسط، فتَعتَبر الانغلاق تجاه الحل بأنه فن السلطة الأولي. لربما تقوم بذلك تحت ذريعة المنافع الأكثر استبداداً. لكنها تطبقه بتمويهه جيداً بتسميته بـ"المصلحة الوطنية العليا"، و"وحدة وتكامل الدولة والوطن"، و"سلامة المجتمع". في حين أن شعبها يتخبط في العقم السقيم، وتَحَوَّل الوطن إلى خراب وأطلال، وابتعد المجتمع والأمة عن السلامة والأمن. لكنها – مع ذلك – لا تبالي إطلاقاً. فالديماغوجية هي السلاح السياسي الفتّاك لديها. حيث طُوّرت أكثر الأساليب الشعبية دقة وخفية تحت اسم الديمقراطية. واعتُقِد بأن مهارة الفن السياسي تكمن في مواراة الأمور الحقيقية التي تنشغل بها الدولة وتنهمك، عبر أفظع الأكاذيب والمخادعات. وعُرف تبديد الشعب ونثره بين هذا المرمى وذاك ككرة القدم، بأنه أسلوب الإدارة الكفؤ.

لقد تحولت السياسة في واقع الشرق الأوسط الحالي إلى حقيقة سد الدروب بأمهر الأشكال، رغم أنها في حقيقتها تعني فن حل مشاكل المجتمع الحيوية والحياتية. وغدت لا تماثل في قيمتها حتى قيمة السياسة المتزمتة. فالفاشية مثلاً تأتي كحل ضمن ظروفها. أما في الشرق الأوسط، فثمة أشكال أقرب إلى أن تكون بدئية وبدائية، من أن تكون فاشية. يكمن سوء الطالع في أنها أطالت عمرها قرنين آخرين من الزمن بلا أي داعٍ، على خلفية حسابات التوازنات، في النقطة التي وصلت فيها إلى الانهيار، والتي كان يَجب فيها أن تنهار وتتحطم فعلاً. ولدى تعبئتها بالأساليب العسكرية والتكنولوجية المعاصرة، تحولت إلى لوياثان حقيقي.

تكمن الثيوقراطية في أساس الدولة*. ولم تتخلَّ الدولة عنها في أي مرحلة من مراحلها. يجب رؤية الدولة الثيوقراطية في المضمون، لا الشكل. أي، من المهم رؤية المضمون الأيديولوجي الموجود في خميرة هذه الدولة المتنامية في أطراف معبد الراهب في منطقة الشرق الأوسط. حيث من الصعوبة بمكان حث الآلاف من الأشخاص أو تسخيرهم في خدمة المعبد على المدى الطويل بالعنف المحض، ومن دون أواصر الإقناع في الذهنية. من هنا تتأتى ضرورة المزية القدسية والإلهية للدولة. أي أن بناء الدولة وكيانها لا يمكن أن يكون متراصاً ومتيناً وطويل العمر، ما لم يعتمد على الذهنية الحاكمة ويكتسب مشروعيتها، سواء كانت مرتكزة إلى العقيدة الميثولوجية أم الدينية. كانت المخاوف الأساسية التي ساورت "العهد القديم" (الكتاب المقدس)، تتمثل في تأسيس دولة مغايرة للدولتين المصرية والسومرية، اللتين تقفان بكل هيبتهما وعظمتهما على طرفَي الاتجاه النازع إلى الاستحواذ على السلطة لدى القبائل العبرية، التي لعبت دوراً عظيماً في تكوين الدين التوحيدي. إنها نوع من أنواع الدعامة الأيديولوجية للمَلَكية العبرية. نخص بالذكر هنا الفصلَين المتعلقَين بـ"صاموئيل1" و"صاموئيل 2"، اللذين هما أشبه بمانيفستو تأسيس دولة يهوذا (دولة الإله). في حين أن الدين الزرادشتي هو المؤثر الديني المعيّن والمصيري في أساس الإمبراطورية البرسية ـ الميدية. هذا وتُشكِّل المسيحية المورثةَ المشتركة لكافة الدول الأوروبية بعد عهد روما. أما الدولة الإسلامية، فهي الدين بعينه منذ لحظة ولادتها ونشوئها. كل دول العصور الوسطى الإسلامية تَعتِبر نفسها دولة دين،

كشرط أولي لا غنى عنه. من جانب آخر، لا تزال الشيعية الإسلامية، التي حلت محل الزرادشتية هنا، تشكل الأيديولوجية الرسمية للدولة. والإسلام هو الأيدولوجية الرسمية ودين الدولة في كافة البلدان العربية. حتى جمهورية تركيا، التي تعلن عن ذاتها بأنها علمانية، تمتلك أوسع قطاع من الكوادر الدينية (أيديولوجية الإسلام السُّنّي الرسمية). أي أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي. باكستان وأفغانستان هما دولتان إسلاميتان رسمياً. كذلك إسرائيل هي دولة دين.

يظل إدعاء "الدولة العلمانية" زعماً طوباوياً، ما لم يمر من ثورة جذرية. حينها لا يمكن الحديث سوى عن دولة دينية، سواء كانت علنية أم مستترة. ولا يمكن للدولة أن تبلغ سمتها العلمانية الحقيقية، إلا عندما تتحول إلى مؤسسة معنية بالأمن العام والمصلحة العامة الضرورية، وتتطهر بالتالي وتتملص من حباكها وخصالها الدينية.

ثمة تدويل للمجتمع على نحو لا نظير له في أي نظام معاصر. فبقدر ما تُعَظَّم الدولة وتُضَخَّم على حساب المجتمع، تظن نفسها قوية بذاك القدر. حيث يُرى الأمن والقوة في الدولة التوتاليتارية، التي لا تنقص فيها أبداً صفات الدولة التقليدية المقدسة، الدولة الأم، والدولة الأب (أي، دولة الأسلاف). هكذا تحولت مقولة "الإطعام من الدولة" إلى تعبير كلاسيكي راسخ. تنهب الدولة من الأمة أولاً. ومن ثم تُظهِر نفسها كالمُحسن الذي يوزع الصَدقة على الشحاذ؛ لتغدو بذلك أخطر من أخطر النهّابين المختلسين. ما من سيئة يصعب القيام بها بالاعتماد على الدولة. لذا، فدوافعنا كثيرة في قولنا بأن الدولة الراهنة هي لوياثان حقيقي. لكن المؤلم في الأمر أن هذه الدولة تُعتَبَر باب الرزق والعمل الأساسي بالنسبة للشعب. أي، يتم انتظار كل الخدمات الحيوية والمصيرية الخالقة لكل شيء، من الدولة التي تجفف كل شيء وتنضبه.

من المستحيل التغلب على أية مشكلة اقتصادية أو اجتماعية، دون تحليل الدولة الشرق أوسطية. هذه الدولة بحالتها الراهنة، التي لا تشبه الدولة العليا للحضارة الديمقراطية التي تَوَجَّه الغرب صوبها، ولا تشبه أيضاً الدولة الفاشية العلنية وغير المستترة؛ إنما تشكل منبع كافة المشاكل. وإعادة بنائها مجدداً شرط مصيري. لا تكمن المشكلة في التصنيفات التي طالما تُطرَح في الميدان؛ من قبيل "الدولة الأحادية المركزية، المحلية، الفيدرالية". بل يتطلب الأمر وجود الدولة اليقظة تجاه الحل. أو بأقل نسبة، يجب إخراج الدولة من كونها حجر عثرة على درب تحرير الفرد ودمقرطة المجتمع. أي، يجب تنشيطها أيضاً إلى جانب تحجيمها.

علاوة على أنه يجب أن تتخلى عن كافة مؤسساتها وقواعدها وأحكامها الزائدة، فيما عدا الأمن العام والمصلحة العامة الحقيقية والعقلانية. وبدون تطوير إصلاح الدولة على خلفية هذه الأسس، فإن أية مشكلة سيتم تناولها ومعالجتها، لن تتخلص من دفعها نحو العقم واللاحل، بسبب وجود الدولة الفظة والثقيلة والكسولة.

إننا الآن وجهاً لوجه أمام مشكلة سلطة دولة تفرض ذاتها بشكل أشد حدة من كل وقت مضى. تتمثل المهمة الأساسية في خلق إمكانية الحل أو الوفاق الديمقراطي المبدئي بصدد الدولة، دون الوقوع في مرض الدولة الديمقراطية الاجتماعية، أو التحررية

الوطنية، أو الاشتراكية المشيدة، الذي كان شائعاً في الماضي القريب، ودون الوقوع أيضاً في مخادعات ومغالطات من قبيل الاستيلاء على الدولة ذاتها بالتساوم والوفاق معها، أو على الجديدة منها بهدم القديمة. من الضروري إدراج هذه المهمة في لائحة أهداف كافة العمليات السياسية. تُشكِّل النسج الاجتماعية في الشرق الأوسط الساحات التي تشهد الأزمة بأشد درجاتها وطأة وكثافة. كذلك تمر المؤسسات الإجتماعية، وعلى رأسها مؤسسة العائلة، العشيرة، المدينة، القرية، البطالة، الجماعة الدينية، المتنورون، الصحة، تدريب الجماهير وتعبئتها؛ بأكثر مراحلها تأزماً وعدمية (النهليستية). ويذكِّرنا البدن الإجتماعي المطوَّق من الأعلى بالأيديولوجية والسلطة الحاكمة، والمحاصَر بالضغط الاقتصادي الذي لا يروي الظمأ ولا يلبي الحاجات من الأسفل؛ يذكِّرنا بالمريض المتورّم البدين والهزيل الواهن في نفس الوقت. بالطبع، فهذا الهزل لا يشبه ذاك الهزل الحقيقي الموجود في أمريكا أو الأتحاد الأوروبي. بل هو أشبه بهزل الطفل الأفريقي المتورم البطن. حيث افتقر الناس لفعاليتهم ونشاطهم بنسبة كبيرة في هذه المؤسسات المكوِّنة للنسيج الإجتماعي. لم يعد لهذه المؤسسات أي دور ذي معنى. والمقاهي المتفشية في الأرجاء كافية لوحدها لإفهامنا بماهية الحقيقة. حيث تَحَوَّل الواقع المؤ سساتي، الذي يجب أن يكون وسيلة لتحول الفرد الاجتماعي وتطوير علاقاته الاجتماعية، إلى حالة أشبه بالفخ المنصوب لاصطياد الإنسان. يقود الافتقار إلى الصحة والعلاقات الاجتماعية، إلى مستوى أعلى من التردي والانحطاط والأزمات. وما "العربيسك" سوى فن مريض يعكس هذه الحقيقة. أي أنه ليس بنسيج اجتماعي آتٍ من الخارج. بالإضافة إلى أنه لم تتطور أية آلية دفاعية تجاه الهجمات المحتملة.

لأجل هذا تغيب التعبئة الذهنية والمعنوياتية اللازمة من الأوساط. هذا وقد ضمرت ردود فعل الثورة الاجتماعية بنسبة لا يستهان بها، بسبب تحديد الكيان الاجتماعي من قِبَل الكيان السياسي. يندر وجود نشاط اجتماعي تلقائي لا ينبع من الدولة أو السياسة الديماغوجية. أما العلاقات الاجتماعية، فيصعب عليها أن تنشط خارج نطاق التسيس والعزف على بوق الدولة. هكذا تم تعويدها. حيث يتم تفعيل المبدأ على النحو التالي: "الاقتصاد يضيّق الخناق، والدولة تحث على الكلام". أما بحث المجتمع عن الحل ومساعيه بشأن المجتمع المدني على أساس مصالحه هو، فهي محدودة النطاق

• المراة هي القوة من اجل العملة الديقراطية

بالمقدور مراقبة المأساة الاجتماعية التي يحددها العقم والظلم السياسيَّين، ضمن واقع المرأة بالأكثر. حيث يصعب التفكير في نمط حياة للمرأة خارج إطار كونها أسيرة التقاليد الدولتية والهرمية، الممتدة على طول خمس آلاف سنة. لا تنبع الصعوبة هنا من التقاليد وحسب. بل إن القيم الأنثوية التي أفرزتها الحضارة الأوروبية أيضاً مدِّمرة في

تأثيراتها، بقدر التقاليد الدوغمائية كأقل تقدير. حيث تدخل المرأة في أعقد حالات الحيرة والارتباك حقاً، من ذهولها إزاء ثقافة تصل حدود الإباحية من جهة، وثقافة تُلبِسها البرقع الأسود الداكن من جهة أخرى.

تُشكِّل المرأة الشرق أوسطية عاملاً مزيفاً أقدم من الدولة ذاتها. حيث قُلِبَت كل فضائل الأنوثة وجنس المرأة رأساً على عقب. وضُمِّنَت كل ما تمتلكه من مزايا تبعث على الفخر والاعتزاز والمشاطرة، ضمن هيمنة القانون الأخلاقي. وغدا النشاط الأولي والوحيد بالنسبة للمرأة المتحولة إلى أثمن مُلك للرجل الذي خرج من ذاته بسبب التقاليد الدينية، يتمثل في الطاعة المطلقة لرغبات رَجُلها. ما يمثله الإمبراطور بالنسبة للدولة، يمثله الرجل عموماً، والزوج خصوصاً بالنسبة للمرأة. أما القرار المشترك والوفاق مع المرأة، فهما عيب وعار في لغة الرجولة. في حين تجد التبعية العمياء غير المضبوطة بأي مبدأ تجاه الزوج، تعبيرَها في الأخلاق بأنها فضيلة مثلى. إن المرأة على مسافة شاسعة من أن تكون قادرة على الدفاع عن ذاتها بحرية بأنها هي أيضاً جسد وروح. كما وهُمِّشَت وسُلِبَت منها قواها من قِبَل النسج السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لدرجة باتت تبحث فيها عن رجل تتبعه بعبودية عمياء بكل مافي وسعها. لقد أُقحِمَت في حالة أنكى من الموت ذاته. وبما أن شقيقاتها من بنات جنسها يقبعن في الحالة نفسها، تكاد تنعدم النساء القادرات على فهمهن ووعدهن بحياة إنسانية حقة. هذا الواقع الثقافي المطوِّق للمرأة يفرض عليها الرضوخ الدائم، بحيث يصبح تحطمها وانكسارها أمراً أكيداً مهما قاومَت؛ اللهم إلا إذا فكرت في الانتحار! ومن بعدها تُسلَك جميع الأساليب الأنثوية الدنيئة الرزيلة، وتُدخَل تلك الأساليب في كل طرف فيها كإشارة تدل عليها.

إن الأنوثة حقاً أصعب مهنة. فبينما تمر فترة العزوبة والعذرية كما الطعام الشهي الممدود على مائدة الذئاب الجائعة، تنتهي فترة الأمومة بالآلام الأليمة التي لا تنضب، نتيجة عمليات الولادة المتكررة. وتتحول تنشئة كل طفل إلى عذاب جسيم بحق. علاوة على أن آمالها تخيب وتخبو في حياة لا تَعِد بأي أمل من أجل ذاك الطفل. هكذا تضاف آلام جديدة إلى آلامها المتكدسة. لذا، تتصدر حالة المرأة وموقعها الاجتماعي لائحة الممارسات المجحفة وعديمة الرحمة في منطقة الشرق الأوسط.

تتحقق عبودية الشعوب أولاً في المرأة. إن القول بأن واقع المرأة يحدِّد الواقع الاجتماعي بنسبة كبرى، هو اقتراح صائب. تُشكِّل الذكورة المفرطة والأنوثة المفرطة ثنائية (قريناً) جدلية في المجتمع الشرق أوسطي. وما يرجع إلى الرجل من هذا النمط من العلاقات، ليس سوى خصائص مضادة تتمثل في الرجولة المهيمنة الجوفاء. حيث يعكس الرجل الهيمنة التي تطبقها السلطة عليه، على المرأة، لتعكسها هي بدورها على الأطفال. بالتالي، تكتمل فاعلية الهيمنة من الأعلى نحو الأسفل. يسفر مستوى عبودية المرأة في هذه الآلية عن أكثر الظروف سلبية وسوءاً. أي أنه يطِّور على الدوام من مستوى عبودية المجتمع. هكذا يصبح بإمكان حزام السلطة الأعلى توجيه المجتمع الأنثوي المتولد، بكل سهولة. أما المرأة، ورغم الظلم القاسي المفروض عليها رغماً عن إرادتها؛ فقد تحولت إلى وسيلة لتطبيق الظلم الأكبر على المجتمع أيضاً. جلي كل الجلاء مدى الصعوبة التي

يلاقيها الشرق الأوسط من الداخل، بسبب العلاقات المفروضة على المرأة، بقدر الصعوبات الناجمة عن العلاقات الخارجية المفروضة عليه، والمقحِمة إياه في الاستسلام والخنوع.

انطلاقاً من هذه البواعث، فإن فرصة أي حركة في بلوغ المجتمع الجوهري والحر الراسخ، تكون محدودة ما لم تعتمد على عملية حرية المرأة. وعجز التوجهات المنادية ببلوغ السلطة والاشتراكية والتحرر الوطني وغيرها أولاً، عن الوفاء بوعودها وتحقيق المراد؛ إنما يَمُتّ بِصِلة بهذه الحقيقة. يشكل نضال حرية المرأة مضمون المساواة الاجتماعية والديمقراطية وحقوق الإنسان العامة، والتي تتجاوز إلى حد كبير إطار المساواة الجنسية.

تتمثل الخطوة الأولى الواجب خطوها على درب حرية المرأة في إيصالها إلى حالة قوة عملياتية جوهرية، والابتعاد عن المواقف التملكية المفروضة عليها. فمواقف العشق الدارجة كالموضة، والمشحونة بعواطف المُلكية، تحمل بين ثناياها العديد من المخاطر والمهالك. العشق في المجتمع الذي تشيع فيه التقاليد الهرمية والدولتية، هو عبارة عن أفظع المغالطات والمخادعات. وهو العامل المؤثر في مواراة الذنوب المقتَرفة. يمر تقدير المرأة واحترامها، ومؤازرة حريتها أولاً من الاعتراف بالواقع المعاش، ومن إبداء الصدق والأمانة الحقيقيين في تجاوزه لصالح الحرية. حيث لا يمكن لرجل أن يتمتع بقيم الحرية السليمة، ما دام يُحُيي رجولته المهيمنة ـ أياً كان اسمها ـ في المرأة. ولربما كان تأمين تعزيز المرأة وتقويتها من الناحية الجسدية والروحية والذهنية، هو أثمن المحاولات والمساعي الثورية. أما إيصال المرأة إلى قوة إعطاء القرار وتحديد الاختيار باستقلالية وحرية على خلفية القيم الاجتماعية المتطورة، ومساهمتها في ذلك؛ فيتطلب بسالة حقيقية في الحرية، ضمن ثقافة الشرق الأوسط التي كانت نواة قوة الإلهة الأم في وقت من الأوقات.

• الاقتصاد

تتسم مرتبة الظاهرة الاقتصادية ضمن الواقع الذهني والسلطوي والاجتماعي العام السائد بإكمالها للتكامل الإجتماعي. أما الاقتصاد الليبرالي، فلا مكان له بين التقاليد والحاضر. حيث يمنح إمكانية تحول الدولة إلى أكبر دولة احتكارية تُسَيّر الاقتصاد تماشياً مع السلطة السياسية. وبينما يُحدِّد الاقتصادُ السلطة نسبياً في الحضارة الغربية، نرى أن السلطة هي المحدِّد الأصلي في اقتصاد الشرق الاوسط. أما القوانين التي تُعَتبَر خاصة بالاقتصاد، فتتفعَّل كثيراً في الثقافة الطبيعية (الجيوثقافة) للمنطقة. فهناك اقتصاد العائلة المنزلي المتبقي من العهد النيوليتي من جهة، واقتصاد الدولة من الجهة الثانية. أما فيما بينهما، فيتواجد الحِرَفيون والتجار التابعون للدولة. لا تجد الطبقة الوسطى فرصتها في التأثير على الدولة والسياسة إلا بحدود، إعتماداً على قوتها الاقتصادية. لا يمكن إدارة

وتسيير شؤون الدولة دون الاقتصاد، باعتباره المنبع الذي لا غنى عنه إدارياً. لن يقل تأثير الدولة الشرق أوسطية على الاقتصاد، إلا بإعادة بنائه كلياً حسب النموذج الغربي. توضح هذه الحقيقة الشائعة في المجال الاقتصادي معنى مصطلح "الدولة التجارية" الدارج على مر التاريخ. أما اندلاع العديد من الحروب اعتماداً على الطرق التجارية، وانهزام العديد الآخر منها بمجرد انقطاع تلك الطرق عنها؛ فهو منوط بالسمات الاقتصادية. فبينما حققت الدولة الغربية تطورها الأصلي بالاعتماد على تكديس رأس المال وعلى التصنيع؛ قامت الدولة الشرقية بتحقيقه عن طريق التجارة وعمليات الاستيلاء والسمسرة. حيث تُسخِّر القيم التي جمعتها في شؤون إدارة الدولة، عوضاً عن الاعتماد في ذلك على التراكم والصناعة. بل حتى إنها ترى كل شيء عائد للمجتمع والوطن، وكل الموارد الباطنية والظاهرية، والإنسان ذاته؛ بأنه مُلك لها، فتقوم ببيعه سالكة بذلك أقدم دروب المكر السياسي. إنه أشبه بأسلوب توزيع الناهب المختلس للصدقات.

بناء على هذه التعاريف؛ لايمكن تحقيق التطور الاقتصادي في منطقة الشرق الأوسط، إلا بانهيار الوضع القائم في المجتمع. أما اتحاده مع الاقتصاد العالمي، فهو صعب المنال في ظل بنية الدولة الحالية. هذا ومن العسير على البنية الاقتصادية للنظام الوالج في حالة تامة من الأزمة والفوضى، أن تَحُول دون انهيار المجتمع المتسارع، بحالتها الموجودة. تنبع ولادة الحاجة لسلوك الأساليب الاستبدادية الأكثر قساوة، من ضرورة إيقاف هذا الانهيار الحاصل.

لهذه الأسباب بالذات ساند النظام الغربي الاستبدادَ لمدة طويلة. نخص بالذكرهنا مآربه في أخذ حصة الأسد من الغنى النفطي الموجود، وفي إعاقة الحركات التي بمقدورها مضايقة النظام القائم. لكن هذا الأسلوب يَدُرُّ بالضرر أكثر من الربح في راهننا. فبينما تؤدي فاقة الجماهير المفرطة إلى انخفاض مستوى الطلب، تصل بوجود هذا النظام إلى حالة يفقد فيها معناه. تُوضَّح هذه الآلية بكل جلاء من خلال المجريات الحاصلة في أطراف النظام العراقي. فبينما يصبح ضبط ومراقبة الجماهير التي انخفضت قدرة الطلب لديها أمراً صعباً، تدخل بنية الدولة المستبدة في حالةٍ تشكل فيها عائقاً جدياً أمام النظام العالمي. ويشكل الانحصار من كلا الطرفين الأرضية المادية لمشروع الشرق الأوسط الكبير المطروح إلى الميدان.

باختصار، وصل الوضع الراهن في الشرق الأوسط إلى حالة لا يمكنه الاستمرار فيها. لقد تمكن من إطالة عمره قرناً من الزمن، بالاعتماد على سياسة التوازنات التي خلقتها ألمانيا الفاشية وروسيا السوفييتية. أما انهيار كلا هذين النظامين، فقد حَدَّ من نطاق سياسة التوازنات الجديدة بدرجة عليا. أما الثنائيات من قبيل أمريكا ـ الاتحاد الأوروبي، وأمريكا ـ الصين؛ فهي لن تسمح بألعوبة جديدة من التوازنات. ولنفس الأسباب لا تتسم مساعي التعاضد الأخيرة التي تتزعمها تركيا، بإمكانيات التطور. حقيقةً، تُشكِّل أحلاف السلطة التي لم تلتحق بالنظام السائد ضمن مقاييس مقبولة، أخطر ساحات عالمنا الراهن، بقدر تميزها بالحيوية والديناميكية. حيث وصلت أحلاف السلطة، التي لا تسمح أبداً بتحرر الفرد أو دمقرطة المجتمع؛ حدوداً لا يمكن للنظام العالمي الحاكم أن يقبلها.

فرضت أمريكا ـ التي تتزعم إمبراطورية وحلف الفوضى ـ ضرباً من الحرب العالمية الثالثة، باحتلالها للعراق وأفغانستان، وعلى نحو يطابق دخولها في الحربين العالميتين. وبينما يُحَثّ الناتو على التوجه نحو المنطقة، تُبْذَل المساعي من الجهة المقابلة لتحييد وشل تأثير القوى المهمة كالصين والهند وروسيا، ولتأمين الحل والخروج من الفوضى عبر مشروع الشرق الأوسط الكبير. لكن ـ وبالمقابل ـ ثمة حلول ديمقراطية حرة متساوية بارزة يمكن أن تشكل الخيارات التي تفضلها الشعوب.

ساطع كلياً أننا نمر بمرحلة فوضى. وقد شهدنا مراحل مشابهة في الحربين العالميتين أيضاً. وقد أدت الاتحادات السوفييتية في الأولى منها، وألمانيا الفاشية في الثانية منها، إلى تكوين أحلاف السلطة المختلة أثناء خروجهما من مرحلة الفوضى. أما الدول المتمخضة من بقايا الإمبراطوريتين العظيمتين ـ العثمانية والإيرانية ـ برمتها؛ فكانت عاجزة عن الجزم بالنظام السوفييتي والنظام الغربي الكلاسيكي على السواء. بل تمكنت من الوصول بوجودها حتى أعوام التسعينات بالاستفادة ـ فقط ـ من توازنات القوى بين الأنظمة الموجودة. ومع اختلال التوازنات بانهيار السوفييتات، زادت أجزاء السلطة من مهذاريتها وطيشها. كان من المحال عليها الاقتراب بهذا النحو من النظام العالمي الجديد الحاكم. لهذا السبب لجأت أمريكا إلى دخول المنطقة بالائتلاف. فحالة الأزمة والتجزئة داخل النظام تتسم بكونها فوضى متفشية بكل معنى الكلمة في عموم المنطقة. لذلك، لا يمكن إهمال أو إغفال تشبيهها بالحرب العالمية الثالثة ضمن شروطها الخاصة بها. في الحقيقة، ثمة ائتلاف معني بالحسابات المتبقية والعالقة منذ بُعَيد الحربين العالميتين الأولى والثانية. فطرحُ الانظمة الاستبدادية الجديدة إلى الميدان، لا يتناغم ولا ينسجم مع منطق العولمة. والنظام مُجبَر على الانفتاح أمام حشود الشعب الغفيرة وطلباتها، لا أمام أحلاف الدول. هذا ما يتطلب بدوره أخذ النصيب الوافي من التعددية والتنوع، ومن الديمقراطية. هل يمكن أن يتواجد طَور جديد في طور الإمبريالية؟ كم هي مدى واقعية شعار "الإمبريالية الديمقراطية" (ضمن مقاييس النظام السائد)؟ هل ثمة خيارات أخرى؟ ماذا علينا أن نفهم من مصطلحَي"الإسلام المعتدل" و"أنموذج تركيا"؟ كم بالإمكان أقلمة وملاءمة النماذج الغربية الديمقراطية؟

مقابل ذلك؛ ماذا تعني العولمة الاجتماعية الديمقراطية بالنسبة للمنطقة، بعد أن باشرت بإصدار صوتها والجهر به ـ ولو بشكل هزيل ـ مع اجتماعات بروتو آلاغرا؟ هل يمكن التخطيط لفيدرالية الشرق الأوسط الديمقراطي على شكل يوتوبيا واقعية؟ أبمقدور الفيدرالية العراقية الديمقراطية أن تكون أنموذجاً مصغراً لهذا الاتجاه؟ من هنا، ثمة الكثير من الأعمال التي تقع على كاهل علم الاجتماع والأخلاق في هذه المراحل من التاريخ. حيث يتميز علم الاجتماع الخارج عن دائرة احتكار "السلطة ـ المعرفة"، والمتجاسر على تكوين علمه الذاتي الخاص به؛ بأهمية مصيرية من أجل صياغة الحلول المثمرة في الخروج من الفوضى. أي ثمة حاجة ماسة لتكوين وبناء علم اجتماع جديد أولاً، بغرض بناء مجتمع أيكولوجي، أكثر ديمقراطية، ويتميز بسيادة الحرية الجنسية فيه. ما نسعى للقيام به هنا هو رسم مخطط لهذا العمل النبيل والباعث على الحماس والنشوة.

2 – إذا كنا سنقَيِّم تاريخ 11 أيلول 2001 بأنه حقاً نقطة انعطاف مهمة، فعلينا إذن أن نراها كمرحلة استراتيجية للحرب المبتدئة بعد الحرب الباردة (لنُسَمِّها بحرب ما بعد الحداثة)، لا أن نراها كبداية للحرب العالمية الثالثة. كم لعبت المؤامرة دورها في ذلك؟ هل كانت استفزازاً أو إثارة من قِبَل النظام العالمي؟. يبقى الجواب عن كافة هذه التساؤلات المطروحة مجرد تفصيل، إزاء المستجدات الموضوعية. فقد وَجَد العديد العديد من المفكرين والقوى البيئية والسياسية، أن الانطلاقة الأمريكية لا معنى لها، وأنها منافية للقانون الدولي والأخلاق. وأعربوا عن ردود فعلهم وسخطهم. ورغم كل العراقيل المزروعة، إلا إن القوة الآمرة للنظام قامت بحملتها على الصعيد الاستراتيجي.

كل التحليلات التاريخية والاجتماعية التي قدمناها حتى الآن، تنظر بعين واقعية إلى التحرك الأمريكي كإمبراطورية في خضم الفوضى. ورؤيتها بأنها منافيةً للأخلاق والقانون لا تعيق كونها واقعية. تساور الريبة والمخاوف العميقة العديد من الدول القومية في هذه المرحلة، وعلى رأسها الدول القومية الديمقراطية الجمهورياتية في الاتحاد الأوروبي. قد تكون مُحِقَّة في مخاوفها تلك، ولكنها ليست واقعية، حيث تستمر عولمة الأنظمة وتحولها إلى إمبراطوريات منذ أيام الدولة الأكادية في عهد سارغون. هل يمكن الاستغراب من استمرار وجود الإمبراطوريات العالمية المتواصلة منذ ذاك الوقت بإضافة المئات من الحلقات الجديدة إليها، والمقدَّمة أخيراً من قِبَل إنكلترا والسوفييتات إلى أمريكا ـ دون أي صراع يذكر – لتستفرد بها لوحدها؟ بالمقدور النقاش حول مدى عمق الأزمة التي تمر بها الحملة العالمية الثالثة الكبرى للرأسمالية. وبالإمكان سرد مزايا الفوضى السائدة فيها. تؤكد كل هذه الوقائع مدى صحة احتياج الطراز الإمبراطوري المرحلي لإدارة معينة. حيث يُنَوَّه بكل إصرار إلى أن الدول لا تعرف الفراغ، وأن السياسة لا تستسيغ الفراغ في كل مكان تسود فيه الحضرنة (التحول إلى حضارة). إذن، والحال هذه، لا مناص من مواصلة أمريكا للتوسع والانتشار، انطلاقاً من دواعي النظام القائم، بعد أن استحوذت على الثورة العلمية والتقنية مؤخراً، وفرضت ريادتها في هذا المجال، وبعد أن كوَّنت لديها قوة عسكرية واقتصادية عملاقة. الأمر كذلك كضرورة من ضرورات طبيعة السياسة والدولة. وقول ذلك لا يعني القول بأحقيتها.

كما أن القول بأن عهد الدولة القومية قد مضى، لا يفيد بالمصادقة على الإمبريالية العالمية. فغالباً ما نظر الاقتصاد العالمي إلى هذا النمط من الواقع العسكري والسياسي بأنه عقيم ومكبِّل للأرجل. والدولة القومية ليست بدولة مستقلة كلياً، على حد الزعم القوموي. بيد أنه لا وجود لمصطلح "الاستقلال التام" في أي ظاهرة من عالم الظواهر. فالبقاء ضمن الروابط تصنيف كوني. ولا وجود لأي مادة أو ذات لا تكون ضمن تبعية متبادلة. أما قَنَشية استقلالية الدولة القومية، فهي من يوتوبيات البورجوازية الصغيرة. فلا استقلال الدول، ولا استقلال الشعوب ظاهرة متحققة. بل ثمة تبعية كل واحد للآخر ضمن خواص متغايرة. وما الاتجاه الإمبراطوري الذي تفرضه أمريكا سوى ضرب من التبعية بأكثر أشكلها مرونة ورخاوة. حيث لا يعمل أساساً بالأساليب العتيقة التي عفا عليها الزمن، كالاستعمار الفظ والمسح الإثني والتعصب الديني. بل وحتى إنه يجرب أشكال تبعيةٍ ما

بعد الحداثة في استعماره الحديث. بيد أن عدداً غفيراً من الدول القومية ترى في التبعية إلى أمريكا بمثابة جائزة لها، انطلاقاً من بناها الإدارية.

لا تتم إزالة الدولة القومية من الميدان. ولكن لا يُسمَح لها أيضاً بحركاتها المهذارة، مثلما كانت عليه في السابق. أي لا مهرب من إعادة مَوقَعَة الدول القومية في مرحلة العولمة الجديدة. تستمر هذه المرحلة بدءاً من الاتحاد الأوروبي إلى الصين، لا بغرض شن حرب جديدة، بل بهدف إنهاء الحرب المندلعة والمستمرة، أو إسقاطها إلى مستوى معجزات رابحة ومفيدة للنظام القائم. يقوم النظام بتوجيه إدارة الفوضى عبر الأساليب الاقتصادية أو السبل العسكرية، حسبما تتطلبه الحاجة. وذلك إما بالحفاظ على وضعها الموجود وإعاقة تقهقرها، أو بتوجهه نحو إعادة بنائها بشكل أكثر إثماراً. كما يسعى إلى تحقيق مخططاته البديلة عبر صياغة حلول وطيدة خارج نطاق الفوضى.

إذن، كيف يمكننا التنبؤ مسبقاً بالمستجدات المحتملة ضمن هذا الإطار، لدى تقربنا من واقع الشرق الأوسط؟

يجب الإدراك يقيناً أن أمريكا تُسنِدُ وجهة نظرها إلى العالَم الظاهراتي إلى الثورة العلمية وطرازها التفسيري للواقع الديني والفلسفي. كما أنها تطوِّر من نماذجها ومشاريعها على الدوام، بإدراجها الآلاف من الآراء والأفكار (thing _thang)* حيز التنفيذ، وبمراقبتها الدائمة للمعطيات، وقيامها بالترتيبات والإجراءات، دون الوقوع في الدوغمائية كثيراً. هذا وتسعى لإضفاء المعاني عليها بالعثور على المقومات التاريخية لنماذجها، دون غض الطرف عن سياق التطور التاريخي. كل ذلك يزودها بفرصة بلوغ مفهوم مرن ومتعدد الخيارات في مشاريعها تلك.

علاوة على أنها تعمل أساساً بمشروع الشرق الأوسط الكبير ـ حسب التعبير الراهن ـ منذ بُعَيد عام1990 وفق مضمون يقوم بتحليل الماضي القريب، ويسعى إلى تحليل المشاكل الحالية. حيث ترى أن النظام الذي أنشأته فرنسا وإنكلترا بعد الحرب العالمية الأولى، خاطئ وناقص. كما ترى أخطاءها في ممارساتها التي طبقتها بعد الحرب العالمية الثانية، والتي عززت من الاستبدادية بذريعة ترسيخ الأمن والاستقرار؛ فتقترب منها بانتقاد للذات. وهي مدركة أيضاً لأضرار ومخاطر العَوَز والفاقة المفرطة لشعوب المنطقة، بالنسبة لنظامها. لهذا الغرض فهي تود تأمين التطور الاقتصادي والحريات الفردية والدمقرطة والأمن، بشكل متداخل. بالتالي، فهي ترغب – عبر هذا الأنموذج – في حل المشاكل المزمنة لكل من العرب – فلسطين، والكرد – العرب، والترك – إيران من ناحية، وفي حل وتفكيك النسيج الاجتماعي المنبثق من الاستبدادية من الناحية الأخرى؛ لتعيق بذلك حدوث انفجارات جديدة. أي، ثمة في الميدان ضرب من ضروب مخطط مارشال الأوروبي والياباني الجديد، والمؤقلَم حسب شروط المنطقة. إذا كانت المنطقة مهمة بالنسبة للنظام القائم – وهي كذلك فعلاً – وإذا كانت تمر بمرحلة مشابهة للفوضى؛ فإن فكرة صياغة مخطط معتمد على هذه الأهداف، ضرورية وواقعية في آن معاً. بل وقد بقيت متأخرة في ذلك. كل الخطوات المخطوة من قِبَل النظام تتحول تدريجياً إلى محور للمخطط. هكذا تتكاثف محاولات ومساعي المشروع.

لكن المشقة الكبرى المنتصبة أمام ذاك المشروع هي حالة الشرق الأوسط المختلفة كثيراً عن كونها يابان أو أوروبا منهارة ومتحطمة. حيث لم يشهد الشرق الأوسط مرحلة التنوير، ولا الثورة الصناعية. ولم تُطرَح الدمقرطة بعد في جدول أعماله. لذا، لا يمكن القيام بتحديث من الطراز الأوروبي أو الياباني، دون دك دعائم النظم السياسية الاستبدادية ذات النسيج المذهبي والإثني المشحون بالقوموية والديانوية التي تذهب أبعد من إطار الفاشية. فالنظم الدارجة حالياً لا تسفر سوى عن الأزمات الدائمة. وأحلاف الدول المحلية المكّارة الخبيثة، إنما هي ماهرة وخبيرة بشأن صون وجودها، أياً كان الثمن. أما البارزون تحت اسم "معارضة النظام"، فليسوا سوى مطّاطاً احتياطياً للاستبدادية عينها. وهدفهم الأولي هو الدفاع عن الدولة وحمايتها. إذن، فحيثيات مفهوم الدولة الإله أقوى مما يُظَن في رسوخها. إن الدولة الحالية فارغة الفحوى، ولا تمتلك أية فاعلية تاريخية. إنها الأقوى بين الجماعات الموجودة. وهي تتمخض عن الأفراد، مثلما يتمخض الأفراد عنها. وأكثر المعارضات ادعاءً للثورية، لا تَسوق إلى هدف أبعد من التفكير في كيفية بلوغها إلى إدارة حسنة للدولة.

من جانب آخر، تكشف المنطقة عن سمات فيدرالية على الصعيد التاريخي. بالتالي، فهي لا تطيق تحمل العشرات من الدول القومية. فحتى العدد الحالي للدول الموجودة لا يفرز سوى العقم. هكذا تدخل المذاهب والبنى الإثنية والطرائق الدينية وغيرها من الجماعات وأشكال المجموعات، في مرحلة تغذية متبادلة لبعضها البعض، بربطها الدولة بذاتها. والعقم يكمن في هذا الكيان بالذات. وهو عينه الكيان الذي طالما غذته الدول الغربية. إذا كان المشروع يرمي إلى الحظي بالنتائج المرتقبة سلفاً، فمن الضروري وضع هذه الأنظمة جانباً قبل كل شيء.

تواجه أمريكا ورطة ومأزقاً حقيقياً، بكل ما للكلمة من معنى. فقد خطت خطوة بعد حادثة 11أيلول، بحيث قد تعزز نتائج أشد وطأة مما أسفر عنه دخولها للحربين العالميتين. لم تكن النتائج المتمخضة عن الحرب العالمية الأولى عميقة كثيراً، ولم تبلغ أبعاداً تؤثر في مصير النظام. بل كانت كشفت النقاب عن أهمية أمريكا. حيث، وحتى لو كانت هُزمت في الحرب، لكان بمقدورها حينئذ الانسحاب إلى قارتها ومواصلة وجودها فيها بكل سهولة. كما استطاعت تطويق النظام السوفييتي بُعَيد الحرب العالمية الثانية، وحافظت على قوتها وعززتها أكثر، رغم خسرانها لبعض المواقع والخنادق الحربية. في كلتا الحالتين أيضاً كانت تنشغل ببنى الدولة الأكثر حداثة، والتي كانت تتشاطر نفس الثقافة المسيحية. بالتالي، فقد كانت المؤثرات المعمِّقة لصراع الحضارات محدودة. ولو أن مؤثرات الفوضى بدأت بالظهور في تلك الأوقات، إلا إنها لم تكن بأبعاد مهدِّدة للنظام.

أما في الشرق الأوسط، فلا يمكننا العثور على عوامل محاكية أو متماشية مع هذه النتائج. فإما أن تضع نصب عينيها محاربة نظام مستبد ومتزمت منذ أعوام 1250، وإلا، فعليها الانسحاب. فالحروب من قبيل ما حدث في أفغانستان والعراق غير كافية. وكل خطوة ستُخطى، لن تعني سوى الفشل الذريع، إن لم تتحطم أحلاف السلطة في المنطقة. أما تكتيكات الاستناد إلى دولة مستبدة في حل وتفكيك دولة أخرى، فهي بعيدة كلياً عن

الإثمار. فثقافة الشرق الأوسط خبيرة في إفراز الاستبدادية في مثل هذه الحالات. وفي حال هدفت أمريكا إلى تحطيمها جميعاً، ستتولد عندئذ مشكلة مراقبة حشود الشعب وضبطها. في الحقيقة، فالورطة والمأزق العراقي مليء بالدروس والعظات، من ناحية ما سيجري لاحقاً، بقدر المجريات الحاصلة حالياً. لقد لقي النظام المسانَدة والدعم مدة طويلة. والمحصلة كانت مشاكل أشد وطأة. لقد دُكَّت دعائمه. لكن، ثمة أحلاف سلطة وأوساط ثقافية قادرة على تغذية بنى مشابهة للسابقة المحطَّمة. أما تخطي هذه الأوساط الثقافية عبر الفردية الغربية، فهو احتمال عسير. في حين أن تشتيت وتجزئة أحلاف السلطة، يعني القيام بحملة ثورية حقيقية. هكذا هو دياليكتيك المأزق.

بالتالي، فتَدَخُّل هيئة الأمم المتحدة وحلف الناتو في الأمر ضرورة لا بد منها. لكن هذا التدخل لا يمكن أن يكون سطحياً، كما حصل في أفغانستان والصومال. بل إن الظروف تستدعي كونه دائمياً وشمولياً. حيث تنكشف أهمية حل مشكلة الشرق الأوسط حديثاً. وستتم مواجهة مشاكل انهيارٍ، تتضمن مشقات ومصاعب تضاهي ما كانت عليه في النظام السوفييتي أضعافاً مضاعفةً. لا تشبه النتائج التي ستتولد من تحطيم بنى الذهنية والسلطة المتزمنة دائماً على مر ثمانية قرون بحالها، ما حدث في أي بقعة أو منطقة من العالم. وستستمر العلاقات التي ستتحرر على مستوى الفرد والقبيلة والجماعة، لتنتصب في الوسط بحالة أشبه باللغم الموقوت. بأي ثورة ذهنية واقتصادية ستتمزق هذه الأحلاف الاستبدادية الصغيرة، لتنشأ البنى الذهنية والاقتصادية الجديدة عوضاً عنها؟ كيف، وبماذا سيتم تخطي الفوارق الجذرية بين كلٍ من الفرد الأوروبي المستند إلى تقاليد جذرية في النهضة والإصلاح والتنوير، والفرد الشرق أوسطي المعرَّف سابقاً؟ رغم عدم وجود بُعد كبير بين ثقافة أوروبا الشرقية والبنية الثقافية العامة لأوروبا، فإن الأولى فلحت حديثاً في ولوج العبور من نظام تحديثي للغاية – من قبيل الاشتراكية المشيدة – إلى النظام الليبرالي، وذلك بعد مرورها بمتغيرات دامت ربع قرن بحاله. ثمة حل كامن داخل النظام ذاته. أما بلوغ الانهيار الحاصل في الشرق الأوسط للحلول المرتقبة من داخل النظام ذاته، فهو ادعاء قابل للنقاش والجدل بكثرة. جلي جلاء النهار أنه ينتظره مستقبل مليء بالمشاكل.

أما فشل الائتلاف بزعامة أمريكا، فسيفضي إلى مشاكل أكثر استراتيجية، بحيث تكون ضربة عالمية بالنسبة لأمريكا، تُسَرِّع من مرحلة تقهقر واندحار الإمبراطورية. وأمريكا التي ستخسر في الشرق الأوسط، ستدخل مرحلة الخسران الكبير في كافة القارات الآسيوية والأوروبية والأفريقية أيضاً. ولن تستطيع وقتئذ ضبط كل من أمريكا الجنوبية والمكسيك وكندا، مثلما كانت تفعل سابقاً؛ لتقع في حالة أشبه بكونها روسيا الثانية. لكن قبول أمريكا وقوعَها في هذه الحالة ضمن توازنات القوى الموجودة، أمر منافٍ لواقع السلطة. بالتالي، لا بد من سلوكٍ استراتيجي تتبعه. فهي مرغمة على البقاء والحظي ببعض النتائج الحلاَّلة، مهما كلَّفها ذلك، ومهما واجهت في سبيله اعتراضات على الصعيد العالمي.

إذا ما قمنا بترتيب المشاكل القصيرة والمتوسطة والطويلة الأمد التي نُخَمِّن ظهورها أمام النظام الرأسمالي الغربي الذي سيُجبَر على حلها؛ فسنجد أنه هناك مشكلتا أفغانستان والعراق على المدى القصير. حيثُ يزعَم بتأسيس الفيدرالية الديمقراطية، ويُفَكَّر فيهما كبلدَين للأنموذج الجديد في المنطقة. تَقتَرِح مخططات الدستور المُعَدّ لها على الورق النظامَ الفيدرالي الديمقراطي. جلي أنه تَوَجُّه عازم يحتوي على التحديث. والكل ينتظر بكل فضول تحديد المسار الذي سيسلكه التنفيذ العملي. فتَعَرُّف الثقافات المحتوية في طياتها أعداداً كثيرة من المجموعات الإثنية والدينية على الفيدرالية الديمقراطية؛ يُعَد تحولاً حضارياً عظيماً. سيخلق الشرق الأوسط بذلك تأثيرات أشبه بتلك التي تمخضت من الثورتين الفرنسية والروسية. فترميم الأنظمة الاستبدادية القديمة احتمال ضعيف جداً. في حين أن الفيدرالية الديمقراطية كيان يصعب تسييره حقاً ضمن شروط إمبراطورية الفوضى. أين يمكن العثور على القوى التي ستُزوده؟ فالقوى المنادية بالسلطة، والمتسمة بالاستبدادية بقدر الأنظمة الماضية كأقل تقدير؛ بعيدة كل البعد عن الصياغات الذهنية والسياسية التي تخولها للسمو بميزاتها الإثنية والمذهبية إلى مستوى تركيبة جديدة إيجابية. أما الفرد الحر والليبرالي، فلم يقطع سوى مسافة محدودة على مسار التطور. والمثاليون الديمقراطيون والاشتراكيون نادرون لدرجة العدم. والقدماء منهم من الضحالة والجدب بدرجةٍ يعجزون فيها حتى على حمل أنفسهم. تتوجه الثقة بالأغلب نحو هيئة الأمم المتحدة، الناتو، الاتحاد الأوروبي، ونحو قوى الائتلاف. في حين أن الفيدرالية الديمقراطية لبنية تابعة للخارج على الدوام، ستكون موضوع جدل دائم.

وعلى المدى الطويل، تبرز أمامنا أهم المشاكل متجسدة في العلاقات القائمة بين كل من العرب ـ إسرائيل، والكرد ـ العرب، والكرد ـ إيران، والكرد ـ تركيا. لا شك في أن المساعي الخاصة الجديدة لكل من هيئة الأمم المتحدة والناتو وقوى الائتلاف والاتحاد الأوروبي، ستكون ذات تأثير في التسريع من وتيرة حل هذه المشاكل المتطورة على أساس تاريخي. لكنهما مشكلتان مستعصيتان وعسيرتان. وبقدر سباتهما في أغوار الحضارة، فهما مشحونتان بالتناقضات والاضطرابات والحزازيات في علاقاتهما مع الحداثة.

يرتبط حل المشكلة العربية ـ الإسرائيلية بنسبة كبيرة بتعزيز واستتباب الأمن والسلام والدمقرطة في المنطقة. والقول بحل القضية الفلسطينية ـ الإسرائيلية أولاً، يحمل بين طياته ـ وعلى عكس ما يُظَن ـ مخاطر تأجيلها خمسين عاماً أُخَر. حيث تتوارى الدول العربية ومجتمعاتها التي لم تتدمقرط بعد في أرضية المشكلة. ستسرّع دمقرطتها من إعداد شروط السلام للقضية الفلسطينية ـ الإسرائيلية. وفي حالة العكس، فسيُزيد الصراعُ الفلسطيني ـ الإسرائيلي من تعزيز الذهنيةَ والبنى المتزمتة ـ البعيدة عن التطور الديمقراطي والحر والمتساوي ـ في كل من المجتمع العربي والدول العربية؛ تماماً مثلما عزَّزها حتى يومنا الراهن.

أما القضية الكردية، فهي أكثر تعقيداً وتنوعاً في اتجاهاتها. حيث لها مشاكل غائرة مع بنى المجتمعات والدول العربية والإيرانية والتركية، لأنه لا يُسمَح لها حتى

بالانتفاع من أبسط الحقوق المدنية. أما الحقوق السياسية والاقتصادية، فلا تُطَرح أصلاً في جدول الأعمال. من جهة أخرى، ثمة مجزرة ثقافية مُعاشة. قد تسفر الفروضات الأمريكية الأخيرة عن بعض التحركات والتململات البسيطة، أو تولِّد بضعة انفتاحات محدودة للغاية. نخص بالذكر هنا فيدرالية كردستان العراق، المنفتحة للتحريض والإثارة. إذ يُنتَظَر استثارات أكثر بتأثير من هيئة الأمم المتحدة والناتو وقوى الائتلاف. فالوضع الكردي الراهن يكافئ التحريض لإثارة تمردات جديدة. وإذا لم تُبْدَ المواقف المتبعة بطراز حل قابل للديمومة، ديمقراطي وذي معنى؛ فمن الوارد تحَوُّل المنطقة إلى جغرافيا دموية، تترك في حِدّتها الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني في الوراء، لتضاهيه بأضعاف مضاعفة. ستُزيد الاشتباكاتُ التي ستندلع في الجغرافيا الوعرة والشاهقة، مع الجماهير الكردية التي تتراوح بين أربعين وخمسين مليون نسمة؛ من ثقل المشاكل في المنطقة أكثر فأكثر، وستُقحِم المنطقة في حال منفتحة لجميع أنواع المستجدات المحتملة.

لا يمكن ترسيخ الحلول الجذرية الطويلة الأمد، إلا بتعزيز وتحقيق حقوق الإنسان والدمقرطة والتنمية الاقتصادية داخل المجتمعات والدول الإيرانية والعربية والباكستانية والجمهوريات التركية. لكن التزمُّت الموجود في بنى تلك المجتمعات والدول، وكذلك الأحلاف المنفعية الوطيدة؛ سوف تقاوم إلى أقصى حد. وإنْ أمكن الوصول إلى الشعب وطرح البدائل الحلاّلة، ولم يُنقِص النظام المهيمن من همته القمعية رغم ذلك؛ فلن يتحقق التحول داخل النظام إلا بحدود ضيقة.

من اللازم وجود القوة العسكرية والاقتصادية بمقدار هائل ضمن المراحل الثلاث. فإمكانية تنفيذ مشروع الشرق الأوسط ستستلزم على الدوام حصول التمشيطات العسكرية والاقتصادية. إلى جانب ذلك، تتميز تنشئة الأفراد الليبراليين وحرية المرأة – التي طالما يتم التنويه إليها – بأهمية حياتية لا غنى عنها. فإنْ لم تستيقظ المرأة، ولم تشهد حريتها ولو بالحدود الأصغرية؛ فإنَّ كل المساعي الأخرى محكوم عليها بالعقم الوخيم. هذا ومن المحال تحقيق تحرر كافة الشرائح الاجتماعية – وفي مقدمتها المرأة – ما لم تترسخ الحرية الفردية في العموم، دون التمييز بين كلا الجنسين.

خلاصةً، بالإمكان رسم ثلاثة سيناريوهات في موضوع النفاذ من فوضى الشرق الأوسط:

أولها: ستسعى بلدان المنطقة المتكونة فيما بعد الحربين العالميتين، وكذلك العاملون على حماية الوضع القديم القائم؛ للإصرار على أنموذج الدولة القومية، على الصعيدين السياسي والاقتصادي. لكن هذا الأنموذج سيَعسُر عليه – حقاً – السير وفق حالته القديمة، بسبب بطلان مفعول التوازن السوفييتي – الأمريكي وخلله، وبسبب التحامل الأمريكي على المنطقة بطرازه الإمبراطوري. إذاً، لا مفر من التحول الاقتصادي والسياسي والثقافي. فالبنى الدولتية والقومية والدينية، الاقتصادية منها والسياسية، والمتبقية جميعها من الماضي العتيق؛ تشكل حجر عثرة من جميع النواحي، إزاء حملة العولمة الجديدة. من المنتَظَر التحاق الرأسمالية المللية بالنظام مجدداً، بسبب مرور عصرها عليها منذ أمد بعيد من جهة، وبسبب ضيق الخناق بدرجة ملحوظة على

إمكانياتها في تسيير سياساتها التوازنية المتبعة في القرن العشرين من الجهة الأخرى. ما ستسعى للقيام به هو مجرد الالتحاق بالنظام بزيادة أسعارها قليلاً. وستعمل على تأمين ذلك عبر أساليب الدعايات الإعلامية التي يمكن استساغتها بين صفوف القاعدة الجماهيرية؛ وذلك بتقمص المظاهر القومية والمحافظية والاجتماعية. أما هذه المحاولات – التي يصعب علينا نعتها بالتطور – الضحلة والسطحية والعقيمة المعاشة حالياً بكثافة بارزة؛ فهي مجرد أسلوب ديماغوجي مخادع بكل معنى الكلمة، مهما سُعِيَ لتصويرها بأنها سياسة. ما تسعى هذه المجموعات المنفعية التقليدية الدولتية (سواء كانت جمهورياتية أم مَلَكية، فهذا ليس مهماً) والدينية والمذهبية إلى إنقاذه؛ إنما هو السمسرة الاقتصادية والسياسية.

من غير الوارد أن تسير البؤر الرأسمالية (أمريكا، الاتحاد الأوروبي، اليابان، وحتى الصين أيضاً) التي تتزعم الدعاية والعزم على إعادة بناء النظام وفق معايير عصر المعرفة والمعلوماتية؛ مع هذه البنى السمسارية الاقتصادية والسياسية. بل عليها الإدراك يقيناً أن الرأسمالية الكومبرادورية الكلاسيكية قد عفا عليها الزمن. نخص بالذكر هنا مدى المشقات التي ستزداد أمام كل من تركيا، مصر، باكستان، وإيران، والتي تسعى جميعها للحفاظ على الوضع الراهن؛ ومدى صعوبة صمودها تجاه تحاملات النظام المتكاثفة على المنطقة. حيث أن شروط وظروف إمكانية استمرارها في وجودها بالتحالفات الجديدة، سواء فيما بينها أو مع الخارج؛ ليست كما كانت عليه سابقاً. ولن يكون منطقياً تخمين وجود خيارات أمامها، عدا الالتحاق مجدداً بالنظام تحت ظل الزعامة الأمريكية، وضمن إطار المشروع الكبير؛ ولو بدلال وغنج.

السيناريو الثاني هو عملية إعادة البناء في ظل الوزن الأمريكي. حيث يُخطَّط لممارسة أشبه بما قامت به كل من إنكلترا وفرنسا بُعَيد الحرب العالمية الأولى. يمكن التفكير به كوضع وسطي كائن بين الدولة القومية والاستعمار الحديث. سيرجح احتمال تحقيق هذا السيناريو الثاني عملياً، في حال استمرت أمريكا في إصرارها على المنطقة، وأبرزت الوضع الراهن في المنطقة كهدف للناتو المتسع نطاقاً والتابع لها بشكل أكبر؛ وفي حال إدراج هيئة الأمم المتحدة أيضاً في ذلك. وإذا ما حاولنا إعطاء مثال شبيه؛ فيمكننا الإشارة إلى إعادة بناء أوروبا واليابان ضمن إطار مشروع مارشال، بعد الحرب العالمية الثانية. بمقدورنا إضافة بلدان الجوار أيضاً إليها، كالمكسيك وكندا. لكن، ساطع سطوع الشمس أن البنية الموجودة في الشرق الأوسط تستدعي تطويرها بشكل مغاير تماماً لتلك الأمثلة الماضية. بالتالي، بات ضرورياً جداً على كافة الدول التي نسميها بالعربية (وفي مقدمتها مصر) بالإضافة إلى الدول التركية (بما فيها تركيا) وإيران وأفغانستان وباكستان أيضاً؛ أن تعي دروسها جيداً في عملية إعادة البناء، باعتبار أنه من المحال استمرارها بطرازها القديم.

يتمثل المنطق الأولي لعملية إعادة البناء تلك في التوجه نحو الليبرالية في الميدان الاقتصادي، والتحرر (خاصة لدى المرأة) في الميدان الاجتماعي، والدمقرطة (الديمقراطية البورجوازية) في الميدان السياسي ضمن إطار النظام القائم. سوف تصر

أمريكا على تحقيق هذه البلدان تحولاتها القصيرة والمتوسطة والطويلة المدى، بكسبها مؤازرة أوروبا واليابان، وبتأمين مشروعيتها عبر هيئة الأمم المتحدة، وبإشهارها عصا الناتو الجديدة إن تطلب الأمر. وستجذب كل من يزرع العراقيل أمامها إلى النقطة المطلوبة، بلجوئها إلى كافة الخيارات التي بحوزتها، العسكرية منها والسياسية والديبلوماسية والاقتصادية (صندوق النقد الدولي IMF، والبنك الدولي). وإلى جانب عدم إطراء تعديلات جدية على الحدود السياسية الراهنة في هذا السيناريو، إلا إنه سيتم تفضيل بنية سياسية أكثر مرونة وديمقراطية من البنية المركزية البيروقراطية (مثلما شوهد في كل من أفغانستان والعراق، بل وحتى جورجيا ودول البلقان)؛ بحيث تترسخ فيها الإدارات المحلية، وتبلغ مستوى الفيدرالية.

ومن الناحية الاقتصادية، ستولى الأولوية لبنية اقتصادية معتمدة على القطاع الخاص والشركات الخارجية، بالإضافة إلى الشركات المتعددة الجنسيات؛ بعد تفكيك وتفتيت الاقتصاد الدولتي. وبينما يتم الإيداع اللازم من أجل المساعي الثقافية والفنية المعتمدة على حرية المرأة والفردانية، فسوف يعاد بناء القوة الإعلامية أيضاً على نحو يسخِّرها لخدمة عملية إعادة البناء هذه. ويمكن أن يكون العراق وأفغانستان نموذجاً مصغراً لهذا السيناريو.

لكن الجانب الأضعف في هذا السيناريو يكمن في المشقة البالغة لتنفيذه بإرادة النظام الأحادية الجانب. حيث سيُكرَه على تقديم التنازلات أمام الدول القومية القديمة الثابتة من جهة، وأمام المطاليب المتزايدة للمعارضة الاجتماعية من الجهة الثانية. سيقود عجزُ النظام عن تحقيق الالتحاق به بإرادته الأحادية الجانب، إلى بقائه منفتحاً للبنى الأكثر تعقيداً.

أما السيناريو الثالث، فسيتطور على خلفية الرد على هذه الاحتياجات المفروضة. حيث سيفرض النظامُ التساومَ والوفاق على كلا الطرفين، بشرط أن يكون هو القوة الرئيسية المهيمنة. وسيتحول ما كنا نسميه سابقاً بالخنوع والإخضاع إلى وفاق يتماشى وشروطنا الحاضرة. علاوة على أنه لن تُعطى الفرصة للحركات التحررية الوطنية أو الانتفاضات الشعبية الشاملة والطويلة الأمد والواسعة الآفاق، مثلما لم تُعطَ الفرصة سابقاً لأشكال الاقتصاد العقيمة وغير المثمرة والمسرفة، ولا للدول القومية المنفردة بذاتها. بل سيُفرَض خياران: إما الوفاق السريع أو الانسحاق. يمكن أن يكون التعبير الملموس لهذا السيناريو شبيهاً بضرب من ضروب الوضع الحالي، الذي تمر به بلدان أوروبا الشرقية وبلدان أوروبا الغربية القديمة. بمعنى آخر، لن يكون الوضع مثلما كان في المكسيك وكندا، ولكنه لن يبقى مثلما في تركيا ومصر وباكستان. بل سيتم تخطيه بالتوجه قُدُماً نحو الديمقراطية البورجوازية الأكثر تطوراً. من المنتَظَر أن يزداد تأثير القوى الشعبية، ويُشَلّ تأثير قوى الدولة القومية الثابتة تدريجياً. وقد نشهد تجربة غريبة الأطوار بين كل من الديمقراطية ذات الأرضية الشعبية، والديمقراطية ذات أرضية الدولة البورجوازية. كما تتطلب حالُ التوازن بين القوى أثناء الخروج من الفوضى – بالضرورة – عدمَ إغفال مثل هذه الخيارات. النقطة الأساسية الواجب الانتباه إليها هي، عدم الدخول في مقاومة

عمياء، ولا في وفاق لا مبدئي تجاه كافة عمليات النظام في إعادة البناء. كذلك عدم تكبد الخسائر الكلية في حال التطلع إلى الربح الكلي، مثلما شوهد في الكثير من التجارب.

من المحتمل ظهور مساعٍ للخروج من فوضى الشرق الأوسط وتطوير الحلول في غضون ربع القرن المقبل، عبر تطبيق هذه السيناريوهات الثلاثة بشكل متداخل، وبخيارات قد تزداد أكثر فأكثر. لكن النقطة الأهم تكمن في كيفية تطوير يوتوبيات وسيناريوهات القوى الشعبية الكادحة ذات الأرضية الاجتماعية، والتي تُبرز نفسها عن طريق اجتماعات بروتو آللاغرا. لم يُحدَّد التاريخ حسب الإرادة الأحادية للقوى التسلطية، في أي وقت من الأوقات. بل إن التحديد الراسخ والدائم قام به السلوك الديمقراطي المشاعي للمجتمعات.

3 – بمقدورنا تشبيه الشرق الأوسط الراهن بحال الإمبراطورية الرومانية في قرنها الرابع. فالمنطقة تماثل حال ولايات روما، فيما عدا شرقي نهر دجلة. فبينما فتحتها المسيحية بتوسعها السريع من الداخل، قامت التدفقات البربرية – الحركات الوطنية في راهننا – بفتحها من الخارج. أما رد النظام الإمبراطوري، فكان صهر كلتا الحركتين في بوتقة بنيته. لقد ألحقت روما الشريحة العليا للحركات الإثنية والاجتماعية بالنظام عبر سياسة التنازلات، بعد محاولتها سحقها بالأسفار المجحفة، التي شنتها مدة طويلة شملت القرنين الثاني والثالث. لكن هذا اللقاح لم يكن مُجدِياً كثيراً، بل أدى بالأغلب إلى التردي والانحطاط وإبراز أمارات التبعثر. حيث انتهت أحلام اليقظة للإمبراطور "جوليان Jullian" بالخسارة الكبرى في حملته الإسكندراوية (نسبة إلى الإسكندر) على ضفاف دجلة، وذلك بصدد إنعاش الإشراك والكفر بالله، الذي كان سائداً قديماً، وفي أن يكون هو الإسكندر الثاني.

يجب ألا يساورنا الشك في أن الرئيس الأمريكي "بوش G.W.Bush" باشر بحملة إسكندراوية ثالثة ضمن نفس المعايير العقائدية التاريخية. فالحقيقة المعلومة علم اليقين، هي مساعيه في نشر التبشير بالإنجيل (وإنْ لم يكن إشراكاً بالله) كمذهب مختلط (يشمل الموسوية والمسيحية، بل وحتى الإسلامية في بعض نواحيه). حيث تلعب الإنجيلية (التبشير بالإنجيل Evangelism) دوراً يشبه دور الإشراك بالله (Paganism) تجاه العلمية الراهنة التي هي أشبه بضرب من ضروب الدين. يكمن التشابه في مناهضتها لما هو حاكم وسائد في الماضي. لقد تقهقرت الإمبراطورية الرومانية بسرعة بعد عهد جوليان. وبعد فترة وجيزة انقسمت إلى قسمين. لقد توفي الإمبراطور جوليان حوالي عام 365م، في حين حصل انقسام روما في عام 395م.

التشابه ملفت للنظر في المعايير الأخرى أيضاً. فقد كان الدين المسيحي في تلك الأثناء حركة للفقراء، أكثر بأضعاف مضاعفة مما كانت عليه الاشتراكية المشيدة. حيث رسخ نظاماً مشاعياً بحساسية فائقة. وكانت أديرة الراهبات كيانات شيوعية حقة، حيث تحدَّت روما طيلة ثلاثة قرون. لكنها أُلحِقَت بالنظام في عهد قسطنطين الأكبر، بعد تردّيها من الداخل في عام 312م. في حين استمرت القاعدة الفقيرة في المقاومة، وعلى رأسها الأريوسية. أما المقاومات والهجومات المستمرة مدةً شملت قروناً عديدة، والتي شنتها

القبائل البدوية البربرية المشابهة للحركات التحررية الوطنية الراهنة، وبالأخص تلك التي شنتها الإثنيات ذات الأصول الجرمانية والخونية؛ فقد تسارع التحاقها بالنظام بعد ترويم شريحتها العليا (تطعيمها بالصبغة الرومانية). هكذا، وبينما تبدو الإمبراطورية الرومانية وكأنها تتعاظم وتتقوى بحلفائها الجدد من جانب، فهي من الجانب الآخر تتقزم وتتشتت (في مضمونها). وكانت المستجدات اللاحقة كشفت النقاب عن حقيقة هذه المرحلة. حيث اندحرت وتقهقرت وتجزأت وانهارت، لأنها فقدت قيمها التي جعلت منها "روما"، ولعجزها عن الاستجابة لمطاليب الشعوب.

تُشبه إمبراطورية أمريكا الراهنة روما في الكثير من الأبعاد. فقد بلغت هي أيضاً مستوى الإمبراطورية العالمية، ووصلت ذروتها. حيث أن حملتها الكبرى الثالثة في العولمة، تعني بلوغ منزلة الإمبراطورية العالمية. لقد كانت روما دخلت مرحلة الاهتراء والتشتت والتجزؤ، عندما كانت في أوجها. وأمريكا أيضاً تشير إلى الكثير من أمارات التبعثر بينما تواصل وجودها كإمبراطورية فوضى. فتوزيعها المفرط لقوتها يجلب معه تشتتها أيضاً. أما حالة التجزؤ، فتعيشها بشكل مثالي مع الاتحاد الأوروبي. والتشبيه الأعمق هو إذابتها للاشتراكية المشيدة (مسيحية تلك المرحلة) ضمن بوتقة النظام الرأسمالي. إن الشبه الكامن بين عام 1990 وعام 312 ملفت للأنظار حقاً. فالمسيحية الحديثة بزعامة الاشتراكية المشيدة السوفييتية نكثت عهدها مع فقرائها، وخانتهم بوفاقها (وفاق الشريحة العليا البيروقراطية) مع النظام الأساسي، بعد مقاومات دامت فترة طويلة. الشبه الآخر الملفت للأنظار هو وفاق الأنظمة التحررية الوطنية الأوسع نطاقاً مع الإمبراطورية الأمريكية. حيث تحوَّل الزعماء التحرريون الوطنيون (كأمثال الجرمان والخونيون في الماضي القريب) إلى وُلاة في الولايات المتحدة الأمريكية.

لدى وصولنا أعوام الألفين، نجد أن كل هذه المراحل من الانصهار والتجزؤ، قد بلغت ذروتها. وأياً كانت الزاوية التي ننظر منها، فالحملة الحاصلة عُقب حادثة 11 أيلول، هي حملة عرقلة التبعثر والتجزؤ والتقهقر، لا حملة توسُّع النظام. يجب رؤية الفارق الكامن بين كلتيهما جيداً. بالطبع، فهذا لا يعني أن نفس أشكال التطورات ستحدث بعد هذا التشابه الموجود. فأمريكا ذرائعية* إلى أقصى الحدود. حيث بإمكانها إطراء التحويلات على النظام على شكل انتقالات سَلِسَة، عبر سياسة التنازلات الواسعة الآفاق؛ عوضاً عن المضي بالنظام نحو الانهيار في نهاية المآل، مثلما شوهد في الإمبراطوريات على مر التاريخ. يجب وضع هذا الاحتمال نصب العين، وأخذه على محمل الجد. وبالأصل، فتعاظمها المستمر حتى الآن منوط عن كثب بتقرباتها البراغمائية (الذرائعية) والتوفيقية. وقد أسفر سلوك النظام العسكري للأساليب العسكرية والاستخباراتية والاقتصادية والثقافية والإعلامية والفنية والدعائية، مع القوة العلمية والتقنية، ومع القمع والوفاق بشكل متزامن؛ عن نتائج مثمرة وموفقة. لا يمكن للشعوب والكادحين أن يتخلصوا من الانصهار في بوتقة النظام الحاكم بعقد وفاق مسيحي وبربري ثانٍ، إلا بتوحيدهم للقوة الذهنية مع الموقف الديمقراطي أولاً، وبتجديدهم الحملة الحضاريةً الديمقراطية، وفرضهم إياها على النظام، مع عدم إهمال الوفاقات المبدئية بالطبع.

مثلما يتسم سياق التطور التاريخي للقوى التسلطية بالتكامل كحلقات السلسلة، فإن قوى الحرية وحركاتها أيضاً تسير ضمن سياق تطوري دياليكتيكي مشابه. حيث تضيف نفس التَّوق إلى الحرية إلى الحلقات الموجودة على مر العصور، وإنْ كان شكل كل حلقة مضافة مغايراً للآخر. هنا يبرز مرة أخرى أن دور الشكل منحصر في الصون والحمل. في حين يتسم المضمون بميزته في التعددية والغنى والعمق والكسب. وتُحقِّق الحلقات حَملها للغنى وتَحَلّيها به، قليلاً كان أم كثيراً، ارتباطاً بطرازات الشكل الموجود. يقال لهذه الحلقات في لغة المجتمع "بناء، أو انتظام".

الحاجة إلى الحرية عامة، بسبب وجود التسلط. وترتبط هذه الحاجة (أو الطراز) إلى الحرية لدى كل شعب، بوضع التسلط المسلَّط عليه. وكلما استمرت التسلطية في نفوذها وحكمها، سواء كانت فردية أو مجتمعية في أبعادها؛ فإن الحاجة إلى الحرية والنضال في سبيلها سيستمران ايضاً. الحاجة إلى الحرية شرط لا غنى عنه من أجل التقدم. ولا يمكن أن يحدث العَدَم إلا بمجزرة الحرية. وما دام لم يتحقق العَدَم، فمن المحال إيقاف أو صَدّ إرادة تدفق الحرية ضمن مغامراتها، بثقبها لكل جدار قمعي مطوّق إياها إن دعت الحاجة، تماماً كالأعشاب والنباتات التي تمزق الصخور وتفلقها.

من المهم بمكان تناول ومعالجة مشكلة الحرية للشعوب الشرق أوسطية بالارتباط مع التقاليد التاريخية، من حيث تأمين التكامل والتسلسل الحلقاتي. لنضال الحرية تاريخ مستمر في كل زمان. المهم هنا هو تحديد هذا الزمان التاريخي ضمن مضمار حريته. الفاعلية الأخرى المهمة التي فلحت فيها القوى التسلطية، هي دحض وإنكار مشكلة المجتمعات والشعوب في الحرية. وكذلك إقناعها للشعوب والأفراد بأنه لا مشكلة لهم من هذا القبيل، وأن الحقيقة الوحيدة الدارجة هي تاريخها الكوني المطلق، الألوهي والجليل والبطولي، والمفعم بالقدسية. إنها مهارتها في دحض تاريخ المجتمعات الوافر الغنى بنسبة خارقة، وذلك عبر القيم العنصرية التجريدية والمفتقرة للمعنى؛ وبالتالي تقديمها تاريخَها – غير الموجود أصلاً، أو بالأحرى الدموي للغاية، بل والاستغلالي لدرجة تفوق الوحشية – على أنه مسيرات إلهية.

يكمن أحد أهم أسباب خسارة التحرريين الاجتماعيين في فشلهم الذريع أمام مثل هذه المزاعم للتاريخ التسلطي. يكمن الأمر الضروري والأولي اللازم لتفوقهم ونجاحهم، في تحليهم بالمهارة في إبداء قدرتهم على عيش تاريخهم هم. وذلك من دواعي اتباع السلوك الأخلاقي إزاء تاريخهم في الحرية، وإزاء تقاليدهم (حتى ولو لم تكن موجودة). حيث لا يمكن أن تكون هناك عدم رغبة أو تَوق إلى الحرية، ما دام هناك قمع وكبت.

إننا نقوم بهذه الدراسات التجريدية في سبيل إضفاء المعنى على حقيقة المجتمع الشرق أوسطي، الذي يبدو ظاهرياً وكأنه جامد وبليد. ثمة تاريخ للحرية الاجتماعية في منطقة الشرق الأوسط. بل وهو كثيف جداً وغائر الأعماق. تتمثل المهمة الأولية لمناضلي الحرية في تمييزه وحسمه عبر التاريخ، وتسليط الضوء عليه. فالعُشب لا ينمو إلا بجذره. كذلك هي حال نضال الحرية الراهن، الذي لا يمكن أن ينمو ويزدهر إلا بجذوره وتقاليده في الحرية. لن ندخل في تكرار ذلك، لأننا طرحناه في بداية كتابتنا على شكل مخطوطة.

إننا نعيش ضمن حدود الإمبراطورية الرومانية العصرية، وتحت ظل حصارٍ مختلَف قوى الأقاليم والمقاطعات. عادةً ما يكون وُلاة المقاطعات (أي دول المنطقة في راهننا) ظالمين، مثلما شوهد ذلك بكثرة في التاريخ. فوالي مقاطعة يهودا "بيلاتوس Pilatus" هو الذي صَلَب سيدنا عيسى. وسيدنا عيسى في الحقيقة هو مجرد رمز. وما المسيحية سوى انفجار جارف للآلاف من سيول الظواهر المشابهة. هذا وكثيراً ما يُشاهَد في التاريخ بأن وُلاة المقاطعات ثائرون متمردون. وقد ينتصرون في بعض الأحيان، ليصبحوا أباطرة بعد فترة معيَّنة، أو يتم إصلاحهم فيهتدون، أو يغرقون في خضم تمرداتهم.

ما هذا سوى حدث يحصل ضمن النظام ذاته، ولا قيمة له بالنسبة للحرية بمعناها الاجتماعي. وحتى إن وُجِدَت تكون غير مباشرة. لذا، من الضروري عدم الخلط بين مثل هذه المقاومات الإقليمية، وبين حركات الحرية الاجتماعية. وبدون تجاوز حقيقة الإمبراطورية العصرية على مستوى الفهم والإدراك، فكل صراع تجاهها، إما أن تكون فرصته في النجاح معدومة، أو أن تحصل نتيجة الصُّدف، وحينها لا تكون ذات قيمة تذكر. تنبع الحاجة إلى إعادة بناء مقاطعات المنطقة، من ماهية الفوضى المعاشة.

لطالما نتحدث عن الواقع الخاص بحالة الفوضى. ذلك أن الفوضى هي مساحة زمنية وجيزة ومشحونة بفرص الحرية والخلق والإبداع. والحاجة الماسة الأهم (بالنسبة لجبهة الحرية) في هذه المسافة الزمنية البينية، هي قوة المعنى اللازمة. أي المعرفة، معرفة تاريخها وعصرها. إن انفجار النظام في مساحة الفوضى البينية بعد مراحل الهيمنة التي يبلغ عمرها خمسة آلاف عاماً عموماً، ومن مائتي عاماً حتى ستين عاماً في الماضي القريب (مرحلة الهيمنة الرأسمالية)؛ هو عبارة عن ظاهرة تستوجب المعالجة المُرَكَّزة. لقد أظهرنا إجابات الإمبراطورية العصرية بالزعامة الأمريكية على الفوضى، على شكل سيناريوهات أساسية. وقمنا بذلك بغرض رسم سيناريوهات الشعوب وقوى الحرية الاجتماعية، بعين موضوعية. إذ لن يكون جواب القوى الاجتماعية على شاكلة ردود المسيحية من الداخل تجاه روما القديمة، ولا كما فعل البرابرة إزاءها من الخارج. بالمقدور استنباط الدروس من هذه الأمثلة، ولكن من المحال تقليدها. هذا ولا يمكننا أن نرد في راهننا بنمط الاشتراكية المشيدة أو التحرر الوطني. ذلك أن هذه الردود، ورغم نجاحاتها وتفوقها، لم تنجُ من اللحاق بالنظام القائم، أو لم تتوانَ عن فعل ذلك، انطلاقاً من أخطائها الرئيسية. أما جوابنا، فهو نمط مرافعتنا.

ما يُقصَد بالثورة الذهنية هو وعي المجتمع الحر وعقيدته. والوعي ليس مجرد معرفة المجريات والحوادث. بل هو أيضاً معرفة كيفية العمل إزاءها. في حين أن العقيدة تعني إيمان المرء بما يعرفه، وقيامه بمتطلباتها. إنها تعبّر عن قدرته وعزمه في التنفيذ. لا يمكن خوض صراع أيديولوجي صائب وقدير، دون الإدراك الحسن للذهنية المسلَّطة على مجتمع الشرق الأوسط، ودون التمييز والفصل بين جوانبها الواجب تخطيها، وجوانبها الواجب أخذها كميراث؛ بالإضافة إلى معرفة القوالب الذهنية الواجب خوض الصراع تجاهها. وكسب الذهنية يعني كسب الوعي والعقيدة الاجتماعيين اللذين يجب تعبئة أنفسنا

وإعدادها بهما، عبر سلوكِ موقفٍ أخلاقي، وبذلِ كدحٍ عظيم ودؤوب. مَن لا يُعَظِّم من عالَمه الذهني، لن يستطيع خوض صراعه من أجل الحرية على المدى الطويل. اللحظة والمكان اللذان يبدأ فيهما التردي والانحطاط بالظهور، هما نفس اللحظة والمكان اللذين تتجوف فيهما الذهنية وتزول. كل ما قام به جميع الحكماء والأنبياء في الشرق الأوسط، هو صراع ذهني في مضمونه.

لا قيمة للذهنية ما لم ترتبط بالأخلاق. والأخلاق بدورها هي قوة السير في الوجهة التي ينوّرها الوعي، رغم كل القلاقل والأخطاء. وتعني أيضاً الإصرار على القيم الوجدانية للمجتمع كشرط لا استغناء عنه. أما انقطاع الأواصر بين الوعي والأخلاق، فيعني تفشي الثرثرة والهذر والبطالة والانسياب مع التيار. على ذهنيتنا أن تبلغ ذهنية الطرف المقابل أيضاً، وأن تقتات منها بالقدر المطلوب. لقد نَظَّمَت ذهنيةُ قوةِ الدولة ذاتها بشكل راسخ في كل زمان. لا يمكن استصغار ذلك أو الاستخفاف به. حيث لا يمكن تحقيق أي انطلاقة أو حل، دون تطويق هذه الذهنية. أما السياسة والعملية (بما فيها المجال العسكري أيضاً) المنقطعتان عن الذهنية والأخلاق، فقد تنفجران بنا في أية لحظة كلغم موقوت. لذا، يجب ممارسة سياساتنا وعملياتنا على الدوام على ضوء ذهنيتنا وبموجب موقفنا الأخلاقي. وإلا، فلا خلاص لنا من أن نصبح آلة أو أداة للحملات السياسية للذهنيات المضادة. إننا ننوه على الدوام إلى مهالك البدء بالحملات السياسية دون النجاح في خوض الصراعات الذهنية في ظل هذه البنود الأساسية. لأجل هذا ينزوي الزاهدون والمتنسكون العظماء في التاريخ على أنفسهم لاكتساب القدرات الذهنية، بغرض تلقين البشرية دروساً وعظات، ولعرقلة تكرار هذه المهالك والأخطار.

لا تعمل أمريكا عبثاً على تأسيس المئات من الذهنيات والأفكار والآراء، رغم كونها قوة إمبراطورية. إنها تدرك يقيناً، انطلاقاً من التجارب التاريخية، أنه بقدر امتلاكها معلومات واسعة بحق المناطق التي تتوجه صوبها، ستقوم بما هو صحيح حسب ما ترتأيه هي. أما الإسلام والطرائق المنتعشة مجدداً في المنطقة، فقد تولّدت أصلاً انطلاقاً من رغبة بعض الشرائح الاجتماعية في كسب الذهنية اللازمة لها.

لا يمكن خوض صراع ذهني صائب، دون تحليل الطرائق الدينية، وبشكل عام دون البحث والتدقيق في تأثير الإسلاموية المنتعشة مجدداً، على المجتمع. الأمر صحيح بالنسبة للقوميات أيضاً. إذ لا يمكن خوض صراع أيديولوجي وعملي قدير وكُفء في منطقة الشرق الأوسط، بدون فهم شيوعة وسريان مفعول الذهنية القومية في المجتمع، والتي هي ضرب من ضروب الإثنية المعاصرة، وكذلك بدون فهم كيفية نشوئها وتنظيمها ذاتها. هذا ويجب استيعاب ذهنية القوة الإثنية المتبدية على شكل ميول عائلية وقبلية، والمستمرة في وجودها حتى الآن؛ والرد عليها بشكل صائب. كما يتوجب رؤية أن إدراك وتطويق كل هذه الذهنيات، وإمداد المعنيين بها بالقيم الذهنية الحقيقية اللازمة لهم؛ إنما هي واجبات أولية لازمة وضرورية، ولكنها أصعب من الصراعات العملية بأمثال مضاعفة.

يتوجب علينا لدى الشروع بالصراع الذهني في الشرق الأوسط، أن نفعل تماماً مثلما فعل سيدنا موسى في إدارته لقبيلته العبرية، ومثلما تصارع سيدنا داوود مع "جولياد Golyat"، ومثلما أَعَدَّ سيدنا عيسى حواريه وأَهَّبَهم، ومثلما حث سيدنا محمد المؤمنين به على العمل. هذا ويجب علينا معرفة قول "اعرف نفسك" بحماس سقراط، وقول "أعطِ الديمقراطية قيمتها" بنشوة وغبطة بركليس (Perikles)، وقول "افتح الطريق للإسكندر" بعِلْم أرسطو. إن اكتساب الذهنية في الشرق الأوسط يعني الهرع نحو الطبيعة، وحب الإنسان، والتعطش إلى العلم بحماس النهضة؛ ويعني ثقب الدوغمائيات الدينية واختراقها، والتحلي بالعقيدة اللازمة في الذات عبر الإصلاح؛ ويعني نقل العلم والفلسفة والفن إلى الشعب، وتأهيب حركة المتنورين وإعدادها على مجموعات متتالية في سبيل الحرية عن طريق التنوير.

لا يمكن أن تُضفى المعاني على عملية التفكير لدى المسير، والسير لدى التفكير في الشرق الأوسط؛ إلا إذا تزامن مع ذهنية معرَّفة على هذا الشكل. حينها فقط ستُكتَسَب حيوية العصور النيوليتية الطبيعية، وقوة الاقتراب الحماسي والمقدس من كل شيء. وحينها ستُفتَح أمامنا صفحات الفكر الميثولوجي للعصور الحضارية المليئة بالعظات، وصفحات كُتُب الحكمة واحدة تلو الأخرى. وسنقرأ وقتئذ تاريخ الأنسنة والحضرنة المروّع والمقدس، المجبِّد للعقول والمحبِّس إياها، المتسامي بالحياة والهاوي بها إلى الأسفل في آن معاً. وستزدهر المعاني الحقة لتجارب أولئك الأنبياء العظام في الكتب المقدسة. وستتدفق أنهر الحضارة، التي كانت نضبت، واحدة تلو الأخرى؛ وتتمدن الأطلال. وستبرز القروية الشفافة مزدهرة فوق جُثوات التراب المتكدسة فوق المقابر. وستنهمر كل القيم، البيضاء منها والسوداء، إلى الميدان؛ بدءاً من أظلم الظالمين حتى أغنى الأغنياء، ومن نمرود إلى قارون، من أيوب إلى مظلوم وفرهاد وكمال. وما الصراع الذهني سوى تعبير صريح عن كافة هذه القيم، ونقشها في عقولنا وأفئدتنا. حينها لن يكون بالإمكان التذرع بأي قوة، أو بأي احتياج بسيط في الحياة، أو بأي إهمال أو إمهال. سنحللها جميعها ونتخطاها بوعينا الذي بقدر البحر، وبإرادتنا الحماسية والغبطة بقدر السيل الجارف. وآنئذ، سنركِّز بكل دهاء على كل ما يسمى بالسياسة والعسكرتارية، لنرد عليها بأجوبتنا الملحمية.

من المحال الوصول إلى أي منزلة بالمواقف الدينية والقومية الكلاسيكية، اليسارية منها واليمينية، في الأرضية والزمان الحاليين لمنطقة الشرق الأوسط. بل ومن الصعب النجاة من "الكفر" عبرها، على حد قول الأنبياء. هذا ومن العسير بلوغ أي مرتبة عبر اليسار الجديد، أو المجتمع المدني الهوائي غير المتجذر، أو حركة المرأة الجاهلة بالتاريخ والغريبة عن الكدح. أما السير عبر البورجوازية الصغيرة المدينية المفلسة والمنحصرة في خناق ضيق، وعبر مثل تلك المسيرات المفتقرة إلى الذهنية والإيمان؛ فيمكن الوصول به إلى مكان للتنزه والاستجمام، لا غير. أما بالأعجوبات الغارقة في السمسرة، والمنجرّة وراء هيام المنصب؛ فلا يمكن الدفاع عن أية فكرة أو عقيدة. بهذه

الشاكلة، من المحال تلبية احتياجات وآمال إنسان الشرق الأوسط وشعوبه التي طالما رأت الشمس والأيام المزدهرة، وطالما تلقت الضرب المبرح في العديد من أماكنها.

ستؤول بنا تعبئة أنفسنا بذهنية يمكن تعريفها بهذا النحو، والسير بموجبها لدى الشروع بالتحرك فوق الواقع الاجتماعي للشرق الأوسط؛ إلى التاريخ المخفي في الأغوار، وإلى فؤاده المتحول إلى رماد. وستبلغ بنا إلى حقيقته التي طالما بحثت عن النور. حينها فقط سنكون بدأنا بالصراع النبيل اللائق بتاريخه الحقيقي وبالهائمين بالحرية. وآنئذ لا يمكن إيقاف هذا الصراع. وحتى إنْ حُرّف عن مساره، أو تعرض للخيانة؛ فإنه سيهدأ ويهتدي في بعض الأماكن، ليتجه نحو هدفه. حينئذ، سيكون التاريخ لنا، وسينبض القلب معنا على الدوام. وستتحول حقيقتنا الاجتماعية إلى ألوهيتها التي أوجدتها. وستتمتع شعوبنا بحرياتها التي طالما تاقت إليها واستحقتها على مر آلاف السنين.

يجب أن يتضمن الخيار السياسي المزايا التي تخوله ليكون الجواب المرتقب لمشاكل الحرية العالقة، أثناء خروج المجتمع الشرق أوسطي من الفوضى، ليس على الصعيد الإقليمي فحسب، بل وفي المستويّة الكونية أيضاً. إن مصير الحملة العالمية هو الذي يُرسَم في المنطقة. الأمر كذلك لأن نجاح النظام القائم بالزعامة الأمريكية سيحدد مستقبل العالم برمته. وبما أن استمرار وجود أحلاف السلطة (المؤلفة من مختلف القوى الإقطاعية في القرن العشرين) كما هو عليه، يُعتَبر الاحتمال الأصعب؛ فستُضطَر القاعدة الواسعة للمجتمع، والتي تعاني من عبء التسلط تقليدياً؛ للدخول في جدول الأعمال، والبروز إلى الميدان. الأمر هكذا لأنه يلبي حاجة القوى الرأسمالية العالمية الساعية لإعادة البناء أيضاً. لكن إمكانية تحديد نطاق الحشود الغفيرة، التي ستستيقظ وتنتفض من سباتها، وفق هذه الرغبات فقط؛ أمر محفوف بالشكوك. ذلك أنه مجهول ما سيخرج من داخل علبة الباندورا. وما سيبدد هذا الغموض هو الجهود الخلاقة والتحريرية بالذات، والتي ستُبذَل في مساحة الفوضى البينية.

سنشهد مرحلة تغيرات سياسية كثيفة بما لا يقاس بأي مرحلة أخرى من التاريخ. فإعادة بناء المجتمع دخلت جدول أعمال التاريخ، تماماً كما تُبنى المدن الحديثة. تتوارى هذه الحقيقة في خلفية كل المصاعب المعاشة في الشرق الأوسط. ستُخاض الصراعات في أوساط مشحونة بالعلاقات والتناقضات المحتدمة، من أجل إعادة بناء النظام الحاكم من جهة، وإعادة بناء قوى الحرية للشعوب والمجتمعات من الجهة الثانية.

علينا أولاً إعادة تعريف السياسة حسب خصوصيات المنطقة، قبل الولوج في مسألة إعادة بناء الأحلاف فيها. فقد تشمل السياسة تعاريف حالية أو دائمية، باعتبارها الإدارة العملية للمجتمعات. ويمكن تسميتها بسياسة المراوحة في المكان، إن كانت السياسة المتزمتة هي المهيمنة على المجتمع. أو تعريفها بسياسة القفزة، إن كانت سترتقي بالمجتمع. أما التعريف الثالث، فيمكن أن يُعنى بالمضمون. حيث يمكن تعريفها بالسياسة الدولتية إن كانت معنية بحلف الدولة، أو تعريفها بالسياسة الديمقراطية إن كانت معنية بالحشود الموجودة خارج نطاق الدولة. هذا ويمكن الوصول إلى صياغة تعريف لها في ميادين أخرى من قبيل الاقتصاد، السياسة، الثقافة، علم الاجتماع، والفن. حيث يمكن

تعريفها بالسياسة العليا فيما يخص المتغيرات العليا المعنية بالمجتمع؛ أو تعريفها بالسياسة القاعدية أو السطحية فيما يخص المتغيرات العليا المعنية بالساحات الأدنى أو الأضيق نطاقاً. تتمثل النقطة المشتركة لكل هذه التعاريف في إطلاق تسمية السياسة على فنون الإدراة والتنفيذ والتغير والتحول الاجتماعي. يُعنى النشاط السياسي بأعمال بناء المجتمع. وفي حين يكون النشاط الذهني معنياً بصياغة اليوتوبيات والمشاريع والمخططات، سيكون النشاط السياسي معنياً بالتدريب والتعليم والتنظيم والعملية. يتميز عدم الخلط بين الأنشطة الذهنية والأخرى السياسية بأهمية قصوى، تماثل أهمية عدم الخلط المعاكس أيضاً. أما مسألة الإعمار، والعامل والمحترف؛ فبالمقدور تعريفها بالفن (الفن السياسي) الذي يتطلب عناية فائقة للغاية في المجال الاجتماعي. إذن، فممارسة السياسة تستلزم إعداد النفْس في الميدان الذهني، وتعبئة الذات بالقوة اللازمة من أجل إدارة شؤون المجتمع وإحداث تغيره وتحوله في الميدان العملي. أي أنها تتطلب مهارة التدريب والتعليم والتنظيم والعملية. إذ لم تُطلَق تسمية "الفن المقدس" على السياسة عبثاً. في الحقيقة، يتم التنويه إلى الفن الإلهي لدى القول بالمَلك الإله، أوبالسلطان ظل الإله، أو بالدولة في حالة الإله المجسَّم. لذا، يجب قراءة السوسيولوجيا (علم الاجتماع) بوجهة نظر قديرة، لدى تحليل الدين والميثولوجيا.

تتم إعادة الإعمار العسكري والسياسي بكثافة ملحوظة في الشرق الأوسط، من أجل أمريكا وشركائها النخبة. لكن، يجب الفصل بين السياسة والممارسة العسكرية العملية. فاسم السياسة يغدو "الحرب" أو "العسكرتارية" في الوسط المشحون بالصراع المسلح المحتدم. والقتالية في مثل هذه الأوساط، هي المعيّن الأصلي. في حين تظهر السياسة أمامنا كامتداد للأنشطة المرتبطة بالجيش، في الوسط الذي تصمت فيه البنادق (الأسلحة). أي أن الدارج هو عكس صياغة" كلوزاويتزClausewitz". بمعنى آخر، فالحرب هي التي تحدِّد السياسة، لا السياسة تحدِّد الحرب. وهذه الحقيقة عارية ومنكشفة تماماً في العراق. فالحرب التكنولوجية الأمريكية الأخيرة هي التي تشق طريق السياسة (السياسة الجديدة) في العراق. هذا ولطالما كانت الحرب منتصبة في بداية درب السياسة طيلة تاريخ ميزوتوتاميا. تعكس الحرب الأخيرة هذه الحقيقة التاريخية بكل صدق وأمانة. تتسارع وتيرة الأنشطة السياسية كامتداد للحرب، لدى انخفاض مستوى حِدّة الحرب، أو توقفها كلياً. إذن، فالسياسة هي القسم غير المسلح من الحرب. أو هي القسم المعني بالتدريب والتعليم والتنظيم والعملياتية، دون اللجوء إلى السلاح، ولكن المسيَّر اعتماداً على الذهنية الكامنة وراءه. بهذا المعنى، تقوم أمريكا وشركاؤها على تسيير عملية إعادة البناء السياسي، وإطراء التحولات والتغيرات فيه، كدعامة أساسية لذهنية "مشروع الشرق الأوسط الكبير" في عموم منطقة الشرق الأوسط، وفي العراق وأفغانستان في الصدارة؛ تحت غطاء المساندة العسكرية الكثيفة. وقد اختصرنا هذه الأنشطة على شكل ثلاثة سيناريوهات في القسم السابق.

مقابل ذلك، تبرز الأهمية القصوى لتسليط الضوء على أنواع وأشكال الصراع السياسي المكلَّفةُ به قوى الحرية المناهِضة للأنشطة الآنفة الذكر، على خلفية الدفاع عن

الشعب والمجتمع. لهذا الغرض قمنا أولاً بصياغة تعاريفنا اللازمة بصدد الذهنية، بالإضافة إلى التعاريف السياسية.

تتجسد المهمة الأولى في المخطط المرسوم، لدى لملمة السياسة المرئية أشلاءها، في تأمين نهوض الشعوب انطلاقاً من موقفها الديمقراطي، ومن المجتمع المشاعي غير المتمحور حول الدولة؛ وفي تسيير عملية الدمقرطة بناء عليه، وتطويرها وإضفاء النوعية عليها. يجب تناول مسألة عدم التمحور حول الدولة، من الناحية المبدئية. فالحرية الاجتماعية تتنافى والأنشطة المتمحورة حول الدولة. ذلك أن النشاط المتمحور حول الدولة لا يمكن تسييره إلا باسم القوى التسلطية. وبما أن المهمة الأولية للقوى الاجتماعية المتخِذة من الحرية أساساً، تتمثل في مناهضة التسلط، لا إقامة العلاقات معه؛ فمن المفهوم تماماً أن تتمحور حول الديمقراطية، باعتبارها سياسة خارجة عن نطاق الدولة.

إننا نَفصُل هنا تعريفنا للديمقراطية عن تلك الديمقراطية التي تكون غطاءً بورجوازياً للدولة. بل ويجب التمييز والفصل بكل عناية ودقة، بين الديمقراطيات الحقة ـ منذ ديمقراطية أثينا، بل وحتى منذ ديمقراطيات أُولى المدن السومرية ـ وبين الدولة. حيث من المستحيل أن تكون إحداهما امتداداً للأخرى. بل إن تكاثر إحداهما يعني تناقص الأخرى، مثلما أن زوال إحداهما يعني الانتصار التام للثانية. أما الديمقراطية التي تفرضها أمريكا وشركاؤها، فهي ديمقراطية نصف بورجوازية ـ نصف إقطاعية، معنية بوسط محدود للغاية، ومعتمدة على الجهاز العسكري والسلطوي المكثف. في حين أن قوى الحرية الاجتماعية تَعتبر السياسة الديمقراطية نشاطاً أولياً لها، حتى ولو ارتكزت إلى قوة أصغرية للدفاع عن المجتمع. أما السياسة الديمقراطية، فتشمل بدورها أنشطة تدريب كافة الأفراد والمجموعات الاجتماعية القابعة في ظل التحكم؛ وتنظيمها وخرطها في العمليات (التظاهرات، الاحتجاجات، الانتفاضات، والحرب – لدى فرض الظروف ذلك – لأهداف سياسية وقانونية واقتصادية).

إما أن تكون هذه الأنشطة ممارسات يومية، أو فعاليات معنية بالإصلاح والتغيير العاديَّين. أما إنْ كانت تشمل تغييراً أرفع نوعية، فهي إذن نشاطات ثورية. وبقدر ما تتكاثف نشاطات السلطة والديمقراطية للنظام الحاكم، يتم تكثيف نشاطات الديمقراطية لقوى الحرية بنفس القدر وبشكل متداخل، وتسيَّر أحياناً وجهاً لوجه مع الأولى.

مهم للغاية عدم الوقوع في الأخطاء التي دخلتها الثورات الإنكليزية والفرنسية والروسية في التاريخ. وهذا بدوره يتطلب توخي الدقة الفائقة في عدم الوقوع في خطأ تاريخي فادح (يمكن تسميته أيضاً بالحقيقة الإرغامية) وفاجعة وخيمة من قبيل إنكار النشاطات الديمقراطية بعضها بعضاً لدى كلا الطرفين المعنيين، أو قضائها على بعضها البعض، أو انصهار إحداها في بوتقة الثانية. فبالإمكان أن تتواجد العلاقات والتناقضات على السواء بين كلتا الديمقراطيتين. وكيفما يمكن أن تكونا متداخلتين، فقد تكونان وجهاً لوجه أمام بعضهما. الأمر الأساسي هنا هو عدم الوقوع في خطر الانفراد بالذات بصهر إحداهما للأخرى، عبر الجنوح إلى إنكار الأخرى أو القضاء عليها. هذا ويجب التحلي بالاستيعاب التام لقواعد وشروط ومبادئ وأسس أن تكونا متداخلتين معاً، أو متواجهتين.

أما الانفراد بالذات، فهو اتجاه خطير دائماً في الديمقراطيات، حيث يؤدي فيما بعد إلى الإنكار الديمقراطي.

يتمثل الجانب المتفوق للدهاء الديمقراطي في إبداء الحساسية الفائقة إزاء الخيار الديمقراطي الخاص بكل مجموعة في الداخل والخارج. أما العكس، فهو سياسة المَلك الفيلسوف الأفلاطوني، وسياسة المَلك الإله الميثولوجي. كما أنه سياسة الفاشية والتوتاليتارية والهرمية والاستبدادية وكافة أنواع الديكتاتورية. وفي المحصلة يكون ممثلاً للديمقراطية المناوئة الخاصة بجميع النظم التسلطية.

ثمة احتمال كبير بأن تتسم الديمقراطية، التي ستتطور في الشرق الأوسط، بماهية مختلطة. حيث من المحتمل أن تشتمل على مطاليب الطبقتين البورجوازية والإقطاعية، ومطاليب الطبقات والمجموعات الكادحة معاً بشكل متداخل. فعهد الديمقراطية البورجوازية لوحدها قد عفا عليه الزمان. وبالأصل، هي لم تُطبَّق بشكلها النقي أبداً، تماماً مثلما لم تطبَّق ديمقراطية القوى الشعبية الاجتماعية لوحدها، وبشكل منفرد. بالطبع، لا تعني هذه التعاريف بأن الديمقراطيات الاجتماعية الشعبية، والديمقراطيات البورجوازية، لن تكون منفصلة عن بعضها بتاتاً. ذلك أن كل مجموعة شعبية تعيش ديمقراطيتها بكثافة، ويجب أن تعيشها هكذا. فبقدر ما تهضم ديمقراطيتها الذاتية، سيكون بإمكانها تسيير ديمقراطية مشتركة مع المجموعات والطبقات الأخرى، وبنحو أكثر مبدئية وخبرة. كذلك ستقدر حينها على تغييرها وتحويلها.

لِنَرَ العلاقة الكامنة بين الظواهر المجتمعية والديمقراطية عن كثب أكبر في منطقة الشرق الأوسط، في ضوء هذه التحليلات. لقد وجدنا أن مصطلح "دمقرطة الدولة" ليس بمصطلح صائب. أما الصواب فهو "حساسية الدولة تجاه الديمقراطية". والحساسية تعني القبول والاعتراف بالذهنية الديمقراطية، وبالبناء والممارسات الديمقراطية. بالمستطاع القول أن قوة الدولة وضخامتها تَحُدُّ من هذا الوضع. هذا صحيح. ووجود الديمقراطية أصلاً يعني الحد من نطاق الدولة، وتحجيمها. يجب إعادة تعريف الدولة بأنها شكل التنظيم والتمأسس الضروري والاضطراري، لتلبية الاحتياجات في ميدان "الأمن العام" و"الساحة العامة المشتركة" ذات الماهية نفسها؛ وذلك في البلدان التي تنشط فيها الديمقراطية وتتفعل بكفاءة. لا وجود للدولة التسلطية الكلاسيكية في الديمقراطيات.

ضمن هذا الإطار فقط، يمكن أن تتواجد الدولة والديمقراطية معاً. وفي شروط عصرنا الحالي، ليس هناك إمكانية للوجود الكلي للدولة الكلاسيكية، ولا للوجود الكلي للإدارة الديمقراطية. بهذا المعنى، فإننا نسمي عصرنا بعصر الانتقال من الدولة إلى الديمقراطية. حيث تتواجد المؤسسات الأولية – القديمة منها والحديثة المعنية بالمستقبل – معاً بشكل عام في العصور الانتقالية. تماماً مثل المراحل التي شهدت الإقطاعية والرأسمالية معاً.

يتصف تطور الديمقراطية في واقع الشرق الأوسط الملموس بالمحدودية الكبرى. حيث لم تستيقظ أفكاره وردود فعله بعدْ بشكل كلي. فإلى جانب حنين المجموعات الغائر إليها، إلا أن جبروت الدولة المهيمن منذ آلاف السنين قد أدخلها في السُّبات بممارساته

القمعية الصارمة والمجحفة. ورغم حدوث الانفجارات والعصيانات بين الفينة والفينة، إلا أن السمة الاستبدادية الظالمة للدولة دفنت تلك الأشواق والحنين في جوف الأرض تكراراً ومراراً. لكن، وبالمقابل، فبروز التناقض الجذري بين حقيقة العصر تلك، وبين بنية الدولة هذه؛ قد أيقظ تلك الأشواق وذاك الحنين إلى الديمقراطية والحرية والمساواة.

مر القرن العشرون وهو مليء بالدلائل المشيرة إلى حصول تطورات في هذا الاتجاه. أما في القرن الحادي والعشرين، فيبرز الاحتمال الأكبر بتحول الشوق إلى حقيقة متحققة. والبلدان العربية هي الجغرافيا التي تترقب هذه الأمور من أبعد المسافات تخلفاً. ذلك أن إتباع البنية الدينية والإثنية بالدولة، وتقييد السمات الدولتية لشريحتها العليا بروابط متينة على أساس المنفعة؛ إنما يُصَعِّب من استيقاظ ردود الفعل الديمقراطية ومباشرتها بالحركة. لذا تتولد الحاجة للمداخلة الخارجية.

رغم أن تطور إسرائيل في أحضان العرب قد أسفر حتى الآن عن تعزيز النعرات القوموية والدينية، إلا أنه شارف على عتبة إفراز تأثيرات مناقضة لذلك من الآن فصاعداً. لقد أدرك العالم أيضاً، وبكل يقين، استحالة حل الصراع العربي – الإسرائيلي المزمن عبر النعرات القوموية والدينية. لا يمكن اختراق هذا الانغلاق إلا بتخطي القيادة القوموية والدينية، وبروز مجموعة القواد الديمقراطيين. فالشروط الداخلية والخارجية على السواء تمنح الفرص الواسعة للميول المتجهة صوب الحل الديمقراطي، مثلما شوهد في مثال قبرص. لأجل ذلك، سيدخل مشروع الشرق الأوسط الكبير حيز التنفيذ بمخططات ملموسة وموضَّحة أكثر. نخص بالذكر هنا الأهمية المُبداة لدمقرطة كل من المملكة العربية السعودية ومصر. في حين أن الدول العربية الأخرى الصغيرة بقيت مرغمة على الاهتمام بالديمقراطية، وكأنها تلقنت دروسها اللازمة من العراق. أما الرأي العام العالمي في الخارجي، وأشواق الموقف والسلوك الديمقراطي والمجتمع المشاعي – التي طالما تعرضت للقمع والتحريف على مر آلاف السنين – في الداخل؛ فهي على وشك الاستيقاظ والنهوض. لذا، من غير الوارد أن تقاوم الدول العربية الاستبدادية تجاه كلتا هاتين الظاهرتين مدة طويلة، أو أن لا تعترف بإفساح الساحة اللازمة للديمقراطية. أما عَنْوَنَتُها بالمَلَكية أو الجمهورية، فلا أهمية زائدة لها بالنسبة للدمقرطة. فكلا الشكلين يجنحان إلى الاستبدادية. المهم هنا هو حساسيتها تجاه الديمقراطية، وانفتاحها أمام تحجيم الدولة.

لقد تعزز وجود هذه الدول التابعة لأنظمة التوازنات التقليدية، فيما بعد عام 1990. سيفرض الوجود الأمريكي المهيمن في المنطقة، على تلك الدول أن تتوجه صوب شكل المقاطعات والأقاليم. في حين يبرز الاحتمال الأكبر بتوجهها نحو الديمقراطية ضمن معايير أمريكا، لتحافظ على وجودها كدول. سيصعب عليها مع مرور الأيام أن تستمر في المرحلة المقبلة في اتفاقاتها التحالفية المعتمدة على أمريكا، بل والممتدة حتى فرنسا وإنكلترا، وحتى العثمانيين من قبلهم. ينبع مشروع الشرق الأوسط الكبير أصلاً من هذه الصعوبات. ورغم أشكال الاختلاف البارزة في البنى الديمقراطية لكل بلد على حدة، إلا أنها ستتم بالتشابه فيما بينها. أما حقوق الإنسان، منظمات المجتمع المدني، الانتخابات، التعددية الحزبية، التنوع في الميدان الإعلامي، تعزيز البرلمانات والمجالس، وتطور

الفردانية؛ فستحتل جدول الأعمال كتطورات مشتركة. ويُنتَظَر حدوث التطورات في الأنشطة القانونية والدستورية أيضاً. في حين لن تكون الديمقراطية التي ستتطور، ديمقراطية نصف إقطاعية – نصف بورجوازية محضة، ولا ديمقراطية شعبية محضة. بل قد تُبدي وتُحدِث انفتاحات محدودة تجاه الدولة، لكنها ستتبدى كنشاطات تشمل المجتمع تدريجياً.

إن ظاهرة الدين والإثنية مرغمة على إطراء التغيير في طَور الدمقرطة. حيث يمكن تمثيل كل من الدين والإثنية على شكل منظمات المجتمع المدني والمنظمات السياسية الحديثة. قد تتخلى العشائر والدين، بمعناها الكلاسيكي، عن مكانها للبنى الديمقراطية والسياسية. أما الدولة والديمقراطية المعتمدتان على الدين والإثنية، وكذلك الكيانات الناكرة تماماً لهاتين الظاهرتين؛ فجميعها لن تجد فرصتها في الحياة، ولن ترى النور. نخص بالذكر هنا عجز الاتجاهات الليبرالية واليسارية ذات النمط الأوروبي عن تأمين قاعدة لها، لأسباب عديدة أهمها قصورها في التحليل الصائب للدين والإثنية، وعجزها عن عقد الأواصر معهما. مع أن الحبكة الاجتماعية تعتمد على هاتين الظاهرتين بنسبة كبرى. سيكون احتمال النجاح في السياسة عموماً، وفي السياسة الديمقراطية خصيصاً، ذا نسبة منخفضة جداً، من دون تطوير المواقف والبنى الجذرية بشأن الدين والإثنية. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالقيام بثورة (أو ثورة مضادة) ديكتاتورية شديدة الضراوة، من الأعلى. لكن ديمومتها حينئذ ستكون محفوفة بالظنون والشكوك الكبرى. هذا ويجب سلوك الموقف ذاته بالنسبة للطرائق والمذاهب أيضاً. حيث بمقدورنا مشاهدة ضرب من نظام أديرة العصور الوسطى في كلتا الظاهرتين، مثلما هي حال أشكال المجتمع المدني في العصور الوسطى. يستلزم الأمر بذل جهود ومساعي خاصة لتغيير وجهة هذه المؤسسات، التي لا تزال تستمر في وجودها في يومنا الحالي أيضاً، وتوجيهها نحو الديمقراطية. يتجسد الأسلوب الأصح هنا في رؤيتها كظاهرة سوسيولوجية، وربطها بمنحى الحرية؛ عوضاً عن إنكارها وقمعها. هذا وستلعب حقوق المرأة وحريتها أيضاً دوراً مهماً في المرحلة الديمقراطية، كتطور لا غنى عنه. وسنتناول هذا الموضوع على حدة.

تتميز كل من إسرائيل وسوريا بأهمية كبرى بالنسبة لعملية الدمقرطة، باعتبارهما عضوان استراتيجيان في الساحة العربية. ثمة ديمقراطية متعززة تماماً في إسرائيل. هذا ما يشكل عاملاً مهماً في قوتها، لا ضعفها. أما قول الشيء عينه بالنسبة لسوريا، فهو أمر عسير. تتواجد سوريا الآن على مشارف مفترق حقيقي. فإذا لم تُسَرّع من خطواتها في الدمقرطة عبر الإصلاحات، ولم تحل مشاكلها وإسرائيل؛ فقد تقع في حالة تكون فيها عراقاً ثانياً. بإمكان الدمقرطة والسلام مع إسرائيل أن يحقق تحولات النظام الموجود في سوريا، دون اللجوء إلى العنف. حيث بمقدور المتنورين الأكفاء، والبنى الإثنية والمذهبية المختلفة، والطبقات الوسطى والفقيرة، أن تحقق مرحلة من التطور أكثر عطاء وإثماراً، في ظل ديمقراطية مشتركة. أما دور كرد سوريا، فهو قابل لتأمين فرص التحول

الديمقراطي الليبرالي، أكثر من قربه إلى كرد العراق. والتقرب الحساس للدولة السورية هو الذي سيحدِّد ذلك. بمقدور البرابرة في أفريقيا الشمالية أن يلعبوا دوراً مشابهاً.

أما العراق، فهو المرشح أكثر من غيره ليكون مختبراً للديمقراطية بين العرب، بل وحتى في عموم الشرق الأوسط. ما يُزيد من إنضاج ميزته هذه في أن يكون المختبر، هو احتضانه بين طياته لكافة الظواهر الإثنية والدينية والمذهبية والسياسية والاجتماعية الموجودة في المنطقة، على وجه التقريب. سيبلغ هذا البلد منزلة استراتيجية بالنسبة للديمقراطية، حصيلة مبادرات الدمقرطة المتزايدة لدى مختلف المجموعات السفلية الإثنية والمذهبية والاجتماعية، عبر مساعي أمريكا وشركائها، والتي ستتجذر مع الزمن. فإنْ استُخدِم الغنى التاريخي والنفطي بشكل صائب، سيكون فرصة ثمينة لأجل الديمقراطية أيضاً. هذا وسيتمخض إصرار الكرد على الفيدرالية الديمقراطية عن نتائج مهمة تتخطى وجودهم، لتشمل المنطقة برمتها. بمقدور الفيدرالية العراقية الديمقراطية أن تكون نموذجاً مصغراً لفيدرالية الشرق الأوسط الديمقراطي، التي ستجهر بصوتها، وسيتردد صداها مستقبلاً على نحو أفضل. لهذا السبب تتميز التطورات الجارية بأهمية قصوى. فقد تتعمم الحلول المطبقة في العراق، لتشمل منطقة الشرق الأوسط جمعاء.

وفيما يتعلق بالدمقرطة في إيران، فستفرض نفسها أكثر. حيث تزداد مشقات تقاليد الدولة الكلاسيكية الراسخة في مواصلة تواؤمها وتناغمها مع العصر. كما تتكاثف الأشواق والحماس الديمقراطي بين صفوف الشعب الإيراني. وإيران أدنى إلى الفيدرالية منها إلى الانقسام. حيث تهيمن العناصر والعوامل المشابهة للديمقراطية في عموم الدولة المعمِّرة 2500 عاماً. فإذا ما التحم حنين الشعب المُرَكَّز مع كيان الفيدرالية العصرية، فقد تغدو إيران فيدرالية ديمقراطية هي الأقوى في المنطقة. وستصبح وقتئذ ضرباً من روسيا الثانية. أما الخيار الحقيقي والراسخ بالنسبة لإيران، تجاه الممارسات القمعية الأمريكية المتزايدة، فهو التوجه قُدُماً نحو الفيدرالية الديمقراطية، عوضاً عن سلوك مقاومة صَدَّاميّة. يؤثر التسيُّس المفرط للدين سلباً على عملية الدمقرطة.

قد تنقلب قدرات الأيديولوجية الدينية وهيمنتها رأساً على عقب تدريجياً. فالثقافة الإيرانية أقرب إلى الدمقرطة. حيث تُشكِّل تقاليد المقاومة التاريخية، والعديد من الشخصيات التاريخية، بدءاً من زرادشت حتى مازدك، ومن بابك إلى حسن الصبّاح؛ أرضية تحتية لثقافة الديمقراطية. هذا وبمقدورها تطهير ذاتها من أمراض تجربة المعارضة المتعددة الطوابع في المستقبل القريب، لتطوّر ديمقراطية مبدئية. كما قد يُسَرِّع التواصل التكنولوجي من وتيرة المرحلة. فإذا ما أبدت الإدارةُ المرونةَ اللازمة، فقد تتحقق دمقرطة مشابهة لما في إسبانيا، داخل الواقع الإيراني.

يتميز الدور الديني في باكستان بسلبية أكبر. وكأن النعرات الدينية المغذية للعشائرية ولمناهضة الميول الهندية، تأسِر الدولة والمجتمع معاً. إلا أن توقف أمريكا عن مساندة الدين، وخوضها تجربة أفغانستان، قد يُضعِف من تراص الحبكة الدينية، ويطوّر من الديمقراطية المدنية (غير الدينية). حيث لا يمكنها التغلب على كل من الهند وإيران وأفغانستان بأي شكل آخر. أما الأنموذج الباكستاني، فيجب أن يشهد التحول بسرعة

قصوى. في حين قد تصبح التجربة الأفغانية نموذجاً مصغراً للعراق بالنسبة لعموم آسيا الوسطى. حيث ستصبح تجربة الدمقرطة في أفغانستان العاملَ الأكثر تأثيراً في فرض التغييرات في آسيا الوسطى. أما دمقرطة الجمهوريات التركية، فهي أقرب إلى روسيا. لكن، قد ينمُّ جوارها عن مستجدات أكثر خصوصية.

رغم عدم قابلية البنية الذهنية للشرق الأوسط للتوجه بسهولة صوب تحقيق تطور من نوع الاتحاد الأوروبي، بسبب وجود الذهنيات والدول المتجزئة؛ إلا أن الأرضية التاريخية تجعل من المشاطرة والمشاركة أمراً أكثر عقلانية. أما القمة الإسلامية، فهي ليست فعالة كثيراً. يمكن تَصَوُّر فيدرالية الشرق الأوسط الديمقراطي كغاية مثلى. تُزيد أمريكا وشركاؤها من فرض التطورات في هذا المنحى، لِما تجد في الدمقرطة ملاءمة أفضل لمنافعها. وبينما كانت القوى الاستبدادية المناهضة للديمقراطية تحظى بمساندتها ومؤازرتها أساساً قبل عام 1990، إلا أن المرحلة الجديدة تشهد نقيض ذلك. لا يمكن أن يتحمل صعودُ العصر نحو الديمقراطية أن تُدار المنطقة لمدة طويلة ببنى الدولة المتخلفة عن ركب العصر، والباقية خارجه. فظواهر الدول القومية المعتمدة على التوازن السوفييتي – الأمريكي خلال العقود الخمسة أو الستة الأخيرة (50 – 60 عاماً)، باتت تشكل نماذج مجدبة وعقيمة، لدرجة لن تقدر العولمة تحملها. لذا، فالاحتمال الأكبر هو بروز نموذج دولة قادرة على الإصغاء لمجموعات الشعب السفلى، وتكون بناءً على ذلك حساسة إزاء الديمقراطية، ومقوَّضة ومحجَّمة. انطلاقاً من هذه العوامل، فقد يقدم انتقال الشرق الأوسط إلى عصر الحضارة الديمقراطية مساهمات مهمة لإطراء التحولات على عموم العالم أيضاً.

جلي تماماً أن هذه الرؤى المستقبلية المبيَّنة كوضع ملموس للمستقبل القريب لمنطقة الشرق الأوسط، لا تعكس الغايات المثلى بالنسبة لنظام الشعب الديمقراطي والمشاعي. بل تبقى غايات مثلى أقرب إلى اليوتوبيا الاشتراكية التي سادت في وقت من الأوقات. لكنها من جانب آخر أكثر واقعية. المهم هنا ألا يَجعَل المعنيون بقضية الحرية الاجتماعية والمساواة، من مواقفهم المبدئية قرباناً أو ضحية للحلول (هي في الحقيقة اللاحلول) المتمحورة حول الدولة؛ وألا يتخلوا عن مواقفهم المبدئية تلك مقابل تنازلات معينة، مثلما فعلت الاشتراكية المشيدة، ومثلما فعل التحرريون الوطنيون والديمقراطيون الاجتماعيون. إن السبيل الأسلم بالنسبة للعمق والحرية والمساواة، هو الإصرار على الديمقراطية. لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بهذا السلوك، أي بالدمقرطة الأشمل وذات النفَس الأطول؛ وإنْ كان الوقت متأخراً، على حد تعبير لينين.

تشكِّل ظاهرة المرأة البؤرة الأساسية لحل كافة المشاكل الاجتماعية في الحضارة الشرق أوسطية. وبدون الدخول في تكرار تطورها التاريخي الوجيز؛ يجب أن يكون شعارنا الأولي للمرحلة المقبلة هو "تحقيق الانكسار الجنسي الثالث الأكبر على حساب الرجل". لا يمكن لأي طلب في الحرية والمساواة أن يكتسب معناه أو يتحقق، ما لم تتحقق المساواة الجنسية الاجتماعية. مرة أخرى تبرز حرية المرأة كعنصر أكثر رسوخاً وشمولية في عملية الدمقرطة. ذلك أن مشكلة المرأة تشكل الجانب الأضعف للنظام الذي

بَضَّع المرأة سابقاً، ليبضِّعها بكل ما فيها في يومنا الراهن. على جنس المرأة أن يقوم بأفضل الأشكال إيجابية للدور الذي قامت به الظاهرة التي كانت تسمى بطبقة العمال، في وقت من الأوقات. علينا تحليل وحل جنس المرأة ونَسَبها قبل الظاهرة الطبقية، ليصبح بالإمكان بعدها فهم وحل وتحليل الطبقية والقومية على نحو أفضل.

لا يمكن تحقيق الحرية الحقيقية للمرأة، إلا بإزالتها للمشاعر والإرادات الاستعبادية المسلَّطة عليها من قِبَل الزوج أو الأب أو العاشق أو الأخ أو الصديق. فأفضل عشق هو أخطر مُلكية. من المحال كشف النقاب عن هوية المرأة الحرة دون تمرير كافة القوالب الفكرية والدينية والعلمية والفنية، التي خلقها عالَم الرجل المهيمن تجاه المرأة، من مصفاة الانتقادات المكثفة. على المرأة أن تكون مُلك ذاتها أولاً، كي لا تصبح مُلكاً لأحد. والمرأة المتحولة إلى مُلك وسلعة، تعيق ظهور الرجل الفاضل أيضاً. تُشكِّل معاشرة امرأة كهذه حجر عثرة أمام الرجل الحر. بمعنى آخر، المرأة المُحَطّ قدرها هكذا، تعني – ولو بالمقلوب – رجلاً منحطاً.

إن القول بارتباط مستوى حرية المجتمعات بمستوى حرية المرأة، إنما هو تحديد صائب. وإذا ما نظرنا من الزاوية الأستتيكية للموضوع، سيتضح بكل جلاء أنه من لا يكون حراً، لن يكون جمالياً. بالتالي، لا يمكن أن تتحقق أيُّ حياة تغيب فيها الجماليات، إلا في حدود فصيلة الثدييات البدائية. سيكون أكثر واقعية ومصيرية أن ننظر إلى ظاهرة المرأة كظاهرة فنية، لا كمُلك أو سلعة، ولا كنظرة العامل أو القروي إليها.

تتميز رؤية المرأة كجزء أكثر فاعلية وحساسية ويقظة في الطبيعة، والانتباه إلى أنها تحمل بين ثناياها قدسية بارزة، وعدم مخاطبتها بلغة الرجل المهيمنة، واستيعاب لغتها المفعمة بالألغاز؛ تتميز بأهمية بالغة بالنسبة للحياة الجمالية والأستتيكية. أسوأ الممارسات العملية الاجتماعية، هي هيمنة الرجل وأنانيته المفروضتان على المرأة. ما من شيء يتسم بالقَدَرية بقدر ما يتسم بها موقف الرجل الجلف والفظ، المفروض على المرأة المتروكة تتخبط في حالة عقيمة. بناءً عليه، لا يمكن أن يتحقق وجود الرجل الحر – وبالتالي المجتمع الحر – المتسم بقدراته العليا، الناضج، الحساس والنبيه، المتساوي والعادل، المستوعب للحرية، وبالتالي الديمقراطي؛ إلا بالامتثال للمقاييس التي عرَّفناها إزاء المرأة، وبمعرفة كيفية تلبية متطلباتها. فالمجتمع الأكثر غوصاً في بحر العبودية، هو ذاك الأكثر ازدراءً للمرأة واستخفافاً بها. كذلك، فالمجتمع الجاهل بكيفية العيش، هو ذاك الذي قَبِل العيش العشوائي مع المرأة. كما أن أكثر أنواع الحياة سوءاً وبلادة ولا مبالاة وبُعداً عن الحماس والنشوة والفهم، هي تلك الحياة المتحققة مع المرأة العبدة.

لو نظرنا إلى المجتمع الشرق أوسطي بناءً على كل هذه التعاريف، سندرك على نحو أفضل دوافع سيادة حياة متخلفة، خاوية من المعنى، ظالمة، قبيحة ومفتقرة للفهم والإدراك في هذا المجتمع. جلي بما لا شائبة فيه أنه من المستحيل أن يفلح مجتمع ذكوري (رجولي) يُبدي هذا الكم الهائل من المواقف البسيطة، المفتقرة للأستتيك، وعديمة القيمة إزاء المرأة، بل وحتى ينظر إليها كسلعة ومُلك وبلاء يجب الخلاص منه؛ أو أن يتخلص من الحياة القبيحة المفتقرة للأمن والسلام. ومجتمعات رجولية كهذه لن تقدر على إبراز

قدسية الحياة، أو سمو الوطن الأم، أو الفضيلة الحقة؛ ولا على سلوك موقف معني بالطبيعة الحيوية المفعمة بالمعاني. ولدى عجزها عن فعل ذلك، تلجأ على الدوام إلى التذرع بـ"المرأة الشيطان".

في الحقيقة، فالمرأة الشيطان والناقصة، ليست سوى أكثر أخدوعات وأكاذيب المجتمع الرجولي الفاشل دناءة وسفالة. لذا، لا يمكن كسب الحياة الحرة دون خوض صراع ضارٍ وضروس تجاه أيديولوجية الرجل المهيمنة، وتجاه أخلاقها وقواها الاجتماعية وأفرادها. كذلك الأمر بالنسبة لخلق المجتمع الديمقرطي الحق. بالتالي، سيكون من المحال وقتئذ تحقيق الاشتراكية بجانب المساواة منها. لا يتجسد الخيار السياسي للشعوب في المجتمع الديمقراطي وحسب، بل في المجتمع الديمقراطي التحرري الجنسوي.

وبشكل ملموس أكثر، يجب تسيير نضال حرية المرأة بشكل متداخل، بدءاً من تأسيس حزبها الذاتي الخاص بها، مروراً بتكوين حركة المرأة الجماهيرية، ووصولاً إلى تأسيس كافة منظمات المجتمع المدني والبنى السياسية الديمقراطية. سوف تكتسب المرأة شخصيتها وهويتها الحرة، بقدر ما تتخلص من قبضة هيمنة الرجل ومجتمعه، وتتحرك بمبادرتها المستقلة، وتكتسب قوتها. إن وضع الحجاب في سن مبكرة هو أظلم أشكال العبودية. في حين أن عدم حجب رأس المرأة (عقلها) هو أنبل سلوك. ما من سوء طبقي أو قومي يضاهي في سفالته دناءة الممارسات المفروضة على المرأة بيد الرجل، بدءاً من إلباسها الملاءة والبرقع، وحتى الإباحية. بالتالي، تُعتَبَر مؤازرة ومساندة نقمة المرأة وسخطها ووعيها في الحرية وحركتها، من أسمى قِيَم الصداقة والإنسانية. يشكل الشرق الأوسط المنطقة التي شهدت أقوى ثقافات الإلهة الربة، بقدر ما تعرفت على حضارة عبودية المرأة الغائرة في الأعماق. لذا، من الضروري أن تفسح هذه المنطقة حيزاً لمسيرة عظيمة لصالح المرأة، بتحقيقها الانكسار الجنسي الثالث الأكبر، بما يليق بتاريخها العريق. فالسقوط الكبير ينُمُّ عن نهوض عظيم. بناء عليه, لو عشنا كما المؤمنين بدين الإلهة الأنثى الجديد، فسنبلغ الأمومة المقدسة وأنوثة العشق المستحقة.

لا أولي معاني كثيرة لمسألة: كيف يجب أن يكون الاقتصاد والطبقة والمعاملات الاجتماعية في المجتمع البديل للشرق الأوسط. فالمواضيع التي يجب تحليلها بالأرجح هي تلك التي تناولناها. تكمن الثورية الحقة في تعريف كل من العمالية والبطالة والقروية، لا التعرف عليها. والتفكير في هذه التمايزات الطبقية على شكل عبيد للآغا ولرب العمل، سيقربنا من الحقيقة أكثر. كلما تجاوزت الحرية مسألة العمالية والقروية من ناحية الذهنية والسياسة الديمقراطية، حتى وإن لم يكن من الناحية الاقتصادية؛ فسوف تتحقق على أرض الواقع. حيث لا يكون العامل والقروي متواجدَين إلا بالضرورة الاضطرارية. إذا كانت الحرية تعني تجاوز تلك الضرورة الاضطرارية، إذن، يجب تجاوز وجود العامل والقروي. وإذا ما تم خوض الصراع الطبقي الحقيقي بهذه الذهنية وبالطراز الديمقراطي، حينها ستجد الاشتراكية أيضاً معناها الحقيقي، باعتبارها تعبر عن المساواة. والبطالة هي ثمرة غياب الديمقراطية. لا يمكن للمجتمع الذي يعرف كيف يكون ديمقراطياً، أن يفرز

العاطلين عن العمل. وأينما تواجدت البطالة وازدادت، تكون الديمقراطية غائبة هناك، وبنفس القدر. ظاهرة البطالة على العموم هي علة من علل الحضارة الطبقية، ومرض من أمراضها. والإنسان (أو الجماعات) الذي يعرف كيف يحارب هذه الظاهرة ويناهضها، لن يبقى عاطلاً عن العمل في أي وقت من الأوقات. وحتى إن لم يتواجد أي عمل وقتئذ، فبما أن القيام بالأعمال الديمقراطية هو أسمى الأعمال، فهذا يعني أن لكل واحد أسمى عمل موجود. فلتكن ديمقراطياً حسناً، ولتحارب في سبيل الحرية. حينها ستجد أنك لن تبقى عاطلاً عن العمل طيلة حياتك، ولو لساعة واحدة. أما الشعوب والجماعات العاجزة عن الصراع في سبيل الديمقراطية، فستبقى في كل الأزمان عاطلة عن العمل أو أجيرة لدى أرباب العمل. إذن، والحال هذه، بقدر ما نقوم بتعليم وتعبئة مجتمع ما، أو فرد ما، من أجل خوض صراع الديمقراطية، وبقدر ما ننظمه ونخرطه في العملية؛ سنكسب حينها الصراع تجاه البطالة والإدمان على المخدرات والكسل.

لن تنجو الشعوب الشرق أوسطية من التخبط في البلاء والكسل والبطالة دهراً من الزمن، ما لم تنتفض في سبيل الديمقراطية. والمجتمعات التي تعرف كيف تكون ديمقراطية، ستتبنى آنذاك أوطانها، ومختلف أنواع مواردها، وشتى أشكال كدحها وثقافاتها. حينذاك، لن يبقى في الوسط سوى كدح الإنسان المثمر والمعطاء. ولدى اتحاد هذا الكدح بعصر العلم والتقنية، أظن أنه لن يبقى ثمة أثر للمجاعة والبطالة. أنوه مرة ثانية؛ البطالة والكسل هما ثمرة من ثمار غياب الديمقراطية، والتعود على العبودية. وإذا كانت ثمة رغبة حقيقية في القضاء عليهما، فلن يستطيع المرء إحراز النتائج المرجوة، إلا بفرض التنظيم الديمقراطي والعملية الديمقراطية على الدولة ورب العمل (كلاهما يشكلان المنبع الأصلي لكافة أنواع البطالة والانحطاط والسفالة)، لا بارتجائهما. الصراع الاقتصادي الحق منوط بمثل هذه العملية الديمقراطية. أما السبل الأخرى، فهي ألعوبة من ألاعيب النقابة العمالية الصفراء، والعمالة لرب العمل. ولا تعني سوى البقاء طيلة الحياة في دائرة عبودية العامل والقروي بالتنازلات البخسة. والمجتمعات (أو البلدان) التي عرفت كيف تكون ديمقراطية في التاريخ (مثال أثينا) وفي حاضرنا (سويسرا وإنكلترا)، هي المجتمعات الأكثر غنى وتفوقاً.

التاريخ في الشرق الأوسط، هو التاريخ الذي قضت فيه الأيكولوجيا (علم التبيؤ) نحبها. ولدى اغتراب حضارة المجتمع الطبقي عن الطبيعة، تَطَوَّر دمار البيئة الدائم يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، سنة بعد سنة، قرناً بعد قرن، وألفية بعد ألفية؛ لتتحول كل غاباتها وأراضيها إلى صحراء قاحلة، رغم أن تلك الغابات والأراضي هي التي شكلت شرايين الإنسانية الأكثر عطاءً. لقد كانت مساحاتٍ أولية شقت الطريق نحو الحضارة، بأعشابها ونباتاتها وحيواناتها. لكن، وعندما فرض الإنسانُ الرقَّ على أخيه الإنسان، سلَّط فأسه الظالمة، وتخريباته على الطبيعة. هكذا تحولت الأراضي الأشبه بجنات النعيم إلى صحراء مجدبة. ولدى غياب الغابات، غابت الأراضي المثمرة. وبغياب الأراضي المثمرة، غاب العشب والحيوان، ومعهما غاب الإنسان. لقد جاع وعطش، فلم يستطع البقاء. المحصلة، كانت أنْ تحولت أغنى الأراضي إلى أفقرها، وإلى أراضي مهجورة.

تلك الأراضي التي كانت تشهد النزوحات والتدفقات إليها من أربع جهات العالم، غدت أراضٍ يهرب منها الإنسان إلى جهات العالم الأربع؛ لتتحول إلى براري موحشة وسهوب مقفرة.

لم يُكتَب تاريخ الأيكولوجيا في الشرق الأوسط، مثلما لم يُدَوَّن بعد تاريخ المرأة أيضاً. كيفما أنه ضروري معرفة تاريخ المرأة من أجل بلوغ المرأة الحرة، فمن الضروري أيضاً معرفة تاريخ الأيكولوجيا في سبيل بناء المجتمع الأيكولوجي. وأي ديمقراطية أو مجتمع يناديان بالحرية الجنسية، ولا يستندان إلى وعي البيئة وعلمها وعملياتها؛ لا يمكن أن يكونا الخيار الحق للشعوب.

بشكل أعم، لن يكون هناك أي فارق بين الديمقراطية والحركة التحررية الجنسوية، وبين العوالم الرجولية التسلطية الأخرى؛ ما لم تعتمدا على حركة إعادة إخصاب الأراضي ونشر الغابات تجاه عملية التآكل والتعرية الجارية. الحركة الأيكولوجية شرط لا استغناء لنا عنه من أجل المجتمع الجديد الذي نرمي إلى بنائه. الأيكولوجيا ليست اقتصاداً فحسب. بل هي ذهنية. وهي تعني العودة مجدداً إلى المفهوم المفقود للطبيعة الحيوية والمقدسة. فبدون تحلينا بوعي خاص إزاء الطبيعة النابضة بالحياة، المتحدثة إلينا، الموجودة معنا، والمُوجِدة إيانا؛ فالحياة مع طبيعة جامدة مفتقرة لقدسيتها، ومع أراضٍ سوداء داكنة كالموت المظلم، ليست سوى حياة غابت فيها القيم بنسبة كبرى. لا يمكن أن يشمل وعي الطبيعة مسألة تلوث المياه والهواء فحسب. بل إنه يعني الالتحام الكلي بالطبيعة، والتحول من الطبيعة الممسوحة والمقسَّمة إلى أجزاء وفتاتات، إلى الطبيعة المتكاملة. هذا ما يعني بدوره بلوغ المجتمع الديمقراطي والاشتراكي.

ثمة تداخل عظيم هنا، وتبجيل لسلسلة سياق التطور الطبيعي الخالق للإنسان. بمقدورنا خلق المجتمع الطبيعي، الذي حققه المجتمع المشاعي البدائي تلقائياً، بوعي أفضل في راهننا، عبر العلم والتكنولوجيا. قد تبدو المشاكل الأيكولوجية مجرد خيالات وفانتازيا، مقابل المشاكل الدموية التي يعانيها الشرق الأوسط. لكن، لن ننسى أنه بخيانة الأيكولوجيا تم بلوغ هذه المشاكل الدموية والمجاعية والبطالية. وإذا لم نعتمد الحكمة هنا، فلن يمكننا الحديث عن مجتمع سليم دون الاعتماد على الأيكولوجيا. تماماً مثلما لا يمكن الحديث عن العلاج والشفاء السليم دون مراجعة الطبيب. بالتالي، لن يكون بالمقدور حينها تأسيس مجتمع ديمقراطي وجنسوي حر.

لقد بلغت مجتمعات الشرق الأوسط بكافة شعوبها مفترق الطريق. فاتجاهات وميول الإمبراطورية الأمريكية كقوة مهيمنة بعيدة كلياً عن إيجاد الحل. بالمقابل، فسلوك نماذج جديدة شبيهة بفييتنام، أمر غير منطقي. هذا ومن المستحيل تكرار تجربة تركيا المعاشة في العشرينات من القرن الماضي. بمعنى آخر، لا يمكن تكرار تجربة تركيا التحررية الوطنية، أو فييتنام التحررية مثلما كانت في الماضي؛ لأسباب عديدة أوَّلُها غياب قوى التوازنات السوفييتية. والأهم من ذلك عدم بقاء الإمبريالية على حالتها الماضية. بالتالي، فشروط المرحلة التاريخية وأهدافها، وحروبها وصراعاتها التنظيمية، ستكون

مختلفة. يتمثل الأسلوب الأكثر معنى تجاه أمريكا الراهنة وشركائها، في تحقيق التحام جميع قوى الحرية للشعب والمجتمع بمنهاج أيكولوجي وديمقراطي وتحرري مبدئي قابل للتنفيذ، وبأجهزة تنظيمية واسعة الآفاق؛ والعمل على تفعيلها بموجب ذلك. قد تكون مثل هذه الحرب أقل دموية، لكنها الأكثر وعياً ورسوخاً في نتائجها.

يمكننا تطبيقها بالوفاقات المبدئية إن تطلب الأمر. وإلا، فبالاعتماد على قواتنا الدفاعية الذاتية، لتحقيق ديمقراطياتنا في القرية والمدينة والجبال والصحارى. لا فرصة للنجاح من أجل الشعوب العاجزة عن دمقرطة ذاتها. في حين لو تحركت الشعوب عبر مؤتمراتها الممثلة لإراداتها بالشكل الاعم، وعبر مختلف أنواع المنظمات المعنية بالمجتمع المدني والتعاونيات ومجموعات النشاطات المشاعية؛ فستجد أنه ما من قضية معنية بالمجتمع إلا وستكسبها. وإذا ما حصل نهوض الشعوب بناء على هذه الخلفية في المرحلة التاريخية الجديدة للشرق الأوسط، فلن تكتفي حينئذ بإفراغ الممارسات الإمبريالية الماضية وما شابهها، بل وستقوم بالريادة للدمقرطات الأكثر سلماً وأمناً، عبر الوفاقات المبدئية والمفعمة بالمعاني. بهذه الشاكلة يمكنها تحقيق نهوض يليق بحضاراتها التاريخية العريقة.

إنْ قيل: أين بقي دور الثوار؟، فسنقول أنه عليهم، قبل كل شيء، معرفة الوصول إلى حقائق علم الاجتماع ذاك، الذي سعينا لرسم إطاره. ذلك أن الثورية المفتقرة إلى علم الاجتماع ـ أو التحول الاجتماعي المفتقر إليه ـ قد تمتزج أحياناً بالجنايات والخيانات، دون أن تنتبه لذلك. والسبيل الوحيد والفريد لإعاقة ذلك، هو إنقاذ علم الاجتماع الذي رسمناه من قبضة قوى "السلطة ـ المعرفة"، وإعادة بنائه، وتأسيس مدارسنا وأكاديمياتنا الخاصة بعلم الاجتماع الذي نرمي إليه. كذلك يتجسد في العمل بذهنيتنا المعتمدة على علم الاجتماع أساساً، في سياستنا. قد يكون الأهم من كل ذلك، هو سيادة الأخلاق الاجتماعية، وإبداء الصبر والإيمان والعزم اللامتناهي للسير في السبيل الصحيح المرسوم في السياسة الأخلاقية. هذا بالإضافة إلى عدم الرجوع إلى الوراء، عدم الوقوع في الخيانة، وبالتالي عدم التذرع بأي شيء من أجل ذلك. وكذلك تناغُم وتَوافُق الأخلاق لحظة بلحظة مع عالمنا الذهني المعجون بالعلم؛ والعيش الدائم مع الوعي. في هذه الحالة، عندما يتكاتف العلم والسياسة والأخلاق، سنرى بأم أعيننا أنه ما من قضية اجتماعية (أو مجتمعية) إلا وسنتغلب عليها، وسنفلح في تسخيرها في خدمة البشرية عموماً، وفي خدمة شعوب منطقتنا، التي هي جزء لا يتجزأ من البشرية، على وجه الخصوص. فأخلاقنا التي تمثل وجدان وضمير التاريخ والمجتمع، إنما تأمرنا بممارسة سياسة مفعمة بالوعي كهذه، وبتأمين التغير والتحول الاجتماعي المراد والمرتأى عبرها؛ وتحثنا على القيام بذلك أكثر من أي وقت مضى.

باختصار؛ ثمة ثلاثة خيارات أولية أمام شعوب الشرق الأوسط، في عصر الانتقال إلى الحضارة الديمقراطية:

أولها: استمرار الوضع الراهن (النظام القائم) كما هو. لقد انتهى عمر النظام المحافظ على وجوده بالانتفاع من نظام التوازنات الذي ساد القرن العشرين. تُبذَل المحاولات لتخطي حالة الأزمة الحالية المتسارعة مع انهيار الاشتراكية المشيدة، والمؤدية

بالتالي إلى زيادة وزن التقطب الأحادي؛ عبر إمبراطورية الفوضى، في ظل الهيمنة الأمريكية. تتزامن حملة العولمة الكبرى الثالثة مع هذه المرحلة. كما تقف الجماهير الفقيرة حجر عثرة على درب زيادة الطلب المتعاظمة كالسيل الجارف مع الثورة العلمية والتكنولوجية. من غير الممكن أن تبلغ العولمة مآربها، دون حلها لهذا التناقض. ويُرى في البنية الثابتة الراهنة للدولة القومية عائقاً أساسياً. من هنا، يزداد احتمال إعادة بناء هذه البنى وتخطيها، بموجب سيادة الفردانية والتحول الليبرالي، والدمقرطة.

بالمقدور رؤية هذا التطور ذي الجوانب الإيجابية والسلبية معاً بالنسبة للحشود الشعبية، بأنه مؤثر موضوعي في التسريع من اليقظة والفاعلية والحركية الديمقراطية. بالتالي، تؤدي القوة المهيمنة للنظام القائم من جهة، واليقظة والحركية المتزايدة للشعوب في الأسفل من الجهة الثانية؛ إلى شل تأثير استمرارية الوضع الراهن تصاعدياً. هكذا تزداد عزلة هذا الوضع القائم الساعي لتحويل العقم إلى طراز حياة راسخ، ولتمويه وجهه بالمكياج لدى ملاقاته المشقات، ولإطالة عمره بالممارسات الاستفزازية بين الفينة والفينة. يسعى النظام القائم المزداد تهيجاً وغضباً وفظاظة، إلى التملص وهدر الوقت، لعجزه عن كسب دعم الأنظمة المعتمدة على أمريكا وروسيا، مثلما كان في الماضي.

هذا ومن غير الممكن حصوله على النتائج المرتجاة باستخدام الديماغوجيات اليمينية واليسارية المزيفة القديمة. ومن المحال الحظي بالدعم من أجل ضبط المجتمع والدولة والتحكم بهما عن طريق الفاشية أو التوتاليتارية. فازدياد انهيار الدولة القومية القائمة المفتقرة لمؤازرة الشعوب مع مرور الأيام، والتحام شريحتها العليا بالبنية المهيمنة العليا، وازدياد بحوثات الحشود الشعبية الغفيرة في الأسفل عن النظام الديمقراطي؛ كل ذلك سيشل من فاعلية هذا الخيار الإرغامي، ليتركه مهمَّشاً تماماً. قد يكون بمقدور هذه المرحلة الحالية المتكاثفة طرداً في الشرق الأوسط، أن تُخرج المشاكل المتفاقمة باستمرار من كونها عائقاً وحجر عثرة، وإنْ لم تؤدِّ إلى حلها بشكل تام.

تتخبط كل الدول العربية، وعلى رأسها مصر بشكل خاص، وباكستان وتركيا وإيران، بين كل من الوضع الراهن والتغيير. لذا، فهي عاجزة عن حسم قراراتها بشأن المرحلة المقبلة. لكن الاحتمال الأكبر الوارد هو ولوجها في مرحلة التغير في ظل التأثير المتكاثف لمشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي تفرضه أمريكا من الأعلى من جهة؛ ولمشروع المجتمع الديمقراطي والتحرري الجنسوي والأيكولوجي، الذي تفرضه الشعوب من الأسفل من الجهة الثانية.

الخيار الثاني هو خيار النظام المختلط الديمقراطي المحدود، والذي يغلب عليه الجانب العملي. حيث مر الزمن على عهد تأسيس النظام الذي بنته الإمبريالية ماضياً بإرادتها الأحادية. من العسير أن تستطيع أمريكا، القوة المهيمنة الجديدة، تأسيس نظام مشابه بإرادتها الأحادية. ومقابل ذلك، باتت الجماعات القومية المختلفة، التي أسست أنظمة الدولة القومية في الماضي القريب، مفتقرة إلى مهاراتها في حل المشاكل، لتتحول بذلك إلى مصدر للمشاكل في الداخل والخارج على حد سواء. أما المواقف المستقلة كلياً، والتي برزت في فترة معينة من مرحلة التوازنات بين الأنظمة، فتزداد مشقاتها تصاعدياً.

يُبرِز العصرُ التبعيةَ المتبادلة إلى الأمام. كما تُسَرِّع حملة العولمة الكبرى الثالثة من وتيرة هذه المرحلة. ويتخلى زمن العلاقات الدولية (العلاقات بين الدول) عن مكانه لزمن العلاقات بين الشركات، بحيث تتحول الدولة القومية إلى دولة شركاتية. كما يترك رأس المال الوطني مكانه لرأس المال بين الشركات. من جانب آخر، تبدي الثقافات المحلية حيوية عظمى، بحيث تصبح المحلية قيمة بحد ذاتها. أصبح بالإمكان تعريف هذه المرحلة بالعصر الذي تبرز فيه العولمة والمحلية في الصدارة في ظل هذه المؤثرات.

أما النظام السياسي المتزامن مع هذه الظاهرة، فمن المحال أن يكون على شاكلة الفاشية أو الديمقراطيات البورجوازية القومية الماضية، ولا بشكل توتاليتاريات التحرر الوطني والاشتراكية المشيدة للقوميات المتخلفة. بل يمكن أن يصبح ديمقراطيات مختلطة مرتكزة إلى عيش كلا النظامين معاً. أما الأسلوب الأكثر شيوعاً، فهو التحالفات الديمقراطية للمجموعات الاجتماعية ذات المكيال القومي والمحلي. في حين أن زمن إدارات الدولة والإدارات الداخلية لليمين واليسار ذي الحزب الواحد القديم، يتخلى عن مكانه للإدارات المتعددة الأحزاب، وذات التأثير الديمقراطي. هكذا يغدو بمستطاع كل مجموعة قابلة لتمثيل ذاتها، بأن تكون على تماسٍ قريب مع النظام العالمي، ليزداد التآلف معه، وليتم امتصاص زيادة العرض الموجودة.

يزداد احتمال سيادة هذه المرحلة المعاشة في عموم العالم، داخل بلدان الشرق الأوسط أيضاً. فضرورة اجتياز البنى القائمة الأقدم، تجعل من هذا الخيار أمراً راهناً. من هذه الحاجة المهمة تنبع أهمية مشروع الشرق الأوسط الكبير لأمريكا. أما بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط، فغياب الوعي والتنظيم اللذين يخولانها لتطوير ديمقراطياتها الذاتية بمفردها، وكون إراداتها ممزقة أشد تمزيق، وتَيَقُّظُها وحركيتها الحديثة العهد؛ كل ذلك يُصَعِّب من احتمال تكوينها لخيار ديمقراطي بإرادة أحادية، ويتركه مجرد يوتوبيا معلقة حتى إشعار آخر. رغم ذلك، فهذا ما يفرض عليها تطوير ديمقراطياتها الداخلية بكل عناية ودقة وكفاءة، عبر عقد الوفاق المبدئي؛ كوظيفة لا غنى عنها، ولا يمكن إمهالها أكثر. تُزيد الخاصيات الحرة والخلاقة لمساحة الفوضى البينية، من أهمية عصر الانتقال، وتفسح المجال أمام الشعوب لتحتل الصدارة في الديمقراطيات المختلطة.

خيارنا الثالث هو اليوتوبيا المعنية بالمستقبل. وهو بناء المجتمع الديمقراطي والتحرري الجنسوي والأيكولوجي للشعوب، بحيث لا يهدف إلى الدولة، ويولي الأولوية للأخلاق. إن غلبة الجانب الطوباوي (اليوتوبياوي) عليه، لا تعني أنه لن يُعاش إطلاقاً في حاضرنا. بل، وعلى النقيض من ذلك، فهذه المهمة راهنة ومرحلية في كل زمان ومكان، لتسيير هذه القضية النبيلة بخطى متواضعة وسديدة. قد تُعاش بكثافة منخفضة أو عليا في بعض الأزمان والأماكن. إنَّ تَعَلُّم الشعوب ومختلف المجموعات الحرة كيفية عيشها بتطويرها ديمقراطياتها الداخلية، وبتحقيقها حريتها الجنسوية الاجتماعية، وبتلبيتها احتياجات المجتمع الأيكولوجي؛ سيقربنا أكثر فأكثر، ومع مرور كل يوم، من هذا المجتمع وديمقراطيته. أما الجماعات الشعبية العاجزة عن إدارة ذاتها دون الاعتماد على الدولة، فمن المحال أن تحقق الحرية والمساواة التي ترمي إليها. إن الديمقراطية والاشتراكية

المنتَظَرتَين من الدولة، هما في الحقيقة إنكار للديمقراطية والاشتراكية. حيث أسفر هذا الأسلوب المجرَّب مئات المرات في التاريخ، عن تعزز القوى التسلطية والاستغلالية في كل مرة. أما في الديمقراطيات غير الهادفة إلى الدولة، فالجماعات الشعبية مضطرة لتأمين دفاعها الذاتي بذاتها. على الميليشيات الدفاعية الشعبية أن تعرف كيف تصون كل القيم الواجب صونها، وعلى رأسها ديمقراطية الشعب، في كل مكان يستدعي وجودها (في القرية، المدينة، الجبل، البادية والضواحي)؛ وذلك تجاه النهّابين والسلاّبين والمختلسين والطغاة المستبدين.

وفي المجال الاقتصادي، بالمقدور تطوير اقتصاد لا يعتمد على التبضّع، يلائم سلامة الشعب، ولا يضر بالبيئة. وذلك عن طريق المشاعات والتعاونيات ومختلف مجموعات الأنشطة الأخرى. لا يمكن للبطالة، التي تُعَد خاصية بنيوية في النظم الاستعمارية، أن تشكل معضلة في مجتمع الشعب الديمقراطي والأيكولوجي. يمر السبيل الأصح للعبور إلى الاشتراكية المفعمة بالمساواة، من هذا المجتمع، الذي تلعب فيه الأخلاق دوراً أساسياً عوضاً عن القانون، ويتميز برفعة الشغف بالحياة عبر التدريب والتعبئة الخلاقة، ولا يعترف في داخله بالحرب، بل تسوده العلاقات الأخوية والودية والصداقات. إذا ما عملنا على تحقيق الالتحام بين المجتمع المشاعي والأنظمة الإثنية الأقرب إلى المساواة، والتي طالما شهدتها شعوب الشرق الأوسط دهراً طويلاً من التاريخ من جهة، وبين الإمكانيات العلمية والتكنولوجية الراهنة من جهة ثانية؛ فإن العيش في المجتمع الديمقراطي والتحرري الجنسوي والأيكولوجي الأكثر اتساعاً في آفاقه، سيجد معناه كقيمة مثلى ونبلى.

الفصل الثالث

هل سيصبح التراث الثقافي في الشرق الأوسط تركيباً للحضارة الجديدة.. ؟

إن التحدث عن الدور التاريخي للشرق الأوسط كأرضية لظروف جغرافية خلقت الحضارة في المرحلة المقبلة لن يكون واقعياً. بل على العكس فمن المتوقع أن تصل إلى وضع غير ملائم بسبب زيادة التصحر وارتفاع الحرارة وشحة المياه، وقد لعبت ثروة النفط دوراً سلبياً في الآونة الأخيرة بسبب الحروب والانقسامات التي نجمت عنها، هذه الثروة التي لا تمتلك أية قيمة سوى إشباع الرغبات الاستهلاكية لحفنة من الأغنياء البعيدين عن الخلاقية والإبداع، ناهيك عن

أن نفاذ عروق النفط في وقت لاحق أمر لا مفر منه.أما الأنهار التي خلقت الحضارة كالفرات ودجلة والنيل، فإنها على الأغلب ستؤدي إلى اضطرابات، ويمكن أن تتطور الزراعة المستندة إلى الري على أساس التقنية الجديدة. و لكن لا يمكن للموارد الطبيعية المشابهة أن تلعب دور العنصر الأساسي من أجل المهمة التاريخية للمنطقة. من هذا المنطلق فان أغلب مناطق العالم محظوظة أكثر من الشرق الأوسط. وباختصار فإن تركيبة المرحلة التاريخية المقبلة للإنسانية، لن تحمل فيها الظروف الجغرافية تأثيرات مصيرية. فالحضارة الرأسمالية الأوروبية هي الحضارة الأخيرة التي لعبت فيها الجغرافيا دوراً مصيرياً. لقد تحولت عوامل التحديد إلى عوامل أخرى بعد هذه المرحلة.

كما لا يمكن للتقنية العلمية أن تحدد تركيب الحضارة الأساسي لوحدها، فإن قوة الوصول الى التقنية والعلم قد تخطت أن تكون امتيازاً . ولن تشكل سوى الأرضية المادية المؤهلة للولادات الجديدة، حيث انها في وضع يمكنها من لعب هذا الدور، وبإمكان كل مجتمع الوصول إليها ولا يمكن إبعاد منطقة أو مجتمع عنها؛ إذ ان تقنية الاتصال والمعلوماتية بحد ذاتها لا تسمح بذلك. وكل ما تستطيع عمله هو نقل الخلق والإبداع الجديد الى أبعاد العولمة بشكل سريع ومتوازن.

لقد تم شرح طابع الحضارة الديمقراطية ودورها الأساسي، حيث ستواصل هذه الحضارة انتشارها عرضاً وعمقاً في العالم في القرن الواحد والعشرين، ولا مفر من معايشة الإنسانية هذه الحضارة بشمولية، ويمكن أن يتوخى منها ان تظهر تقدماً من الأشكال الادارية والحياتية إلى أشكال أغنى واكثر نضجاً، لكنها لا تشكل تركيبة لوحدها، بل هي الشكل والإطار الذي يخلق التركيب، ولا شك أنه يوجد تكامل ديالكتيكي بين الشكل والجوهر، ورؤيتهما كأمر واحد يعني الجنوح إلى الميتافيزيقيا، لذلك يجب البحث عن تراكيب دائمة للإنسانية في ظواهر أخرى. لقد تم التأكيد على المرحلة التي نعيشها بأنها مرحلة البحث الشامل والجذري، فالحزم ومنذ الآن في النتيجة في هذه المرحلة لن يكون ابعد من موقف كهنوتي، وإن القيام بذلك يعني الوقوع في الدوغمائية واليوتوبيا التي لا أساس لها، لكن لا يمكن أن تبقى استقصاءاتنا بدون نتيجة، ولا مفر من مواصلة الديالكتيك لحكمه طالما تتواصل الحياة. إن الشيء المهم هو التوقع حول ماهية التراكمات التي سيستند عليها الميلاد الجديد.

لقد رأينا عند تقييمنا للمراكز الأكثر أهمية في العالم، أنها رسمت مسارها للقرن الواحد والعشرين على الأقل، حيث لا يمكن أن تبتعد عن ذلك إلا إذا تشكلت ظروف غير طبيعية، ومن المحتمل أن تعيش من خلال توسيع الأنظمة الديمقراطية وتعميقها في الاتجاه المنتظر والمتوقع وبانحرافات طفيفة.

يحتل الشرق الأوسط وضعاً مميزاً في ظل هذا العالم ووفق منظور العصر، وإذا كنا قد أكدنا أن ذلك لا يمكن أن يتحقق ارتباطاً بالجغرافيا. فإذاً ما هي العوامل الأساسية التي تحدد هذا التمييز..؟، من الصواب البحث عن الجواب في التراث الثقافي، حيث إن التأثير المحتمل للجغرافيا لن يكون ذو معنى، إلا إذا وجد انعكاسه في الثقافة، حينها تصبح أهمية ظروف المحيط الخارجي في الدرجة الثانية بعد تشكل الثقافة، ويدخل عاملها المصيري إلى الديناميكيات الجوهرية، وهناك إجماع على أن تاريخ الحضارة هو تاريخ التراكمات والتطورات الثقافية، فتعريف الثقافة وموقعها الخاص في التطور الحضاري ينطوي على أهمية، ويتم تسليط الضوء على مكانة الشرق الأوسط في تاريخ الحضارة يوماً بعد يوم من خلال الأبحاث التي تجري بهذا الصدد، حيث منح العصر النيوليثي دور الولادة لهذه الجغرافية لما يقارب العشرة آلاف سنة، والأمر الذي لا يقبل النقاش هو أن جميع الحضارات مدينة للعصر النيوليثي، وتستند الحضارتان السومرية والمصرية واللتان تعتبران أولى الحضارات على الاختراعات النيوليثية في المنطقة التي نسميها بالهلال الخصيب.

حاولنا إظهار كيفية تأثير ذلك إلى يومنا هذا من خلال تفاعل تسلسلي في كافة فصول تقييماتنا هذه، كما حاولنا أن نبين بأن منطقة الشرق الأوسط قد دخلت في أزمة عميقة بين القرنين العاشر والخامس عشر بعد الميلاد، واستمرت الأزمة وتعمقت منذ تلك المرحلة. إن الانحلال في الشرق الأوسط لن يشبه الانحلال في أية منطقة أخرى من العالم نظراً لخصوصية المنطقة، هذه المنطقة التي لعبت دوراً منجباً في تطور الإنسانية على مدى ما يقارب الـ 15 ألف سنة، فإنها ومع مرحلة التفسخ تستمد خصائصها المختلفة عن كافة بقاع العالم من هذه النوعية التاريخية الطويلة والمصيرية، بهذا المعنى فإن الشرق الأوسط يمثل شخصية متميزة، وإذا حاولنا تعريف ذلك بشمولية فأنها شخصية جعلت تطورها التاريخي ملكاً لكل البشرية، ولا يمكن قول نفس الشيء عن المناطق الأخرى في العالم.

فمثلاً إن الصين والهند وروسيا وأمريكا اللاتينية وحتى أوروبا وأتباعها، يمكن أن تبدّل أنظمة مختلفة لتحاول تطبيقها على هويتها كما يغير الشخص ملابسه، فذلك يعني أن الأنظمة الحضارية بالنسبة لهم كالملابس يجب تغييرها بين الحين والآخر، ولن يشكل تغييرها أية مشكلة عندما تصبح بالية أو يظهر ما هو أفضل منها، لأنها لم ترسخ تلك الأنظمة الحضارية في أعماقها. اما بالنسبة لشخصية الشرق الأوسط فالحضارة لا تشكل رداءاً وإنما بل هي الحياة ذاتها، وقد تلاحمت مع الحضارة التي عايشتها كتلاحم الظفر باللحم، وجسدتها حتى دخلت

ضمن جيناتها الوراثية، لذا لا يمكن أن ترمي ما عاشته جانباً مثل الألبسة، إذ لم تشهد أية منطقة من العالم الوضع المذكور ولم ترسخه في ذاتها كما رسخها الشرق الأوسط. لقد خلقت الثقافة والتاريخ والحضارة والحياة في الشرق الأوسط، مجتمعات وشخصيات مميزة لا تشبه أي مكان آخر، فخلقت ثقافتها الزراعية التي يبلغ عمرها آلاف السنين مورثاتها الاجتماعية الخاصة بها، وعاشت أشكال الفكر الميثولوجي والديني آلاف السنين في الذاكرة الاجتماعية، كما أصبحت الدوغمائية والقدرية جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ونام الفكر الأصيل الخلاّق فترة طويلة. وما وصل إليه اللاهوت هو فقط من أجل الإيمان دون شك كمحرمات مقدسة، ويعتبر الخروج عما تقوله الكتب المقدسة أكبر ذنب، حتى تحولت القصص التي كانت تروى كالأقاويل في عصر الميثولوجيات وأصبحت قواعد عقائدية صلبة؛ إلى دين وإله أسر تصورات الذين خلقوا الحضارة وأحلامهم وذكرياتهم.

لم يفهم البشر كيف وقعوا في أول أكبر حالة اغتراب في التاريخ، عندما أصبحوا أسرى لما خلقوه، حيث تكونت ثقافة وصلت إلى درجة جعلت من الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً، وتم جعل ذلك موضوعاً أساسياً للفكر والإيمان، وحتى أنهم جعلوا العبودية لهذا النظام وعبادته أفضل هوية للإنسان، واعتبروا الشك بالمعبودات أكبر أثم يمكن أن يقترف، من جهة أخرى تم ولأول مرة تحويل الميثولوجيات الشعبية والعقائد إلى صفة إلهية لصالح الحكام وذلك بالقوة النابعة عن تشكل الدولة، لتصبح سلاحاً في يد الحكام. في الواقع يكون مجتمع الشرق الأوسط بذلك قد ضحى بنفسه باسم الإنسانية جمعاء عندما جعل نفسه أسيراً، وبعد تحويل ما خلقه إلى أضداد في كلا الساحتين المادية والمعنوية، إذ خلقت هذه الحضارة التي نشأت على الاغتراب المذكور تأثيراً بالغاً في العصور الأولى والوسطى إلى درجة لا يمكن لأي منطقة من العالم أن تنجو منه، هذه هي الظاهرة التي نسميها بـ الشخصية التاريخية، ويمكن فهم ما جرى بشكل أفضل من عدة مقارنات، تتحقق شخصية وموت الأم عن طريق ما تلده. وتكبر الشجرة وتموت بعد أن ترمي بذورها في محيطها لتملأه بأشجار مماثلة، فالموت هو ضرورة للتكاثر. وإن شجرة ثقافة الشرق الأوسط ظاهرة من هذا النوع، إنها شجرة متجذرة؛ نشرت بذورها في أطراف العالم الأربعة، هذه الشجرة تشبه شجرة السنديان التي تريد أن تعيش بالتبرعم الزائد فوق جذورها كلما انقطع جذعها وأغصانها، حيث تعتبر من أولى أشجار الثقافة في الشرق الأوسط.

لقد فقدت ثقافة الشرق الأوسط أصالتها بعد دخولها في مرحلة الانهيار بين أعوام 1000 - 1500 م. والصواب أنها تشبه شجرة السنديان التي تم تدريجياً قص أغصانها وساقها حتى الجذور. وبمعنى آخر كأنها تحولت إلى مقبرة قديمة

للإنسانية التي خلقتها، مقبرة كبيرة تماماً مثل الأهرامات والزيكورات..! إن ما يحدث منذ ما يقارب الألف سنة لا يعني سوى صمت الأموات، فليس لهذه الثقافة القدرة على خطو خطوة خلاّقة بسبب الترهل الكبير الذي نجم من كثرة الولادة، وعصر الحكم العثماني هو عبارة عن حراسة المقبرة، وكان دوره الرئيسي هو تحقيق موت جديد بشكل دائم والعيش على صداقاتها، أما الدين والآذان والصلوات المليئة بالحزن، فليس لها أي هدف سوى انها رسائل النداء من أجل الموت، فاصبح التخويف بالموت والإعداد له برسائل الجنة والجحيم، الشكل الحضاري للعصر الأخير، وتم ترك العلم والتقنية منذ زمن بعيد، ويتكرر المجتمع والسياسة كالقوالب الجامدة منذ الأزل، وكان يعتبر مثال الثور الذي يدير دولاب الماء قدراً وتعجز العقول عن التفكير بأي شكل آخر من المسير، إن تربع هذا الكم من الدوغمائية وشبكة القدرية المترسخة على حضارة كبيرة ومبدعة سيؤدي الى الأزمة والانهيار. هذه اللوحة تعبر عن واقع تشرح قصة الشرق الأوسط، واحتراق كل قصة حب في الشرق الأوسط وتحولها إلى رماد له علاقة بهذا الواقع.

منذ خمسة عشرة ألف سنة تقوم بدور الأم وتخلق كل شيء للإنسانية، ومن ثم تقع في وضع عبد لا حول له ولا قوة..! وتكون الوطن الذي خلقت فيه أولى الإلهات، وتخلق كل ما يلزم الإنسانية ثم يتم رميك في زاوية كقطعة قماش مستعملة..! تخلق جميع الآلهة والعظماء، ثم تصبح عبداً لا حول ولا قوة لك تجاه هذه الآلهة..! وتخلق جميع المهن التي تشبع العالم، وتبقى جائعاً فيما بعد..! وتبني البيوت في كل مكان، وتبقى بدون مأوى فيما بعد..! تكون شمعة تنير درب الجميع، ولا تنجو من الظلمة فيما بعد..! تكون صوتاً من أجل كل الناس وتؤلف الشعر والموسيقى، ثم تصبح صم بكم..! تخلق العلم والتقنية والاحترام من أجل الجميع وتبقى جاهلاً فيما بعد..! تبنى القصور والخانات للجميع وتحتاج إلى شبر من الأرض فيما بعد..! فحضارة الشرق الأوسط هي اسم لهذا التناقض المأساوي والكبير، ويكمن سر احتراق الحب وتحويله إلى رماد في هذه التناقضات. تنمو على هذه القيم ومن ثم تتحول إلى قزم..! لا يمكن تطهير ذلك إلا بالاحتراق. تخلق لقاء الإله ـ الآلهة لأول مرة ومن ثم تصبح أحط رجل وامرأةً بموقع المتسولين، ولا يمكن أن يطهر ذلك إلا الاحتراق.

تبكي شعوب الشرق الأوسط كثيراً، بلا ريب لابد ان تبكي بعد فقدانها جميع القيم التي خلقتها. ففي الألفية الأخيرة بشكل خاص والشرق الأوسط يبكي على صمت الأموات، فإن الآذان والأغاني والآلات الموسيقية مفعمة بالحزن وتنادي بالموت، وكل ذلك ليس صدفة؛ لأنه يعبر عما جرى، ولو تم القيام بعكس

ذلك لكانت ستعتبر بدون معنى. وبات مفهوماً بشكل أفضل لماذا لم يؤثر ما جرى في العالم على هذه المنطقة، فالذين تكون أسسهم وقبورهم كبيرة وعميقة لهذه الدرجة، لا يمكنهم أن يفهموا الآخرين. هم دائماً سكارى بدون شراب أو كالموتى عند ولادتهم. ولا يمكن العفو عن هكذا ماض، وسبب ذلك واضح، إذ لا يمكن ترك هذه الحضارة على هذا الشكل في أي مكان. فالذين يتركونها يرتكبون خيانة كبيرة، ولا يمكن العفو عن الذين يرتكبون هذه الخيانة،ان خيانة الحضارة شيء كبير وهناك الكثير ممن خانوها. لذلك فإن حركات الانتقام كثيرة وكبيرة، لكن ماذا بوسعها ان تنقذ..؟ متَ وأَمت لن يؤدي ذلك سوى إلى توسيع المقابر؟! يتم سفك الدماء في الشرق الأوسط نتيجة الصراعات الدينية والأسرية و قضايا الشرف والممتلكات لأتفه الأسباب. فكل ذلك صحيح؛ بينما تكمن الخسارات والخيانات في أساس سفك الدماء، إذ إن الميراث الانتقامي ليس سهلاً، لأنه يمتد إلى ماض كهذا، يستمد منه أساسه. فكانت تسود الجرائم الناجمة عن العادات والتقاليد بكثرة. إن أساسها ايضاً هو التاريخ الملعون. لقد تم الاستيلاء على جميع قيم الحضارة وهتكت أعراضها كما هي في الكثير من الأمور، فهذه الحقيقة تجد تعبيرها في الفتاة والمرأة كرمز. أي إذا ما أصاب الرمز شيء ما حينها تعتبر القدسية الكبيرة قد تلطخت، وتكون عقوبتها قاسية جداً، ومن هذا التاريخ تستمد المأساة جذورها.

قبر داخل قبر، وعقدة فوق عقدة، هذا هو الشرق الأوسط، لا يتغير رغم تغير العالم، مجبر على ان يبقى كما هو. إنه شجرة سنديان يتضخم جذعها بشكل دائم، حتى وإن قلمت أغصانها يبقى جذعها ولا ينقطع الأمل من اخضرارها مجدداً. الشرق الأوسط هو ديار الأمل، حيث لم يبقَ في حوزته سواه. ففي الوقت الذي يكون التراث ساحقاً وعديم الرحمة يغدو الأمل كشجرة سنديان تنتظر التبرعم والاخضرار، وهكذا ظلت الحياة أملاً كبيراً، فعدم انسلاخه عن التراث نابع من قوته، لكن عدم تحديد نفسه يزيد من تفسخه. ففي الوقت الذي تحدد جميع مناطق العالم مسار تطورها فإن محافظة الشرق الأوسط على خصائصه وأصالته يعود إلى التأثير العميق لماضيه الحضاري، وهذا الوضع ناتج عن عدم التجسيد الناجح للتطورات المعاصرة، حيث تدخل آثار الحضارة القديمة التي لا تزال موجودة في صراع مع الحضارة الحديثة أو بمعنى آخر تظهر ضرورة التركيبة الجديدة. أما بالنسبة للهند وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ناهيك عن تكوينها لتركيبة جديدة فإنها تتطور على أساس البنية الرأسمالية. إن مرحلة التجسيد سارية المفعول أكثر من المقاومة، كما إن الوضع في المناطق الأخرى من العالم أيضاً مشابه لهذا الوضع، ولا توجد أرضية ثقافية قوية تقتضي صراعاً أو تركيباً جديداً، وحتى لو كانت موجودة فانه يتم تذويبها أو تحويلها من قبل الثقافة المهيمنة الجديدة بسهولة، اما

في الشرق الأوسط فلا يتم التحول أو الانصهار بسهولة، حيث تتخلى الطاقة الكامنة للإبداع بأهمية اكبر عوضاً عن قوة التراث الثقافي والتحول والانصهار السهل. ورغم بلوغ المشاكل الأثنية والدينية والقومية المتشابهة الى حل في كافة بقاع العالم بأي بوسائل مختلفة، الا ان الشرق الأوسط يظهر تمايزه في هذا الأمر أيضاً،فالمقاومة العنيدة للتمييز الثقافي العميق هي الحقيقة التي تكمن وراء عدم حل المشاكل بسبلٍ حضارية حديثة.

يجب ألا نقيم هذا الواقع بشكل سلبي، بل من الأصح أن نقيمه كإمكانية من أجل الخروج من الأزمة الرأسمالية التي أصبحت شاملة ودائمة، التناقض هنا يكمن في عدم تحديث التراث الثقافي في الشرق الأوسط عبر تحليل نفسه؛ إذ تحول بعض العوامل الداخلية والخارجية دون تفعيل القوة الكامنة، لكن الجذور القوية تمنع الاحتواء الخارجي، وتكون النتيجة تعمق المشكلة وتشابكها ودخولها في مأزق.

لقد تعمقت واستمرت هذه المرحلة بين عامي 1500 - 2000 م. وكان التوازن والتفوق حتى عام 1500 لصالح ثقافة الشرق الأوسط التي كان عمرها خمسة عشر ألف سنة، وأدى التفوق المادي والمعنوي في كافة مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع إلى الثقة الزائدة بنفسها، حتى أعتقد أنه مركز العالم، ولم يكن يعتقد بإمكانية تطور عالم حضاري يتفوق عليه، إذ يعتبر نفسه العالم كله والآخرين غرباء وكفار. ولم تكف الخمسمائة سنة الماضية لتحطيم هذه الدوغمائية، إنه يرى تفوق الحضارة الغربية ويشعر بقوتها المادية والمعنوية لكنه لا يعترف بذلك بصدق ولا يحاول تجسيدها، وأصبح الفرز الطبقي الجديد الذي تشكل حول رأس المال مؤثراً هنا؛ حيث تم إدراك هذه التكوينات على أنها مصطنعة، فلا هو قادر على التعمق ومحاسبة أسسه التاريخية أو حتى رفضها، ولا على تحليلها ليجعل منها خامات لتركيب جديد لأنه يشكل امتداداً بسيطاً للخارج، بل حتى يمنع مثل هذه التكوينات من التحول إلى قوة محلية.

مازالت الحداثة الرأسمالية في الشرق الأوسط بعيدة عن أجراء حوار مع الثقافة المحلية، حيث تبقى كوكالة أجنبية. فالمجتمع يعيش قوالب العصر النيوليثي التي مضت عليها عشرة آلاف عام من ناحية، وليس بعيداً عن قوالب العبودية والإقطاعية بأوجه كثيرة. وعندما جاءت الرأسمالية والاشتراكية المشيدة وتراكمت فوق ذلك، تكونت مراحل أصبح من الصعب الخروج منها. وظهر وضع مضطرب ومتداخل، فلم تعد تيارات أو مؤسسات مؤثرة، وبات كل شيء على وشك السقوط, وهذه المرحلة هي من اكثر المراحل التي يتم الهرب منها، وبات من غير الممكن التمييز بين المواقف المترددة والخيانية وبين المواقف الأصيلة.

يجب إعطاء أهمية لأزمة وانهيار الشرق الأوسط، وأكبر خطأ اقترفته الحضارة الغربية هو عدم تقييمها لقوة هذه المنطقة والتي كانت أساساً لها بطريقة صحيحة وواقعية، فهي غالبا تمد بجذورها إلى الحضارة الإغريقية الرومانية فقط، إلا أن الحضارة الإغريقية الرومانية تشكل مرحلة من مراحل الشرق الأوسط، إنها لا تعط العصر النيوليثي الذي غذاها حقه و تتصرف بأنانية. هذا الخطأ يضع حاجزاً أمام قيام روابط ديالكتيكية ذات معنى مع الواقع الراهن، لأنه لم تمنح إمكانية القيام بحوار صحيح مع الماضي. ويبدو قيام رابط ديالكتيكي من أجل تحديد تركيب المستقبل ضرورياً بمقدار معرفة الماضي بشكل صحيح، فعندما نقبل أوروبا كأطروحة لا يمكن أن تكون ثقافة أمريكا أو روسيا أو الصين أو منطقة أخرى الأطروحة المضادة، فالأطروحة المضادة تنبع من نفس ساحة الأطروحة كما هو الأمر في الطبيعة، ويمكن أن تكون جميع مناطق العالم عدا الشرق الأوسط امتداداً لأطروحة أوروبا، ولكن لا يمكنها أن تكون أطروحتها المضادة؛ فإما أنها لا تمتلك الفروقات والتشابه في القوة الكامنة الضرورية من أجل ذلك، أو أنها بعيدة عن أن تكون أطروحة مضادة، وبالنتيجة تكون امتداداً أو إضافة. فمن أجل ان تكون أطروحة وأطروحة مضادة لبعضها البعض، يتطلب الأمر وحدة المصدر البدائي وهذا يتوفر في الشرق الأوسط.

التقييم المختصر الذي أجريناه يطرح هذا السؤال المؤلم: كيف يمكن أن نوصل الشرق الأوسط إلى حالة أطروحة مضادة..؟ لم تعط محاولات التقليد التي جربت عبر القرن العشرين بكامله نتائج ناجحة. ولم يتخلص المفهوم القومي والاشتراكية المشيدة كأطروحة للحضارة الغربية من موقعها في المنطقة كظواهر مصطنعة، حتى الإسلام الذي انهار منذ أمد وفقد شروحاته يشُبه هذه الأطروحة بتحميل الحمار كتباً وتجوله في سيارة، فهو يفتقر الى القوة التي تخلق الأطروحة المضادة، كذلك فمؤسسات الحضارة الديمقراطية بعيدة عن امتلاك الشروط التي يمكن تكيفها بسهولة بسبب وجود تقاليد المجتمع والدولة،حيث تتطلب مؤسسات الحضارة الديمقراطية حركة نهضة وثورة تنويرية وإصلاحات دينية على الأقل. هذه المراحل التاريخية الرئيسية الثلاث لم تظهر في ثقافة الشرق الأوسط، لذلك فإن القول بأن المؤسسات الديمقراطية ستتطور بسهولة سيقودنا إلى الخطأ. إذ لا تستطيع هذه المؤسسات أن تلعب أي دور يختلف عن المؤسسات التي تم تركيبها من الخارج. كما إن واقع إسرائيل هو إضافي لم يتم احتوائه بعد، كذلك الأحزاب الليبرالية والشيوعية القائمة ما هي إلا عبارة عن أجزاء مضافة، تعيش الاغتراب في العمق مع الكيان التاريخي والثقافي. أما إحياء الإسلام من جديد فلا يؤدي إلى أي سبيل خلاّق سوى التذكير بالتاريخ، ويعتبر ذلك أفضل من النسيان.

يمكن تشبيه التدخلات المتعددة في الشرق الأوسط بمعالجة مريض في الغيبوبة بالأسبرين. ابتداءاً من التيارات الإسلامية إلى الأحزاب الشيوعية، ومن القومية إلى الليبرالية ومن الاتجاهات المقاومة المختلفة وحتى جميع أشكال الضغط على طراز إسرائيل، تم الإثبات بشكل واف أن كل هذه التيارات لم تستطع لعب دور أكثر من تأجيج ابسط المشاكل، وتبين هذه الحقيقة أن التشخيص والمعالجة بعيدة عن واقع البنية. فقد تم تكوين كيان مصطنع بمصطلحات مصطنعة، ومن ثم يعتقد أنه سيتم القيام بالعمل من خلال التشخيص والمعالجة. إن كل ما يوجد في الشرق الأوسط باسم الحداثة لا يتعدى كونه نموذجاً استعراضياً، فحتى المنطقة لا تعرف نفسها وتعيش جهالة سوداء وتغرباً عميقاً عن مسائل التاريخ، وغدا المجتمع كالخرسانة، وأصبحت مؤسسات السياسة والدولة تشكل ورماً سرطانياً، وكأن الروح المظلمة لكبريات المراحل تتجول، إذ يتم معايشة وضع تخريبي أكثر عمقاً وتفسخاً مما أحدثه المغول والآشوريون بأضعاف مضاعفة؛ وهكذا فالشرق الأوسط يشبه لغزاً غامضاً ومعادلة تضم مجاهيل كثيرة لم يتم حلها حتى الآن.

إن إمكانية تحليل الشرق الأوسط مرتبطة بإمكانية إقامة روابطه الصحيحة مع الحضارة الأوروبية، وتعطي هذه المسألة معناها الصحيح عند تناولها بتكامل ديالكتيكي، كما نرى من الضروري لأوروبا أن تبحث عن أسسها الحضارية في حضارة الشرق الأوسط وتحديدها بشكل صحيح، كذلك يجب على الشرق الأوسط الذي أصبحت قيمه الحضارية عبارة عن حطام ثقافي، ان يقوم بتعريف الحضارة الأوروبية بشكل صحيح لأجل تكوين أطروحته المضادة حسب هذه المرحلة. كما يجب التأكيد على أن التعريف لا يكفي أن يكون على شكل تجسيد أو تقليد، فما تم القيام به في القرنيين الماضيين لم يكن سوى تقليداً بسيطاً، ومع أنه لا مفر من مرحلة التقليد إلا أنها تشكل منهجاً تعليمياً مختلفاً وبدائياً على طراز القردة، ولا يوجد أي معنى لتكرار هذه المرحلة في يومنا هذا، وهكذا فإن تجاوز مرحلة التقليد بسرعة هو الشرط الأساسي لاحترام الذات وإعادة الاعتبار.

لازالت مرحلة تجسيد أوروبا مستمرة، إذ لا يمكن القول بان هناك مرحلة تجسيد سليمة، ويبدو أنها بتلك القدرة التي تمكنها من نجاحها وسيتجه الى التحول إلى أطروحة مضادة وتجسيدها بشكل متواز. فالنظر إلى التجسيد كمرحلة يمكن أن تعاش حتى النهاية، يعني عدم الاعتراف بالميراث والقوة الكبيرة لحضارة الشرق الأوسط. ولم تنجُ أية قوة إيديولوجية وسياسية وأخلاقية وفنية قامت بتجربة ذلك من الفشل، ولا يعود سببه إلى عدم القدرة أو قلة الجهود، بل إنه نابع من عدم معرفة الميراث الحضاري الموجود في أساسه والقوة التي شكلته، وعدم تقييم هذه القوة على أنها تتحلى بسمة قبول التقليد والتجسيد حتى النهاية.

هناك مسألة يجب ألا ننساها وهي أنه لا يمكن لعب دور يليق بالتاريخ دون اخذ التحول الشامل أساساً في الأعمال الاستراتيجية بعين الاعتبار، كما يجب على الحركات التاريخية التي تتطلع إلى لعب دور في الشرق الأوسط ، أن تعمل على تكوين أطروحتها المضادة مجتازة بذلك التقليد والتمثيل. ولن تنجو أية حركة من تخطيها ما لم تنجح في هذا الأمر، وبالإمكان تخطي ذلك من خلال القضاء على قوة المقاومة المتخلفة مع مرور الزمن، أو برفض التقليد من قبل التراث الثقافي، حيث أثبتت العلاقات مع أوروبا ولا سيما في القرنيين الماضيين صحة ذلك. فان مساعي التحديث السطحي خلال القرنين الماضيين تتعرض الى هزيمة تامة في يومنا الراهن، وفي النتيجة كان يجب استخلاص الدروس من ذلك، لكن من المعروف أنه لا يوجد لدى السفلة وقليلي الشرف قضية استنباط الدروس، أما الباقون فيعتبرون التمسك بالعشائرية التي كانت شكلاً من أشكال المقاومة قبل ألف عام وعياً وشرفاً، ولندع مسألة انهم لا يخجلون جانباً فهم يشعرون بالفخر بوضع أنفسهم في موقع الأبطال من خلال الدولة القومية التي تعتبر الشكل الحديث للعشائرية بدون خجل.

إلا أن العشائرية، والقومية كشكل حديث لها، تبقى بسيطة أمام قوة وتراث حضارة الشرق الأوسط الكبيرة وهي مرغمة على ذلك ولربما يوجد معنى تاريخي لمقاومة القبائل الصحراوية العمورية والهورية الجبلية ضد الحضارة السومرية، حيث أدت الى ظهور الملاحم العشائرية. وكذلك هنالك معنى أيضاً لمقاومة القبائل العبرية باسم الدين التوحيدي الجديد ضد نمرود وفرعون، حيث استطاعوا وضع الكتب المقدسة، وأظهروا القدرة على مساهمتهم في تكوين الأطروحة المضادة والتركيبة في التاريخ. لكن لا يوجد لمقاومة الحضارة الأوروبية استناداً على العشائرية والدينية والقومية أية خاصية لتكون أطروحة مضادة و تركيبة. وما يهدفون إليه هو التقليد الناجح كنمط متطور للتقليد والتحول إلى المحلية. ويمكن أن يجعلوا الآخرين يشعرون بها كأطروحة مضادة من خلال اطلاق اللحية ووضع الكوفية كالتزام بذكريات الماضي، لكن ذلك لا يعبر سوى عن تحويل التقليد إلى تهريج. إن التجسيد الذي يكون ناجحاً في تحوله إلى محلية، لا يملك خاصية تخلق قوة جوهرية وأطروحة مضادة، لكن يمكن أن يدعي بأنه قد تعمق بالاقتباس والقيام بحقن القيم المحلية.

مازالت الملكية المطلقة والأنظمة الجمهورية بعيدة عن هذا النوع من التجسيد في هذا الجانب، ولا يمكن القول أنها أصبحت ملكية مطلقة أو أنظمة جمهورية بالمعنى الأوروبي، حيث لم تتخط الجمهورية الديمقراطية والعلمانية مستوى الكلام والديماغوجية. أما الحضارة الديمقراطية فمازالت بعيدة عن بلوغ

معناها الاصطلاحي؛ فبتعميقهم للظواهر العشائرية والعائلية والقومية البدائية والشوفينية أخفوا مصالحهم الشخصية وجعلوا الشعب يتقبل ذلك عن طريق مناهج لا أخلاقية ولا يمكننا القول أن البنية الفوقية الحاكمة للمجتمع تقوم بمحاولات أو أعمال أصيلة فيما عدا ذلك، ويجب علينا التأكيد بأنهم مازالوا متخلفين ومتأخرين عن الأصالة العشائرية التي كانت سارية قبل أربعة آلاف سنة. أما السياسة الرسمية في الشرق الأوسط وبمؤسساتها الفوقية والتحتية فهي تمارس أشد أشكال القمع الرهيب لفرض التقليد والانحلال على الجماهير باسم الحداثة والتقدمية، بينما تجمع المزيد من الثروات بوسائل النهب الأكثر بدائية. ولا يمكننا القول أن الحكام لم يتلقوا الدروس من ماضيهم الحضاري، فعند الضرورة يرسلون بلحاهم ويرتدون أزياء تذكر بالماضي، ولإضفاء صبغة التحديث على الأنظمة المستبدة المتبقية من العصور العبودية والأنظمة الملكية من مفهوم السلطنات، لجؤوا الى صبغها بألوان أوربية. هناك من يسمي ذلك بإصلاحات وهناك من يسميه بالثورة. وفي الحقيقة ليس هناك ثورة أو اصلاح، بل هو ترسيخ للوضع المعاش. إن القيام باستيراد القطع والمسامير من أوروبا لا يمكن أن نسميه بثورة ثقافية، لنترك الثورة الثقافية جانباً، فإن الشرق الأوسط لم يتعرف حتى على الإصلاحات والإضافات التي تفرض من الخارج لا تسمى بالإصلاحات، بل يقال عنها احتلال وتحول إلى مستعمرات. ربما هناك تطور ما لكننا لا يمكن أن نسميه بثورة أو إصلاحات. ولم يتم تجاوز الاستعمار الجديد حتى في الدول التي عاشت تعمقاً كبيراً، لكن هناك اقتناع به كهدف.

ما يمكن قوله عن قيم حضارة الشرق الأوسط، مستخلص من أعمال التنقيب والبحث عن الآثار، ويمكن اعتبار ذلك نجاحاً للمستشرقين المعتمدين على الحضارة الأوروبية، ولكنهم كانوا ينفذون ويفسرون بشكل خاطئ ومحدود. ومازال العلم والتقنية بعيدين عن تجاوز مثال الكتب المحمولة على ظهر حمار. لقد بات جلياً انه بتقديم الموارد المادية و هدرها لا يمكن وضع بنيان اقتصادي بالمعنى الرأسمالي، لكن كما أكدنا سابقاً أن مواصلة استبدادية المؤسسات السياسية والسلطنة عبر الألاعيب وبأساليب حديثة هو الأساس، إذ تم جعل التأثير الخرساني لواقع المثيولوجيا القديمة والدين مسيطراً على العقول إيديولوجياً، ومثلما لم يتعرض هذا التأثير للتحطيم، فإنه أخذ شكلاً أكثر خطورة بمزجه مع الفلسفة والعلم المعاصر. باختصار، فالتأثر من الحضارة الأوربية الذي ساد منذ القرنين الماضيين لم ينج من ان يكون افشل مثال شهده العالم. ويدل ذلك على عمق الجهل والفساد رغم توفر المصادر المادية والحضارة الغنية. مرة أخرى تتأكد الرؤية التالية: طالما لم يتحقق نمط العلاقات المستندة إلى الأطروحة المضادة والتركيب

مع الحضارة الأوروبية. والذي يمكن أن يعطي طريقاً لحضارة الشرق الأوسط كضرورة ديالكتيكية للعصر، فإن الماضي العريق لن يتسامح مع الإقليمية والقومية الفاسدة.

يعتبر هذا الوضع أمراً متعلقاً بجوهر الحضارات، ويمكن للذين يستطيعون بناء روابط ديالكتيكية مستندة إلى تكوين الأطروحة المضادة والتركيبة في الشرق الأوسط عن طريق قيم الحضارة الأوروبية، أن يكتسبوا حق تشكيل قوة لحملة الانطلاقة التاريخية، ليس لأجل المنطقة فحسب، بل لأجل العالم برمته. هكذا كانت الأنطلاقات الكبيرة عبر التاريخ. إن كلكامش وسارغون وإبراهيم وموسى وزرادشت وسقراط وعيسى ومحمد وأنصار النهضة هم الأمثلة الأولى التي ترد إلى العقل. إذ تتضمن ثقافة الشرق الأوسط ثقافة عاشت هذا النوع من الأنطلاقات التاريخية والبدايات الحضارية أكثر من غيرها. فالتصاعد والتعاظم التاريخيان في هذه الثقافة حدثا على شكل حلقات متتالية، لكنها شهدت انقطاعا منذ أكثر من ألف سنة، وفاصل طويل كهذا أدى إلى حدوث التصدؤ والتفسخ.

السؤال الأساسي الذي يجب طرحه أيضاً هو: هل يمكن لكيان الشرق الأوسط التاريخي والثقافي المبني على الأنطلاقات الكبيرة أن ينتقل إلى المستقبل بإضافة حلقة حديثة وإحياء نفسه..؟ والأهم من ذلك هل يمكن أن يضيف حلقة جديدة للميراث المثيولوجي الذي أصبح الأمل المنقذ للإنسانية..؟ هل يستطيع أن يتوصل إلى قوة تمكنه من تكوين أطروحته المضادة وتركيبها دون الاكتفاء بتجسيد أوروبا..؟ فإما أن يقوم الشرق الأوسط بإضافة حلقة جديدة للانطلاقات التاريخية كي تشكل قوة لهذه المهمة، أو أنه لن يتخلص من اللعنة من الأعماق ولن يمنح التاريخ خياراً ثالثاً. فالتاريخ يقول " لن تكون كـ روسيا، الصين، الهند، وأمريكا الجديدة، باعتبارهم يشكلون محيط المركز، ينتظرون دائماً انطلاقة تاريخية جديدة، وهكذا رسم التاريخ قدرهم، أما قدرك فهو مسيرة حضارية كبيرة مبنية بانطلاقة قوية مثل تدفق النهرين العظيمين النيل والفرات، فيا أيها الولد اللعين والعديم الأصل، ان لم تصبح مثلهم لن اغفر لك". ويقول الشرق الأوسط الذي كان مرتعاً للآلهة:" يا أيها الزوج الخرف والعاجز، لن أكون معك سأحترق وأصبح رماداً لكنني لن أقاسمك خيانة الحياة " كموطن للآلهة يقول: "أيها الأقزام لن أقبلكم حتى عباداً لي، فأنتم ملعونون ولا تليقون إلا بالاحتراق في نار جهنم". ويقول الفنانون الكبار:" إننا لن نغني ولن نعزف الموسيقى ولن نكتب الملاحم والشعر لأنكم قضيتم على جمال الروح للأدب والفن وختنموه". ويقف جميع الفنانين الكبار أمام التاريخ ويقولون:" لن نغفر لكم".

تقول حضارة الشرق الأوسط ذلك بصمت وتقدم جواباً للضغوطات الخارجية بهزةٍ من كتفيها، تريد أن تشرح ذلك بعدم التحول واعتبار البقاء كالحجر شرفاً لها، وتنتقم بتعريض أولادها لجميع أنواع الهزائم وتركهم أمام مواقف سافلة لألف عام. هكذا يكون جوابها، قد توجد لها أجوبة أخرى مذهلة، فهي تخبئها للمستقبل، وتستعد لتقديم أجوبة لا تنتهي من جعبتها، وتقول:" يا أيها الجزء الملعون من التاريخ والحاضر المتقزم ماذا سيكون جوابك حيال هذه المواقف..؟ فان كنت شجاعاً و شريفا" فأنهض واستجب لها".

يمكن تطوير تقييمات شاملة حول مقاومة حضارة الشرق الأوسط ووقفتها الصامدة. باعتقادي سيكون ذلك كافياً من أجل لفت الانتباه. لنحاول الاقتراب إلى المسألة التي تحمل الأهمية، كيف ستدخل في علاقة الأطروحة المضادة والتركيب مع الحضارة الأوروبية..؟ لقد أجرينا تقييماً حول ولادة وتطور وانتشار الحضارة الأوروبية في العالم، وبخطوطها العريضة رأينا نتائج مواقفها الاستعمارية والصهر حيال الشرق الأوسط. إذا كانت الحياة في الشرق الأوسط ستستمر بمعنى وكبرياء في الجغرافيا التي خلقت الحضارة ورعتها، فإنها ستكتسب الصلاحية من خلال الإجابة على سؤال "كيف نعيش"، إذ لا يمكن تقديم إجابات صحيحة دون التعقل والتخلص من الأرواح المتصلبة التي أضحت عقدة مستعصية منذ مئات السنين.

علينا أن نوضح ما نقصده من قيام الشرق الأوسط بلعب دوره كطرف في الأطروحة المضادة والتركيب، فقد وصلت الحضارة الأوروبية مند زمن إلى وضع تشكل فيه أطروحة قوية على كافة المستويات في كل مكان من العالم، وتقف قوية واثقة من أسسها العلمية وأطروحتها التجريبية ابتداءاً من الاقتصاد إلى الإيديولوجيا ومن الفن إلى السياسة ومن التقنية إلى التاريخ، ومازال الانتشار الكوني والمتمركز بعمق في العالم يتم عن طريق الاستيعاب؛ اما بالنسبة للشرق الأوسط فلم يتم تحقيق انتشار مشابه لهذا بأي شكل كان. وهنا توجد مقاومة، ولا يريد التاريخ الذي خلق أوروبا أن يستسلم للتقليد والتجسيد من طرف واحد، ويريد الميراث التاريخي الكبير أن يجعل نفسه طرحاً مضاداً وتركيباً ليتحول إلى قوة لبداية جديدة تليق بتاريخه. إن التحول إلى أطروحة مضادة في مواجهة أطروحة أوروبا لا يعني الرفض الفظ، فمثلاً ليس للانطلاقة الإسلامية أية قيمة كأطروحة مضادة، وحتى لو كانت تطمح بذلك فإنها لا تمتلك القوة اللازمة، ناهيك عن ان تصبح المواقف من قبيل القومية أو الشيوعية القائمة أطروحة مضادة، فأنها لم تلعب دوراً أكثر من القيام بتقليد بسيط؛ إذ لم تبد مساهمة في خلق حركة تنويرية ولو بقدر المستشرقين. اما الذين يتعاون مع أوربا مباشرة، فلا يتعدون كونهم

موظفين بسطاء وعملاء لها، لذا فإن مهمة التحول إلى أطروحة مضادة تنتظر التبني.

ما يجب تعريفه بالأطروحة المضادة هو كيف يمكن أن نحول الوجود الحضاري للشرق الأوسط مع مكونات الحضارة الأوروبية إلى أطروحة مضادة، بحيث تؤدي إلى انطلاقة جديدة..؟ وما هي الظاهرة المضادة أو الميزة التي يمكن استخلاصها من إقامة علاقة بين الحضارتين....؟ بإمكاننا تكوين الأطروحة المضادة للأطروحة الديالكتيكية التي تفتش عنها الإنسانية، دون الانحلال فيها أو رفضها بطريقة فجة، بل بالمساهمة من جانبنا بمقدار ما هو مطلوب. إن الدور هو ليس تكوين التركيب، بل يتضمن معنى الوصول إلى قوة تستطيع إنقاذ العالم من التصحر العام والمحافظة على موقعه الذي يمكن العيش فيه. وهناك خطر من أن يؤدي الانتشار من طرف واحد، أي العولمة والكونية المستندة إلى الأطروحة المضادة حتى ولو كانت على شكل ديمقراطي، إلى فاشية من نوع "إما الأسود أو الأبيض". وتنهض جميع مناطق العالم عدا الشرق الأوسط متفقة بما يجب القيام به في عملية التجسيد من أجل الاستسلام لهذه الأطروحة. وستكون نتيجة ذلك فاشية على الطراز الديمقراطي، أو تطوراً مشابهاً لذلك، وهذا أخطر شيء بالنسبة للإنسانية، فإذا حدث ما يقال فإن ذلك سيكون "نهاية التاريخ"، وعدم حدوث ذلك مرتبط بالأطروحة المضادة. إذ أن عدم تحول الاشتراكية المشيدة التي تمت تجربتها بقيادة الروس إلى أطروحة مضادة، أدى إلى استسلامها بانهيار سيئ ألحق الضرر بالبشرية. وكان يجب ألا تنتهي كل هذه المقاومات الرائعة والمقدسة والدماء المراقة، والآلام والآمال إلى هذه النتيجة، ويعود سبب ذلك إلى التحدث عن اليوتوبيا الشيوعية زيفاً دون النجاح في التحول إلى أطروحة مضادة. وهكذا نجد بأن كل خطأ يؤدي إلى الخيانة والاستسلام.

أكدنا مراراً أن الواقع التاريخي للشرق الأوسط لا يسمح بعملية تجسيد عادية، لأنه لا يمكن حتى لقيم أطلال حضارة الشرق الأوسط أن تعي نفسها دون أطروحة مضادة، وبذلك فإنه يمكن وضمن ظروف جديدة أن تتحول الروح الإنسانية الموجودة في طابع هذه الحضارة إلى أمل مجدداً، وأن القبول بأقل من ذلك هو بمثابة إنكار للذات، حيث هناك الكثير ممن جرب ذلك، وبات واضحاً بماذا فاد وجودهم. فالشرق الأوسط لا يقبل أيضاً بهذه الكيانات المصطنعة والثانوية، إذ أن معدته الثقافية لا تكتفي ولو أكل كل العالم فهو لا يأكل لأنه يريد أن يصبح قيمة، وهذا ما يقتضيه جوهره وطابعه. إذاً كيف له أن يصبح أطروحة مضادة..؟ نقدم بعض أفكارنا بخطوطها العامة بعمق ودون تحريف وبشكل جوهري كمهمة تقع على عاتقنا.

يعد تجديد الهوية الإيديولوجية مهمة تاريخية أولى، إذ يجب توحيد حركة النهضة والإصلاح والتنوير التي لم تتحقق بعد في ثقافة الشرق الأوسط وتحقيقها كحركة واحدة. وستحدد التحولات التي ستجري في هذه المجالات الثلاثة الهوية الإيديولوجية الجديدة. وهذا يعني التحول الأساسي في المجال الذهني والروحي.

لم تستطع الحضارة الأوروبية التمأسس إلا بالثورات الذهنية التي استمرت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، وآخر مرحلة وصلت إليها هي الحضارة المستندة إلى المؤسسات الديمقراطية، بينما لم يجرؤ الشرق الأوسط بعد حتى للتعرف على تلك المصطلحات. لكننا يجب أن نتجاوز بعض الأخطاء في هذه المسألة، فاقتباس العلم والتقنية وإنشاء المصانع وامتلاك بعض المؤسسات الديمقراطية لا يعني تحقيق النهضة أو الإصلاحات أو التنوير، لأنها تطورات منفصلة لا تمس الجوهر، ولا تعبر عن شيء سوى الجسم الذي يحمل الذهنية المعروفة التي تكونت حول الاستعمار والصهر، ولا نرى أي تطور جوهري عدا ذاك المستوى الذي وصلت إليه مرحلة الاغتراب في القرنين الماضيين، ولا تمتلك التيارات الإسلامية التي تطورت كرد فعل أي معنى سوى القومية التي غيرت لونها.

يمكن تحقيق الأصالة من خلال تحقيق الثورة الذهنية الذاتية الثلاثية. وسيتم فهم عدم وجود أي حل سوى تحقيق هذه الثورة في واقع الشرق الأوسط حتى وان كان متأخراً. بعد التأكد من عدم وجود أي سبيل آخر، يجب أولاً توجيه ضربة إلى الميدان الديني لأجل القيام بثورة أخلاقية وذهنية في الشرق الأوسط، ونؤكد هنا بأنه لا علاقة لهذا الموقف بالعلمانية الرخيصة، فالمفهوم الذي يقتضي توجيه الضربة إليه هو العلمانية المزيفة، وهذا ليس مرتبطاً بالشرائح المتدينة فحسب، بل بتلك الكيانات القيمة التي لم تنصهر بعد في ثقافة الشرق الأوسط. ولا علاقة لذلك بإنكار الرب أو شتم الجوامع، بل تنص على أجراء تحليلات علمية كاملة للتكوينات التاريخية لتلك الهويات، وما يجب القيام به هو التحليل الصائب للكيانات الميثولوجية التي كانت تمثل هوية الكهنة السومريين؛ التفكير باللاهوت الذي اكتسب طابعاً مثيولوجياً أولاً ودينياً فيما بعد والذي كان نتاجاً لمرحلة الفرز الطبقي البدائي تحولت قدسيته إلى خامة للأدب التاريخي.

عمل السومريون على تغيير ميثولوجيتهم وأديانهم باستمرار، ولم يخشوا من تقليل عدد آلهتهم وتغيير نوعيتها وأسمائها؛ فتراث النبي إبراهيم الذي بدا وكأنه يتصارع مع آلهته توصل في النهاية إلى قرار هو " (إل) أي الله " (إسرائيل = المتصارع مع الله) ، وحوّل موسى ذلك إلى رب القوم. ورجع عيسى إلى مصطلح "الإله الثلاثي" من جديد، ووصل النبي محمد إلى مصطلح الله المدعم بـ99 صفة

سلطوية بسبب حاجته إلى سلطة موحدة. يظهر هذا التكرار القصير أن الدين والآلهة كانا في تغيير مستمر دوماً، فالظروف الملموسة للمرحلة التي خلقت الإسلام تعبر عن وحدة الفكر الديني الموجود، أما أشكال العبادة فهي لا تحمل سوى معنى تدعيم الشخصية الجديدة، وقد تعرضت إلى تغييرات كبيرة فيما بعد، وشهدت المسيحية واليهودية ذات الجذور الواحدة تغييرات بشكل مستمر، وينظر إليهما في يومنا كمصدر أدبي وكقيم أخلاقية على الأغلب. إن إصلاحاتهما في الدين مستمرة وتتطور بريادة العلم، حتى بات جلياً مدى المكاسب التي حققتها من ذلك.

مازال تغيير كلمة واحدة في الإسلام والإرث المشابه له يعتبر ذنباً كبيراً. ويعتبر هذه مؤامرة من أجل أسر البنية الذهنية بشكل رهيب، ولم يكن الدين أداة تردي إلى هذه الدرجة في التاريخ حتى في عصر الأنبياء. فقد تم وضع الدين بشكله هذا في موقع متخلف وملعون بالنسبة إلى التاريخ تحت اسم القداسة، فلا حق لأية سلطة سياسية أو معنوية الحط من مستوى الدين إلى هذه الدرجة، كما لا يمكن التفكير بممارسة أخطر من ذلك من أجل تسميم وشل ذاكرة مجتمعاتهم. لقد عاشت مجتمعات الشرق الأوسط تأثير استمرار زيادة هذا الخطر ولا سيما في الألفية الأخيرة، ويأتي هذا التشكل الإيديولوجي الخطر الذي يأسر الذهن ويجمد التطور الروحي في مقدمة مصادر التخلف التي لا نشعر بها، ولم يتم التأكيد على مدى وكيفية شلها للمجتمع لأنه لم تجرِ دراسات بهذا الصدد، ولأن جميع السلطات المركزية والمحلية بما فيها الأكثر علمانية تستخدم هذا الأمر كوسيلة سهلة للاستغلال.

تعرض الإسلام في مرحلة الظهور والانتشار إلى الإصلاحات الضرورية؛ فشيعة إيران وعلوية الكرد وبكداشية ومولوية الأتراك وعدة طرق ومذاهب دينية أخرى هي إصلاحات طرأت على الدين الإسلامي، فقد تم تجميد هذه المرحلة في أعوام 1100 م، ووصلت إلى يومنا هذا بشكل أكثر صلابة على أساس التماثل مع الوضع الراهن، فلا تنبع خطورتها من درجة صحتها أو خطأها، بل من إيقافها للتفكير الحر وإلغائها للفردية، إذ لا يمكن للإنسان الذي لا يتصور العيش الفردي ولا يفكر بشكل حر أن يخلق أي شيء، و هكذا تعتبر مصادر حياة المجتمعات المتشكلة من هذا الفرد ميتة. إن أكبر فاجعة بالنسبة لمجتمعات الشرق الأوسط هي وجود هذا الوضع واستمراره بشكل قوي جداً ويمكن أن يستفيد من هذا الوضع جميع الاستبداديين في الداخل والخارج، ولن يتخلص المجتمع والدولة من الفقر المستمر والقحط لأنه فقد قيمه الخلاّقة.

لذلك ومن أجل الوصول إلى نتيجة حول الإصلاحات الدينية التي تم تأخيرها ولفتح الطريق أمام الفرد الحر، يجب تحقيق الحملة التي تحل الدوغمائية الدينية، وذلك عبر تقييم جميع الكتب المقدسة كمصادر أدبية وعبر التحول إلى أخلاق حرة عن طريق تحليلات اجتماعية وأخلاقية. حيث يجب إخراجها من كونها عقيدة مفروضة على الفرد، كما يجب تطوير حلول عميقة على أساس علاقتها بالمسائل التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاستغلال والعلم والحرية والتقدم والرجعية والمادية الديالكتيكية والمثالية الميتافيزيقية والأخلاقية وما شابه ذلك، بحيث يتمكن الشعب من فهم الكتب المقدسة وملاحقها بدلاً من أشكال العبادة المتعلقة بها، ويجب تطوير تفاسير الآيات والسنة على هذا الأساس.

إننا لا نقصد بذلك الدور الذي تقوم به الأنظمة التي تروج الدعاية الجافة للنظام، بل إننا نقصد إصلاحات جذرية تستطيع الجوامع والمراكز المشابهة لها أن تلعب دور مراكز العلم والفن للمنطقة الموجودة فيها، ويمكن إجراء تمثيليات مسرحية أصيلة، كما يجب ألا يغيب عن بالنا أن الصلاة بحد ذاتها تعتبر من أولى التمثيليات الدرامية التي تكون فيما بعد، كما أنها بالمعنى العام تعتبر مسرحية. وعدم تحريف أقوالنا هذه بطريقة سفسطائية يتحلى بأهمية بالغة. أعيد وأكرر بأنه يجب البحث عن مصادر الصوم والصلاة والأعياد والأضاحي، وسنرى عند ذلك أن جذورها ترجع إلى العروض التي تقوم بها الشعوب في بعض الفصول الهامة؛ فالعبادات هي الشكل المتطور عن الأشكال البدائية للعروض والمسرحيات ((الدراما- الكوميديا- التراجيديا)) وذلك حسب الحاجة. ويجب تحويلها إلى أشكال تترك الذهن حراً وتجعل فهم التاريخ عميقاً وتوصلنا إلى تذوق الفن وتجعل الأخلاق المفيدة ممكنة، وذلك مع أخذ احتياجات عصرنا بعين الاعتبار. فيجب تحويل الصلاة والصوم والأضاحي ومراسيم الدعاء والتي تعتبر من تدابير التحول الاجتماعي ربما يلائم المرحلة، حينها تكون قد تحققت وبشكل أفضل المعاني الموجودة في مصادر الأديان منذ ولادتها، وأفضل طريقة لذلك هي جعل الأماكن المقدسة وفي مقدمتها الجوامع أكاديميات ومسارح للفنون يتعلم فيها الشعب. ويجب أن يعطي العلماء والفنانون والعرّافون دروساً في هذه المراكز كي لا يتركوا الشعب جاهلاً.

يجب اتخاذ إجراءات مشابهة من أجل أشكال العبادات الأخرى. فمن المفيد إنشاء صندوق لمساعدة الفقراء بدلاً من الأضاحي التي اتخذت شكلاً وحشياً، كما يجب ممارسة الصوم بشكل محدود من أجل تربية النفس، وبالنتيجة يجب تعديل جميع أشكال العبادات حسب متطلبات العصر. قد يتساءل البعض **"أين بقي الله؟"** أقول لهم منذ البداية: لقد تطور باستمرار مع التطور الاجتماعي كـ هويات فكرية

لتصورات الكهنة السومريين. إن "أل" إبراهيم هو قبيلته التي يجب أن تقوى، و"يهوا" موسى هو القوم اليهودي الإسرائيلي الذي يجب أن يتوحد. أما رب عيسى فهو تركيب الدين والوجدان البدائي للمضطهدين في ذلك العصر، ويعبر رب محمد "الله" عن الحاجة الى القوة من خلال توحيد القبائل الرئيسية، وهو تصور مشترك للقبائل البدوية وقوة القبائل العربية الموحدة. ولم تتردد أياً من المجتمعات عن تصور إلهها الجديد كلما قويت، هذا هو الواقع التاريخي والاجتماعي؛ أما إله يومنا هذا فهو جوهر العلم حيث غدا الله يمثل كل شيء فيوظف نفسه بنفسه على أساس الديالكتيك الكوني، يتعرض ويعرض للتغيير إلى ما لانهاية، هل يمكن التفكير بفكر إلهي أسمى من ذلك..؟

يجب تحطيم اليوتوبيا التي لا أساس لها والمتسلطة على البنية الذهنية للشرق الأوسط ، كما يجب التخلي عن التصورات اليوتوبية على شاكلة الأبيض والأسود، الجنة والجحيم والصراط المستقيم ويوم الحشر وانتظار المهدي والشعب المختار، فكل هذه تعتبر من خلق كهنة سومر ومصر. إن تحويل الأنانية إلى مثالية لهذه الدرجة تؤدي إلى أشكال استغلالية وقمعية لا مثيل لها، وتصبح قوة اليوتوبيا وسيلة بيد الأقوياء كالقوة الدوغمائية. إن اليوتوبيا المتعلقة بالأبدية والتي لا يوجد لها أي احتمال للتحقيق علمياً تجعل الذهن أسيراً وخاملاً، وإذا كانت تستند إلى أساس ديني فإن تأثيرها يصبح أكثر جموداً، وبقدر ضرورة المشاريع والأفكار المستندة الى أرضية علمية تقنية، فإن المشاريع والأفكار التي لا تستند إلى أسس علمية هي خطيرة وغير ضرورية، ولا يمكن تحقيق ثورة النهضة دون تحطيم التخلف الدوغمائي واليوتوبي القوي في ثقافة الشرق الأوسط. إن جعل التصورات المتطورة على أساس الظروف التي تجعل عدم المساواة في المجتمع قسرية، والتي هي في الأصل نتاج التخلف العلمي والتقني منذ آلاف السنين، موضوع عبادة وشيئاً مقدساً لا يفهم معناه هو أخطر مرض مجتمعي وفردي.

قبل كل شيء يجب ألا ننتظر عودة المعرفة والوجدان الروح إلى رشدها دون تجاوز هذا المرض. فثقافة مجتمع تقتل فيه فتاة عمرها خمس عشرة سنة لكونها أحبت شاباً هي ثقافة مريضة بشكل رهيب، ويجب ألا ننسى أنه يتم قتل جميع ساحات الحياة بهذه الطريقة. إن عجز هذه الثقافة والتربة التي كونت تصورات الآلهة والربات فيما مضى بشكل دائم عن تحقيق التحول الخلاق اللازم، أدى إلى ظهور بلد مسكين متصحر جاف واجرد، وليس بإمكانه خلق تصورات جديدة؛ لا يقدم إلهاماً ولا يخلق شعراً ولا يطور عشقاً لأنه أصبح مستحاثة منذ زمن بعيد، وجف على يد الدوغمائيات واليوتوبيا، وتم تجميده ليتحول إلى أراضٍ جرداء؛ فثورة النهضة تعني استنبات هذه الأرض من جديد وجعلها مصدر إلهام

للعشق الكبير وللملاحم الجديدة وإيقاظها بأحلام الجنة الجديدة والواقعية، وتعني أيضاً فتح الطريق أمام الذهنية التي تجمدت والروح التي جفت، والوجدان الذي تصلب وانحرف، وإعادة عواطف العدالة المفقودة، وخلق ذاته من جديد كل يوم. كما إن الأرضية ملائمة من أجل الذهنية العلمية، ويمكن أخذ أشياء كثيرة من المكتسبات الأوروبية، فالتقنية جاهزة أيضاً ويمكن تأمينها بسهولة، حيث تحدد هذه الوقائع قوة ومدى فرص النهضة الشرق أوسطية. وفي حال تحليل الدوغمائيات القديمة وتصورات المستقبل على أسس علمية، سيصبح التاريخ شلالاً من جديد وسيتدفق بغزارة نحو المستقبل، وسيتحول الأمل عند ذلك إلى قوة جارفة كالسيل.

لقد تشكلت تراكمات قوية من خلال التنوير العلمي، وما ينقصها هو توجيهها نحو التاريخ والواقع، حينها ستحصل الذهنية العلمية والتاريخ على شرح غني، سيؤدي إلى تحليل حاضرنا وإحيائه لحظة بلحظة، ويكفي تحليل إنسان واحد لفهم وتحليل العالم. ان إمكانية ارتقاء مكان ما مرهونة بدرجة الانحطاط الموجود فيه. وبقدر ما يكون الظلام حالكاً يكون النور قريباً. ويجب أن نكون منتقدين لكل شيء لكن دون أن نفقد الأمل بالوصول الى الحقيقة، ويجب أن نتخلى عن الأنانية المتفسخة وعشائريتها وأسريتها وزوجها وزوجتها وقوميتها ودينها، وأن نرجع إلى المفهوم الإنساني الكبير والغنى الذي يرى الفرد في الجماعة والجماعة في الفرد،فلا داعي لأخذ المفهوم الإنساني من الخارج، إن أعظم غنى موجود في هذه التربة هو إنسانيتها، حيث يجب أن ندفع هذه الإنسانية للنهوض، وان نمهد طريق العشق الكبير من جديد، ونتوب ألف مرة عن نظرياتها الإلهية و ممارساتها المقدسة، وإن نسعى إلى أحيائها من خلال معرفة درجة ارتباطها بالقيم الحضارية والإنسانية والأرض ومعرفة معنى الصدق الكبير، كما يجب علينا بعث أمثال ليلى ومجنون، وكرم وأصلي، وفرهاد وشيرين من قبورهم، لنرى وصولهم إلى قوة الحياة من حيث تخلوا فيه عن عشقهم.

لنعد إلى الأقدمين إلى كلكامش ليستيقظ ويرى أن حضارته لم تمت وان أنكيدو لم يمت ومازال حياً، وأن نبين له أن عشق إنانا لم ينته. وليستيقظ جميع الأنبياء لنبد لهم قدرة إبداع أديانهم ومدى رفع شأن الإنسانية.

ليستيقظ ابن رشد وابن سينا والكندي ورفاقهم، ليروا مساهماتهم التي قدموها بجهودٍ كبيرة للعلم، حينها ستشبع أذهانهم برؤيتهم لمدى تطور العلم، ويجب أن يستيقظ كاوا الحداد ومنصور الحلاج والسهر وردي والبابكي والمزدكي ورفاقهم ليروا أن المقاومات والبطولات والمآسي الكبرى لم تذهب هدراً، وأن هناك أناساً يحكمون بما يليق بهم.

إن ذلك ليس عبارة عن خيال رخيص بل عظَمةً تاريخية كبيرة، كان علينا استنهاضها مع حركة نهضتنا منذ زمن طويل. كما يجب إعادة إحياء تاريخنا منذ بدايته بالأدب الحديث، والأهم من ذلك لا بد من بحث ودراسة آداب العصر النيوليثي ولا سيما المجتمع الأمومي الذي يعتبر القوة الخلاقة لكل شيء، والأم الربة وروحها وذهنيتها وخيالاتها وآمالها، فما الذي يمكننا القيام به بدونها، فبدونها لسنا سوى العدم. إن إحياء وتسليط الضوء بلغة أدبية حديثة في الشرق الأوسط على المصطلحات الميثولوجية والدين والمذاهب والطرائق والسلالات والعشائر والأمراء والغلمان والعبيد والإله والربة، والشيخ والرئيس والسيد والأم والأب والطفل والحداد والفرس والسيف والمحراث والفأس والمعدن، والنهب والحرب والعشق والنبوة والكاهن والمتصوف والعلاّمة والخائن والسافل والشرف والناموس والقدسية والقدر والأمل والعيد والموت والربيع والشتاء والصيف والجبل والنهر والصحراء، والطريق والجمل والكلب والحمار والثور والعنزة والخروف والبقرة والقطيع والراعي والفلاح، والكاتب والسلطان والأمير والجندي والقائد والعالم، والجمال والقبح...الخ، هي من المهام الفنية والعلمية لثورة النهضة. إن ذهنية العلم والأدب الموجودة منسلخة عن الواقع التاريخي والاجتماعي للشرق الأوسط؛ وتعبر عن الآراء الاختيارية والفنتازيا غير المنظمة التي لا أساس لها، ولها علاقة بالأشخاص والمجموعات المحتواة من قبل الاستعمار. والبنية الذهنية للمجتمع لازالت مشلولة، كما إن الآداب ذات البنية الدوغمائية التي أدت إلى ذلك ما هي الا مديح لا معنى له. فحركة النهضة في الآداب هي أساس ميلاد الشخصية الحرة، لأنه لا يكفي التخلص من الحلم الدوغمائي الذي لا أساس له وحسب، بل يجب إكمال ذلك عن طريق إحياء الآداب وتأثيراتها.

ما ينتج من الخلاصة ليس ديناً جديداً، بل إيصال الدين إلى الموقع الذي يليق به، عن طريق اختزاله إلى الأخلاق، وسيخلق بذلك الوجدان العادل الحر. ولن يهتم بمجالات العلم كثيراً، وسيترك ذلك للفلسفة. فالمشكلة بالنسبة للفلسفة والعلم ليست تكوينهما من جديد، بل سيظهران القوة التنويرية اللازمة من أجل أن يحكما الذهنية الخلاقة والحرة، وذلك بتوحيدهما مع المعرفة التاريخية. وسيصل تاريخ العالم العام والذهنية الإنسانية إلى تنور أكثر تطوراً عند تكامل المكتسبات العلمية والفلسفية الأوروبية مع الواقع التاريخي للشرق الأوسط، وهذا ما يعنيه تطور الأطروحة المضادة. إذاً فشرق أوسط يفكر بذاته هو عبارة عن أطروحة مضادة، ولا يمكنه إظهار هذه القوة إلا عن طريق نشر ثورة النهضة والتنوير، إذ لا تكفي محاولات بعض الأشخاص أو المجموعات لأجل ذلك، فظهور مبدعين من

كل مجموعة ثقافية وقومية وتأثيرهم على مجتمعاتهم، يعني النهضة والتنوير للمنطقة.

أ- الخاصية الواضحة لهذه المرحلة هي بروز الفرد والمتنور الحقيقي، ومازال ميلاد هذه الظواهر بعيد عن الشرق الأوسط، فالتحول إلى فرد ومتنور أصعب من التحول إلى حزب أو حزب معارض، وتطور الشخصانية يعني ظهور المجتمع الحر؛ حيث يمكن لفرد مثقف أن يمثل مجتمعاً أو أمة في بعض الأحيان، بينما لا تمنح ثقافة الجماعة والعشيرة والعبد فرصة لتطور كهذا بسهولة. وعندما يعطى الفرد والمثقف حق مسيرته، حينها يحقق الاتجاه الذي ستتابعه المجتمعات لمئات السنين؛ ويكون بذلك قد قام بعمل لا يمكن أن تحققه عدة حروب وأحزاب. يجب أن نذكر دائماً أن الفنانين والأنبياء والفلاسفة والعلاّمون هم مسيرة نهضة وثقافة المرحلة التي عاشوا فيها، والمجتمع الذي لا يمتلك مثقفين يشبه القافلة التي لا مرشد لها، وقد تبتعد عن الهدف لمئات السنين عندما تضل السبيل، وهكذا تكتسب الثورة النهضوية والتنويرية أهمية لا يمكن التخلي عنها بالنسبة للمجتمعات، لأنها تخلق الأشخاص المتنورين من جهة ويخلقها المتنورون من جهة أخرى. ويحتاج كل من يدخل الطريق حديثاً إلى دليل ورائد ولا سيما المجتمعات والثقافات التي تستيقظ حديثاً، وتحتاج المراحل التي تعاش الى هذه الأمثلة الشخصانية أكثر مما يعتقد.

الشخصانية تعني الفرد الذي يصل إلى قوة يحقق بها ذاته في المجتمع، ويحقق المجتمع في ذاته أكثر من أن يكون محصوراً بالتفكير بنفسه. ولا يمكن تسمية المغرم بنفسه والذي يلهث وراء مصالحه بالفرد. كما لا يمكن لذوي المصالح الأنانية والبسيطة أن يمثلوا الأفراد في أي وقت من الأوقات، كذلك تتطور مختلف الفنون وتحصل على ميلادها عند تكوين الفرد؛ فالفرد والفن متلازمان وعندما يكون أحدهما موجوداً يلحق به الآخر. الفن يعني إنشاء أجنحة للذهن والروح، ويتحقق التحليق بدلاً من المشي. إذاً فالتحليق بالنسبة للمجتمع أو للحضارة يعني الحصول على القوة الجوهرية والسير نحو المجد.

يمكن أجراء تقييمات شاملة من أجل النهضة والإصلاحات والتنوير في الشرق الأوسط. لكنها كافية للفهم كي ندخل في الموضوع. إن التفكير بجذور الذات بشكل واقعي واتخاذ قرار حر حول الأسئلة "كيف نكون، وكيف نعيش..؟"، وعن كيفية إظهار القوة اللازمة من أجل ذلك العيش تشكل أساساً من أجل الذين يطمحون بأن يكونوا أطروحة وأطروحة مضادة. والنجاح في ذلك يعني السير بنجاح في طريق النهضة وتنوير الإنسانية، ولا يمكن للحضارة الأوروبية أن تؤدي إلى تركيب جديد، بمعنى حضارة جديدة بمفردها، دون خلق الأطروحة

المضادة في الشرق الأوسط حتى لو كان ذلك متأخراً. حيث كانت الحضارة الرومانية الإغريقية الأطروحة المضادة للشرق الأوسط، وكانت تركيبة الحضارة الأوروبية نتاجاً للأطروحة والأطروحة المضادة للاثنتين. أما الأطروحة الحالية فهي الحضارة الأوروبية، وستتكون الأطروحة المضادة في الشرق الأوسط من خلال ثورة النهضة، وستكون الوحدة الديالكتيكية لكلتيهما هي التركيبة الجديدة للعالم. هكذا كان الديالكتيك التاريخي دائماً، ويمكن أن تؤدي ترجمة أغانيه على أساس الوحدة الديالكتيكية إلى بدء انطلاقة تاريخية.

ب ـ الظاهرة الأساسية الأخرى التي يجب معايشتها بشكل متداخل مع التنوير والميلاد الجديد في الشرق الأوسط أو طرح الحضارة الأوروبية، هو مشروع الحضارة الديمقراطية، ولن نخوض في تفاصيل موضوع الحضارة الديمقراطية لأنه تم الوقوف عندها بشكل شامل، لكن ضبطها في الشرق الأوسط وتكوينها لأطروحتها المضادة تشكل مشكلة شاملة أكبر، ومع أن التجدد الذهني والروحي أساس لذلك، إلا أن هناك مسافة بينها وبين المجتمع والدولة، ويتم تحقيق ذلك خارج نطاقهما، وتأخذ في شموليتها الفرد والنوعي. بشكل قليل، أما أطروحة الحضارة الديمقراطية فتتخذ الدولة والمجتمع أساساً لها وهي مضطرة للمحاسبة مع كليهما.

لم يدرج الجواب الذي سيقدمه الشرق الأوسط بصدد الأطروحة الأوروبية على جدول الأعمال حتى ولو على مستوى النقاش.

إن فشل جواب الاشتراكية المشيدة قد أزم الوضع من جهة، وأعاق سبل الخيارات من جهة أخرى. في الواقع ان الرافد الأوروبي للحضارة الديمقراطية يمثل اليمين، بقول أصح إن الحضارة الأوروبية تشكل الجناح اليميني للحضارة الديمقراطية التي تجاوزتها، وهذا ناجم عن قوة الرأسمالية إذ لا تنسلخ أوروبا عن اليمين كأكبر مركز كلاسيكي للرأسمالية في يومنا الراهن ولن تستطيع التقدم أكثر من ذلك، فهي إن تراجعت ستتجه نحو الفاشية، وإن تقدمت فستتجه نحو الاشتراكية، ومن هذا المنطلق فإن اليمين هو أكثرها عقلانية، ومن غير المحتمل أن تملأ الدول المسماة بالنامية هذا الفراغ، وإذا استطاعت أن تكون امتداداً لها، فإن ذلك يعتبر نجاحاً بالنسبة لها، ولا توجد مشكلة بالنسبة للصين والدول المشابهة لها بهذا الصدد.

لا يمكن للشرق الأوسط أن يصبح أطروحة مضادة إلا بعد ترسيخ المرحلة الديمقراطية في المجالين الاجتماعي والسياسي، والقيام بذلك عن طريق الإصلاح أو الثورة، يجب ألا يغير الجوهر. كما ان دمقرطة المجتمع هي مسألة عاجلة جداً،

حيث تلعب المرأة والشبيبة دوراً طليعياً في ذلك، كما شوهد في كل الحركات الجماهيرية الثورية، فهاتين القوتين هما في موقع أقوى العناصر الديمقراطية.

للمرأة دور خاص في النهضة الديمقراطية للشرق الأوسط، فهي لا تليق بنفسها وبأي شكل كان الانتقاص من شأنها من قبل المجتمع الطبقي باعتبارها القوة الخالقة للعصر النيوليثي، ونظرت بشك دائم لسيادة الرجل. وأدركت تماماً بأنها مسلوبة الحقوق وعجزها يسبب لها آلاماً عميقة، وبان الوضع الذي آلت إليه لا يليق بها، وفي الواقع انها تؤيد ثقافة الربات في الخفاء، ولم تؤمن بالآلهة الذكور بشكل جاد، وهي تعي ايضاً بأنها موجودة في فراغ دائم، وتشعر بالألم والغضب لأنها لم تتلق الحب والاحترام الذي تستحقه، ولم تعف مطلقاً عن إيقاعها في وضع تحتاج فيه للرجل إلى هذه الدرجة، بل والأكثر من ذلك هي إنها لم تعف عن نفسها، وتعي بأن الرجل بعيد عن المحبة وتدرك بأنه خشن ولا أخلاقي و يفتقر لقوة العشق. إن وقوع المرأة كضحية للتناقضات إلى هذه الدرجة لم يتركها جاهلة كما يعتقد، بل قربها إلى أن تكون علاّمة، وعندما تؤمن بشيء فلا توجد قوة أخرى تعلو على قوة التزامها، وتعتبر جميع النساء بشكل عام ونساء الشرق الأوسط بشكل خاص، القوة العملية والحية للمجتمع الديمقراطي بسبب خصائصهن المذكورة.

يمكن أن يتحقق النصر النهائي للمجتمع الديمقراطي بالمرأة، وإن الشعوب والنساء التي تم إذلالها أمام المجتمع الطبقي منذ العصر النيوليثي تنتقم من التاريخ كأصحاب حق حقيقيين في الحملة الديمقراطية، وكذلك تشكل الأطروحة المضادة اللازمة من خلال وقوفها في يسار الحضارة الديمقراطية المتصاعدة، وتشكل السند الاجتماعي المتين في طريق الوصول إلى مجتمع المساواة والحرية، إن تحول دمقرطة المجتمع إلى أطروحة مضادة في الشرق الأوسط سيتحقق بفضل المرأة والشبيبة على الأغلب، حيث تعتبر يقظة المرأة واتخاذها مكانة في الساحة التاريخية كقوة طليعية للمجتمع، بمثابة الأطروحة المضادة، فعالم المرأة ووعيها ووجدانها وحبها وحمايتها لكل ذلك مرشح لخلق قيم حضارية مميزة، كما ان تطور الحضارة تحت سيادة الرجل كمطلب لطابعه الطبقي جعلها بموقع الأطروحة المضادة القوية بهذا الاتجاه، إن تجاوز التمايزات الطبقية للمجتمع والقضاء على فوقية الرجل هي بمثابة تركيبة أكثر من كونها أطروحة مضادة، لذلك يحمل الموقع الطليعي للمرأة في تحول مجتمع الشرق الأوسط إلى مجتمع ديمقراطي، خصائص تاريخية لموقع الأطروحة المضادة (وهي ناتجة من شرق اوسطيتها) في العالم والتركيبة أيضاً.

يشبه دور الشبيبة دور المرأة إلى حد ما، فهي تدرك العالم الحديث بسرعة وتشعر بغضب كبير تجاه الواقع الذي أسقطت فيه نتيجة واقع الشرق الاوسط، وتدفع تقنية المعلوماتية والاتصال بالشبيبة إلى التوعية السريعة، وحتى الأطفال يأخذون موقع القوة الديمقراطية السريعة لأنهم شبيبة الشبيبة، وبسبب الملل الذي أصاب مجتمع الشرق الأوسط من العشائرية والقومية والأزمات التي أدت إليها، ونظراً للأثر الثقافي التاريخي المشترك، جعلت هذا المجتمع أقرب إلى الديمقراطية في جوهر واقعه، حيث يعتبر الشرق الأوسط الديمقراطي هو الأنسب لتاريخ شعوبه وواقعها الاجتماعي، وإن التداخل الجغرافي والثقافي، والحاجات الاقتصادية والمواصلات، والموارد المائية يجعل الفيدرالية الديمقراطية المشتركة أفضل بديل في المنطقة، علماً بأن الماضي التاريخي للشرق الأوسط يتحلى بصفة فيدرالية للشعوب والقبائل. يستخلص من هذه الأقوال بأن الفيدرالية تشكل النظام الأنسب للنسيج الاجتماعي في الشرق الأوسط، ويعتبر المجتمع الديمقراطي هو النظام الذي ينسجم أكثر من غيره مع آمال وتطلعات شعوب الشرق الأوسط التاريخية.

تشكل الشعوب قوة ديمقراطية راديكالية مع جميع ضروراتها التاريخية والاجتماعية، وتكوّن بمواقعها هذه الحقيقة الدنيوية الأقرب لتكوين أطروحة مضادة في الجناح اليساري للحضارة الديمقراطية، تحتل الشعوب مع نسائها الموقع الأكثر طموحاً للخيار الديمقراطي في الشرق الأوسط لتشكيل الأطروحة المضادة التي تحتاجها الحضارة الأوربية كثيراً، فطبيعة حقائقها هي التي تخلق هذه الأطروحة المضادة، فهذه الوحدة الديالكتيكية التي تشكل الجانب اليساري واليميني والأطروحة والأطروحة المضادة لمركزي الحضارة القويتين، أمام مهمة تاريخية للبدء بالعمل لصالح الانطلاقة من أجل تركيبة إنسانية جديدة مرة أخرى كما كان في الماضي.

تاريخ شعوب الشرق الأوسط يشبه تاريخ المرأة نوعاً ما، وكما قلنا سابقاً فإن المرأة قد سحقت وأخرجت عن المسار منذ العصر النيوليثي.

العائق الوحيد هو الدول الاستبدادية التي تتربع على مراكز المؤسسات السياسية، ولكن اتخاذ الحضارة الرأسمالية للعولمة أساساً هو لصالح الحضارة الديمقراطية، ويقلل من احتمال مواصلة القديم، وعلى ما يبدو فإن معارضة الشعوب في الداخل التي ازدادت عن طريق تقنية الاتصال والمعلوماتية والعولمة في الخارج ستحل تلك الأداة الاستبدادية، ولأول مرة يعمل التاريخ لصالح تفتيت الكتلة السرطانية الموجودة في جسم المجتمع، ولذلك نرى أنه لا يوجد احتمال مقاومة طويلة الأمد للسياسة والدولة أمام التحول الديمقراطي، ولا مفر من

تصفيتها في مرحلة زمنية قصيرة، يبدو إن إمكانيات وضرورات التحول الديمقراطي في المجتمع والدولة بشكل متداخل سيؤدي باتجاهه هذا إلى النضوج السريع لخيار الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط، ويعتبر ذلك تطوراً يساند ظاهرة التحول إلى أطروحة مضادة. لذلك فإننا نقول: أن الثورة الذهنية والديمقراطية تقدمان حظاً وفرصة كبيرة لحضارة الشرق الأوسط من أجل أن تكون أطروحة مضادة، وهذه الحقائق مصيرية.

ج ـ يرتبط تطور الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط بنظرية الساحة الثالثة وتطبيقاتها عن كثب. وتلعب بنية المجتمع والدولة التقليدية دوراً أساسياً في هذا الأمر.

أدت ممارسة الضغط الشديد على المجتمع التقليدي وتعرضه للاغتراب عن نفسه إلى فقدان الديناميكية الذاتية لديه إلى درجة كبيرة. وكما ان التحديث السطحي المستند إلى الرأسمالية زاد من سلبية هذا الوضع، فالدولة التقليدية التي لا تعكس الدور التقدمي للرأسمالية أبدا، ولا سيما أنها لا تنقل أيضاً ثقافة المرحلة النهضوية والتنويرية إلى المجتمع، بل أنها توحد المفاهيم القومية والسلطوية المتطرفة مع بنى استبدادية تقليدية وتفرضها عن طريق صبغة مؤسساتية بعد تلميعها، كل ذلك جعل التفسخ والتعقيد الموجودان في البنية الاجتماعية للشرق الأوسط يتفاقمان، ووضع الدولة التقليدية يكون اكثر تعصباً ورجعيةُ، ويؤثر هذان العنصران سلباً على تطور المجتمع المدني والحضارة الديمقراطية، وبمعنى أصح من الصعب أن يظهر المجتمع والدولة التقليدية القدرة على التحول الديمقراطي لوحدهما، إذ يكتسب المجتمع المدني والتحول الديمقراطي كساحة ثالثة أهمية كبرى. إذ لا يمكن ظهور فرصة للتحول إلا إذا تم تطوير الديمقراطية والمجتمع المدني كعنصر ثالث بين العنصرين، ربما هناك حاجة كبيرة الى تطوير نظرية الساحة الثالثة وتطبيقها، لحل الوضع الذي وصل إلى طريق مسدود في الشرق الأوسط، إن البنية الذهنية والمؤسساتية التي وصلت إلى طريق مسدود في مجتمع الشرق الأوسط، تجعل من وجود التحول الديمقراطي المستند إلى المجتمع المدني كساحة ثالثة أهم خطوة وعنصر للحل، وبدون القيام بهذه الخطوة بنجاح سنكون غير واقعيين إذا انتظرنا حدوث انحلال في الدولة والمجتمع من تلقاء نفسه أو بالمداخلة، وسيؤدي هذا الوضع إلى ترسيخ التعقيد والتفسخ، وتؤدي المنظمات والعمليات المعتمدة على العنف والتي ترغب في أن تكون بديلاً لذلك إلى تعقيد الوضع أكثر مما هو معقد، في حين تلجأ الدولة إلى تقوية نفسها عن طريق العنف، فإن الشعب يمتلئ حنقاً والتشكيلات التي تطرفت نحو اليسار واليمين رسخت اكثر تراث العنف السيئ في تاريخ المنطقة، ولم تستطع المواقف المشابهة التي تعتمد

على العنف النجاح في القرون الماضية، يظهر هذا الوضع أهمية نمط المقاومة وليس عدم جدواها.

لم يكن عبثاً استناد الحضارة الديمقراطية التي حققت نجاحاً في العالم، على المجتمع المدني دون سواه، بل يرجع ذلك إلى إثباتها بأنه لا يمكن تجاوز التعصب المؤثر للدولة والمجتمع الا بهذه الطريقة، ويحتاج الشرق الأوسط بشدة إلى تكامل نظري ومنهجي واستراتيجي وتكتيكي شامل للمجتمع المدني، ويجب تكوين مجتمع بديل منظم ومنتشر، ابتداءاً من الاقتصاد إلى التقنية والبيئة ومن الساحة الاجتماعية إلى القانون والثقافة والعلم، ومن الرياضة إلى جميع الفروع الفنية، ومن الإيديولوجيا إلى السياسة، فالمجتمع المدني البديل الذي لا يكون امتداداً للدولة والمجتمع التقليدي والذي يمتلك رؤية عالمية مستقلة، والمؤهل للقيام بأشكال عمليات ملائمة من أجل الوصول إلى الهدف، وله برنامج مفصل وتنظيمات وظيفية وفقاً للحاجة، سيلعب دوراً مصيرياً في تجاوز الانسداد وتحديد الطريق الذي يجب السير فيه.

الخاصية الهامة لنظرية الساحة الثالثة هي اتخاذها التوجه إلى النتيجة بدون اللجوء الى هدم بنى الدولة والمجتمع الذي يؤدي إلى تعقيد الوضع ولا يقدم الحلول له، ودون مواجهة النظام الحقوقي المعمول به، بل رؤية أغلاط هذه البنى والفجوات والقيام بانتقادها وإعادة بنائها على شكل اتخاذ نفسها مثالاً لذلك، وكأن ذلك يعتمد على مفهوم "أنت غير قادر على العمل، أنا سأقوم به"، أما نظريات الثورة والثورة المضادة للمراحل الماضية، فهي تتخذ من هدم المجتمع والدولة الموجودة أساساً لها من أجل الوصول إلى النتيجة، وقد رأينا كثيراً أنها لم تنج من أوضاعها الدامية ونجاحاتها مشكوك فيها، إن طرق التحول إن كانت بالرجوع إلى الماضي أو التقدم إلى الأمام والمستندة على التخلف العلمي والتقني والتسيير القسري للتمايز الطبقي والتي تعتبر نتاجاً لمرحلة ماضية، قد اضطرت مرة أخرى الى فقدان أهميتها استناداً إلى الثورة العلمية والتقنية في نهاية القرن العشرين، وتعتمد نظرية المجتمع المدني وتطبيقها على تطور الثورة العلمية والتقنية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتزداد فرص نجاح المجتمع المدني من خلال ظهور الأساس المادي له من خلال هذه الثورات. وهكذا فان المؤسسات التي كانت استثنائية وداجنة غدت مؤسسات أساسية، حيث تم معايشة انفجار ثوري لمجتمع مدني، وهكذا توجد في يومنا الراهن أسباب تاريخية وعلمية وتقنية واجتماعية ودولية لاكتساب منظمات المجتمع المدني أهمية كبرى، كما يجب اعتبار كل التجمعات الدينية والفلسفية والمهنية والتي بقيت مدجنة عبر التاريخ ضمن المجتمع المدني، لكن ضعف إمكاناتها كان عائقاً أمام تحولها إلى بديل، ناهيك عن أن الكثير

من الأشخاص الذين نشئوا في المؤسسات المذكورة لعبوا أهم دور في تطوير إدارة المجتمع والدولة، وأهم فرق في يومنا هذا هو وصول المجتمع المدني إلى مركز قوة تؤهله ليصبح مجتمعاً بديلاً، كما ان الباب مفتوح على مصراعيه أمام تحولات اجتماعية وسياسية مستندة إلى المجتمع المدني.

إن تجسيد هذا الموديل في الشرق الأوسط مع الأخذ بعين الاعتبار الوقائع التاريخية والاجتماعية والسياسية يتمتع بأهمية بالغة، فهذه الفعاليات التي يتم تسييرها عبر التاريخ كالطرق الدينية واتحادات صغار الكسب ومنظمات قاطعي الطرق؛ هي في وضع متخلف أكثر من كونه تقدمياً، من خلال اتخاذها طابع وشكل الطرق الدينية والاتحادات المذكورة، ولهذا حصة كبيرة في عدم تجسيدها للحضارة الديمقراطية. ويظهر تحويل هذه البنى الداجنة المتبقية من الماضي إلى شكل ديمقراطي وظيفة هامة جداً. لكن الأهم من ذلك هو خلق مؤسسات المجتمع المدني الحديثة كسند أساسي للحضارة الديمقراطية.

إذا حاولنا تحديد الخطوط العامة يمكننا القول أنه سيظهر تنظيم جماعات المجتمع أو المجموعة الشعبية المعنية بالمجال الاقتصادي ولاسيما المجال الاستهلاكي قوة تحولية هامة، وتؤدي التنظيمات الاستهلاكية إلى تأثير هام حتى في المجتمعات المتطورة. إذا ما تم إنشاء شركات المواصلات والجمعيات الاستهلاكية وشركات السياحة والسفر واتحادات الإنتاج والجمعيات، والاتحادات التجارية والمالية بالاستناد إلى الحجج الاقتصادية الملائمة مع الأسس القانونية، فمن الواضح أنها ستشكل قوة هامة؛ عندها يمكن أن يصبح المجتمع التقليدي والدولة في الدرجة الثانية، وبالتالي تنتج أهم الوسائل من أجل تطبيق الديمقراطية؛ حيث ان الدولة وكل المجتمع مضطران للنظر الى ذلك بشكل جاد، وتحقيق الوفاق مع المجموعة أو القطاع الشعبي الذي يمتلك جمعيات تعاونية إنتاجية واستهلاكية والذي نظم مؤسسات كالفنادق والمصارف والغرف والجمعيات والباصات وصناديق التعاون.

أضحت المجموعات التي انتظمت بقوتها الذاتية في المجال الاجتماعي لاسيما التعليم والصحة، من القوة الأساسية في المكان الذي تتواجد فيه، ويكون المجتمع المدني الذي ينظم مؤسساته الثقافية الجوهرية وأنشطته من النوع المسرحي والسينمائي والأدبي والموسيقي والرسم والأفلام والبرامج الوثائقية مؤثراً وجذاباً، ويكتسب إنشاء صالات وساحات رياضية وأماكن للسير في الجبال والريف وأماكن للجري، لاسيما المتعلقة بالجماهير والمرأة والشبيبة، أهمية من أجل الصحة والذهن السليم، وبات فتح الطريق أمام الرياضة الجماهيرية ولاسيما في ظروف المدينة النامية حاجة تزداد يوماً بعد يوم، وهكذا فالرياضة المستندة إلى

المشاركة الفعالة للمجتمع المدني بدلاً عن الرياضة الرسمية التي تعمل على تخدير المجتمع، مؤهلة لان تصبح إحدى المؤسسات المدنية الأكثر عصرية.

يعتبر التنظيم الجوهري للمجتمع المدني في المجال القانوني إحدى المؤسسات التي لا يمكن التخلي عنها بسبب تطور الواقع اللاقانوني وضعف المعرفة القانونية بشكل عام، ويتمتع حصول جميع الوحدات والمجموعات الشعبية للمجتمع المدني على مكاتب حقوقية بأهمية حيوية، وتعتبر مكاتب الحقوق بمثابة مؤسسات المجتمع المدني التي لا يمكن التخلي عنها وذلك لترسيخ نظام الحقوق الكوني على اعتباره مؤسسات أساسية في النضال ضد اللاحقوق، كذلك بشد الجماهير إلى طريق السياسة الديمقراطية الصحيحة عن طريق تقديم المعرفة القانونية. إن تناول مؤسسة نقابة المحامين وحقوق الإنسان بشكل شامل وحتى توظيف ممثل مكتب في كل قرية وحي، وعدم ترك أي مكان دون أن يدخله القانون والحقوقيون، يتمتع بأهمية حيوية من أجل نجاح المجتمع المدني.

يجب تناول المؤسسات السياسية لا سيما الأحزاب كوسائل للوصول إلى السلطة بشكل مباشر لأهميتها القصوى بالنسبة للمجتمع المدني. إن تبني الأحزاب السياسية المنظمة بشكل جيد والتي تفجر القوة الجوهرية للمجتمع، وتتخذ الاتجاه الدستوري أساساً لها، وتمتلك المعرفة بدلاً من الأحزاب السياسية المعتمدة على غلال المجتمع التقليدي والدولة، هو شرط أساسي للمجتمع المدني. فنظام الحزب السياسي الذي يوجد له فروع في جميع أنحاء المجتمع المدني بما فيها القرى والبلدات والذي يمتلك كوادر مدربة وينفذ سياسة وفاقية مع المجتمع والدولة القديمتين، يلعب دوراً حيوياً عن طريق الضغط من أجل التحول الديمقراطي في الدولة والمجتمع بالطريقة السلمية كوسيلة أساسية للتحول الديمقراطي.

تتولد حاجة كبيرة للوحدات والتنظيمات المسالمة من أجل تجاوز مجتمع العنف والدخول إلى مجتمع السلم الذي يكتسب أهمية كبرى في بعض المناطق والمجتمعات، إذ لابد من إقامة حركات سلام تؤدي إلى تفعيل معنى السلام وأهميته وطرقه ومناهجه. إن السلام وأدواته وعملياته هو من أهم المؤسسات المدنية التي يجب إبرازها في المجتمعات المشابهة لمجتمعات الشرق الأوسط والتي يعشش العنف في أعماقها حتى النخاع، ويلعب أحد الأدوار الحيوية في تطور المجتمع الديمقراطي والدولة عن طريق الإيمان به ومواصلته بقوة.

تعتبر اتحادات المرأة والشبيبة ذات الاتجاهات المتعددة إحدى المؤسسات الأساسية للمجتمع المدني من أجل النساء والشباب اللذين هما بحاجة إلى السلام والحرية أكثر من غيرهما، ويجب على التنظيمات التي تكون جواباً سليماً للأهداف السياسية والمواقع الملموسة والتاريخية للنساء والشبيبة، ان تتجاوز المجتمع

المتعصب وحواجز الدولة الاستبدادية من جهة، وتلعب دور الوسائل الأساسية لوضع المجتمع في مساره الصحيح من جهة أخرى، وتعد الاتحادات النسائية والشبيبة الضمانة الأساسية لانتصار المجتمع المدني من خلال تنظيماتها التي تستهدف الكمية والنوعية بشكل جيد وتؤمن بها.

سيتم إتمام النظام من خلال تنظيمات السقف التي تتصف بالفيدرالية الديمقراطية والتي تشمل مؤسسات المجتمع المدني ضمن حدود البلد والدولة، ومن خلال التضامن الذي يقام مع التنظيمات المشابهة في البلدان والدول الأخرى على شكل تنظيمات ديمقراطية متضامنة، وبذلك يتمم النظام.

يشكل الدفاع المشروع أحد المواضيع الأساسية التي يجب فهمها وتطبيقها بشكل صحيح كقضية عامة للمجتمع المدني، ولا يستبعد احتمال تعرض المجتمع المدني لاعتداءات دائمة من قبل الدولة والمجتمع التقليدي، وستستخدم القوى التي تريد إفشال المجتمع المدني واستفزازه هذا الأسلوب بشكل علني أو سري، لأنه قد أغلق باب الغلال الذي كان يؤمن لها مصالح كبيرة، ولذلك لا يمكن أن تقبل بالأمر بسهولة. وكون الكثير من مؤسسات الدولة والمجتمع القديم ستبقى دون وظيفة وغير فعالة وذات مكانة مهزوزة، فإن ظهور خروقات قانونية أو إدراج العنف وارد في كل آن. يدرج هذا الوضع الدفاع المشروع على جدول الأعمال كحق لا يمكن التخلي عنه في القانون، ويجب فهم مضمون وشكل الدفاع المشروع بشكل جيد، وعندما يكون الأفراد والجماعات أصحاب الحق في وضع دفاع جوهري عن حقوقهم المنصوص عليها في الدستور والمعاهدات والقوانين الدولية، فبإمكانهم أن يستخدموا حق المقاومة حتى يحصلوا على حقوقهم بكافة السبل ابتداءً من الانتفاضة إلى المظاهرات، ومن تقديم عرائض جماعية حتى اللجوء إلى المحاكم بشكل عام أو جزئي وبشكل فردي أو جماعي، حيث يمكن لشعب هضمت حقوقه ولغته وثقافته أن يلجأ إلى مقاومة طويلة أو قصيرة الأمد حسب الحاجة، إذا كانت طرق الحل القانونية والسياسية مغلقة. إن ذلك ليس عصياناً بل هو حق قانوني مشروع، وعدم القيام به يعتبر انتهاكاً للقانون.

يعتبر عدم المطالبة بالحقوق أو عدم استخدامها أكبر انتهاك للقانون، وتكون قوانين الغابة سارية المفعول في المكان الذي يتواجد فيه ذلك. لذا يكون الأفراد والمجموعات والشعوب صاحبة الحق منتهكة للقانون في حال سكوتها على هضم حقوقها، ويعتبر طلب الحق وإذا اقتضت الضرورة القيام بانتفاضة عند اغتصاب الحقوق حق مقاومة مقدس، وهذا هو جوهر القانون والعدالة، وليس لأي شخص أو شعب الحق في السكوت أو الرضوخ أمام انتهاك حقها، فانتهاك القانون وتسميم المجتمع والدولة ناتج عن ذلك الرضوخ، كما إن الدفاع المشروع هو

الوقفة القانونية الأساسية التي لا يمكن التخلي عنها ابداً في ولادة الحقوق واستخدامها، إذ لا يحق للشعوب والجماعات والأفراد التي لا تلبي مقتضيات ذلك ان تعتبر نفسها من البشر أو أن تشكو. إن حقوق الفرد المدنية والاقتصادية والاجتماعية وحقوق الشعوب في الثقافة وحق تقرير المصير التي تعتبر حقوق الجيل الأول والثاني والثالث والتي جعلها القانون الدولي حقوقاً لا يمكن التخلي عنها وإعطائها طابعاً رسمياً تمثل القيم المتصاعدة للعصر، وتشكل إحدى الركائز الأساسية التي تعتمد عليها الحضارة الديمقراطية.

يشكل موضوع القيادة والكوادر أحد القضايا الهامة بالنسبة للمجتمع المدني، إذ هناك حاجة ماسة لمؤسسات تعليمية هامة من أجل مشاريع المجتمع المدني الشاملة، حيث لا يمكن إنشاء هذا النمط الاجتماعي من خلال أشخاص عاديين لا على التعيين، لذلك يجب إنشاء المؤسسات التعليمية التي تخلق الكوادر الأساسية وفق الحاجة وهو أمر لا يمكن التخلي عنه، ويجب أن تكون هذه المؤسسات شاملة وغنية ابتدءاً من المضمون الإيديولوجي حتى المسائل التقنية. كما يجب إنشاء أكاديميات ومعاهد كافية مقتدرة لا سيما في مجال الفلسفة واللاهوت والتاريخ والحقوق واللغة والفن والعلم والقيادة والاقتصاد والسياسة والصحافة والطبع والنشر والرياضة والاتصال؛ لأن نظام التعليم العام لدى الدولة والمجتمع لا يستطيع تخريج الكوادر اللازمة لهذا الغرض، إنما يمكن إعداد هذه الكوادر بطريقة تنسجم مع أهدافها في مدارسها التي تتناسب مع جوهرها وتوطد ذلك عن طريق التجربة.

يجب تناول نمط المجتمع المدني باهتمام من أجل حل البنية التي وصلت إلى طريق مسدود على مستوى الدولة والمجتمع في الشرق الأوسط، والحد من التخريب الذي نجم عن مناهج العنف التقليدية. وسيكتسب الأهمية بالمواقف العملية والنظرية مع مرور الزمن. وعلى الجميع وفي مقدمتهم العرب وإسرائيل، وإيران والعراق والكرد أن يعترفوا بأن جميع مناهج العنف التي تمت تجربتها والمفاهيم التي تقف وراءها لم تنجح في حل التناقضات في هذا العصر. وأصبح لا مفر من مشروع اجتماعي مدني شامل يدرج على جدول أعماله في كل آن حق الدفاع المشروع، فلا يمكن حل مسألة القدس بمفهوم قومي، أما حل المسألة الكردية بهذا الشكل فقد يستغرق قرناً كاملاً، ولن تنتهي الحروب المذهبية والعشائرية. فالمجتمع الذي يتبنى العنف يكون في حالة تمرد دائم، كما لن تتخلى الدولة عن العصا، لان كل تلك الطرق تعمق المأزق وتبقى بعيدة عن العصر.

بالمقابل لا يمكن التخلي عن شكل حلول المجتمع المدني كسند أساسي للحضارة الديمقراطية باعتباره سبيل حل عام واكثر توازناً، من خلال مناهجه

الحلولية وتطوير السلام خطوة بخطوة حسب مقاييس الديمقراطية حتى وان كان بطيئاً أو لم يكن كما يريده الجميع. يمكن لحضارة الشرق الأوسط التي تعتبر فيدرالية طبيعية في التاريخ، أن تصل إلى موقع الأطروحة المضادة عند تطويرها للمجتمع المدني بمقاييس ديمقراطية حديثة، بتشكيل الأطروحة المضادة اليسارية لحضارة الشرق الأوسط، يمكن خلق حملة باتجاه التركيبة اللازمة لكل الإنسانية مرة أخرى كما كان في التاريخ عن طريق إقامة اتحاد ديالكتيكي مع الأطروحة اليمينية للحضارة الأوربية،، ويمكن أن يؤدي دوران التاريخ لعجلته بهذا الاتجاه إلى خطوات عملية ناجحة وآمال متصاعدة.

إن آخر موضوع يجب تقييمه في تكوين الشرق الأوسط لأطروحته المضادة يتعلق بدور الشعوب كقوى فاعلة أساسية. إذاً، عن ماذا يعبر حاملي هذه الثقافة كونهم من أقدم الشعوب في التاريخ بتداخلهم الحضاري في يومنا هذا، وكيف يتطور دورهم في المستقبل..؟ إن الإجابة على هذا السؤال يمكن أن يسلط الضوء على التطورات المحتملة وسنتطرق إليها على مستوى التعريف وبشكل مختصر

أ ـ يأتي الواقع العربي الإسرائيلي ذو الجذور السامية على رأس الظواهر التي شغلت وستشغل المنطقة كثيراً، إذ ترجع جذور المشكلة إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، وكانت الثقافة السامية في مرحلة التكون بين الألف التاسع والألف السادس قبل الميلاد، ومن ثم انتشرت باتجاه الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكانت المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية التي ولدت فيها تمتلك مناخاً ملائماً منذ الألف التاسع وحتى الألف الثالث قبل الميلاد، حيث لعب المناخ الملائم دوراً أساسياً في تكوين القبائل السامية التي أظهرت تأثيرها في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشمالية وشرق البحر المتوسط وحتى ضاف نهر الفرات وجبال طوروس، وتشكلت عدة لهجات سامية مختلفة في هذه المرحلة. لقد أسرع الجفاف الذي حدث في الألف الثالث قبل الميلاد في نزوح القبائل نحو المناطق الملائمة للعيش وكانت بموقع القوة العاملة الأساسية في تكوين الحضارة المصرية والسومرية. وكانت من أولى القبائل التي عملت بالتجارة بين تلك الحضارتين وفيما بينها. لقد أطلق السومريون على هذه القبائل التي توجهت إليهم اسم العموريين"الغربيين"، أما المصريون فقد أطلقوا عليها اسم أبيرو (وتعني القبائل الصحراوية ومن هنا يأتي أساس كلمة عبري). حكم العموريون السومريين تماماً في عصر الأكاديين والبابليين والآشوريين، أما العبريون فقد تراوحوا صعوداً وهبوطاً بين الاثنين. وفي الوقت الذي كان فيه إبراهيم ينزل من أور و"معناها المدينة ذات التلال" أورفا، يخرج موسى من مصر حيث كانت حرب تحرير ضد

الحضارة العبودية إلى حد ما، وانتهت هذه المرحلة بظهور الأديان التوحيدية نتيجة التأثير المكثف من الحضارتين.

يكتسب الدين التوحيدي أهمية من ناحية الحياة الروتينية للقبائل وحاجتها للتوحيد أمام تعدد الآلهة عند المصريين والسومريين. إذ لا يمكن توحيد وتسيير القبائل إلا عن طريق الإيمان بإله واحد وصارم. لقد لعبت تأثيرات ظروف شبه الجزيرة العربية دوراً مصيرياً في هذا الظهور الديني، ونفهم أنه تم الوصول إلى هذه المرحلة بعد الأديان المتعددة الآلهة والطوطمية من خلال حرب تكوين الأديان التوحيدية. إن المرحلة التي بدأها إبراهيم قد أصبحت دين القوم مع موسى، ودينا كونياً مع عيسى وأصبح دين العرب مع محمد، ودين الإنسانية لآخر مرة، إن ما قام به عيسى باسم الفقراء قد قام به محمد باسم التجار، أي باسم الطبقة الوسطى. ونسبة لكونية هذه الطبقات يظهر الاثنان قوة تطور كدين كوني.

أدى إصرار اليهود على دين القوم لأن يصبحوا أحد العناصر الكبرى في التغيير التاريخي. فاليهودية بجانبها هذا هي في موقع القوة الأساسية للتحول والإرغام والتحريض في صدر الإنسانية، وتواصل دورها هذا منذ ظهورها وحتى الآن .

لقد ظهر العرب كآخر جيل للقبائل الصحراوية على ساحة التاريخ بعد أن قاموا بانفجار كبير مع قيام النبي محمد بتجديد دين النبي إبراهيم، ويشكل الإسلام والله والقومية العربية هوية و نسيجاً إيديولوجياً مترابطاً بإحكام، وفي الواقع وكما يتضح من الناحيتين العرقية والدينية، فإنهم أقرباء لليهود، ويأتي ازدياد التناقض فيما بينهم من التمايز الطبقي. وتقدم الصراع خطوة إلى الأمام بين اليهود الذين أصبحوا أثرياء من التجارة، والعرب الذين يعبرون عن آخر اتحاد للقبائل الصحراوية مع ظهور الإسلام. في الحقيقة لقد بدأت هذه المرحلة مع إبراهيم الذي قام بإنطلاقات ضد ملوك المدن السومرية الأغنى من العبريين، كما وجه موسى نفس القبائل العبرية الفقيرة ضد الملكية المصرية. ويتواصل هذا النوع من الصراعات في إسرائيل الحالية، ولم يكن هذا الصراع أقل من صراع الهلينيين مع الرومانيين، والبابليين مع الآشوريين. إذ تعود الخبرة اليهودية الكبيرة في التاريخ إلى الدروس التي تلقوها من هذا الصراع و قوة التجارة. لقد تعرض اليهود إلى أكبر تهجير من قبل الرومانيين بعد الذي تعرضوا له على يد البابليين، وانتشروا في جميع أنحاء العالم بعد عام 70 م.

إن امتلاك اليهود للذهن التجاري الأكثر مكراً في العالم، حرض المجتمعات التي أقاموا فيها وهذا ما أدى إلى تعرضهم للإبادة بشكل متكرر. وأصبح ظهور الدولة الإسرائيلية أمر لابد منه مع الفاشية الألمانية الهتلرية، إن

إسرائيل هي تسديد الأوساط المحيطة وفي مقدمتها العرب فاتورة الإبادة التي مارستها الفاشية الألمانية بحق اليهود. ويأتي اليهود في مقدمة قائمة المجموعات المؤثرة في تطور وانتشار الرأسمالية ولا سيما في الحضارة الأوروبية وأمريكا. ولهم تأثير في التجارة والمال والعلم والفن وحتى في الأماكن الحساسة في السياسة في جميع أنحاء العالم ،تقف وراءهم الحضارة الرأسمالية. لقد ازدادت تناقضاتهم مع العرب حول موضوع الأرض، ولا يمكن إزالة إسرائيل لكن تحول شكلها الموجود يمكن أن ينتج وسائلاً للحل، كما إن تحول القومية العربية أيضاً شرط. وفي حال العكس فإن وجود قوميتين قد يؤدي حتى الى استخدام قنبلة ذرية جديدة. ولإسرائيل تفوق استراتيجي في هذا النمط من الحرب، لكن ذلك لن يفيد المجريات العملية.

وفي القدس تم تعقيد المشكلة لتتحول الى ظلم كبير، والذي أدى الى ذلك هو التشبث بالقومية التي وصلت إلى طريق مسدود في جميع أنحاء العالم، وكأن هذه المدينة المقدسة تحمل لعنة القومية والقبائلية السابقة، إلا أن اسمها يعني القدسية وديار السلام. فكما لعب اليهود دوراً في ظهور أبوية الأديان التوحيدية، كذلك لعبوا نفس الدور في ظهور القومية، ويعتبرون من اكثر الذين تضرروا وأصبحوا ضحية لهذين المفهومين. بالإضافة الى ذلك أدت التجارب التي عاشها اليهود بين الحضارات إلى نشأتهم على قيم قوية في مجالات العلم والفن والاقتصاد، وابتداءً من كتابة الكتب المقدسة وكثير من المؤلفات لرجال العلم والفنون، فقد وصلوا إلى قوة كبيرة من الناحية المادية والمعنوية، حتى كأنهم يحركون كل الإيديولوجيات والمؤسسات الأساسية على أصابعهم.

اما بالنسبة للعرب، فقد ظلوا متخلفين باعتبارهم آخر المجموعات الصحراوية السامية. لكن انتشارهم في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشمالية، أدى إلى وصولهم لثروة وقوة نوعية من الناحية الجغرافية على الأقل، بذلك وقعت مجموعتان ساميتان في وضع المواجهة على الصعيد العالمي، فغدوا ضحايا ما خلقوه من دين وقومية، وبدأت تبتلعهم الوحوش التي خلقوها بأيديهم، ولذلك فإن تجاوز مواقفهما المعتمدة على الدين والقومية هو الحل الوحيد. إذ يجب على هاتين المجموعتين اللتين يمكن أن تلعبا دوراً هاماً في الشرق الأوسط أن تتفقا في إطار مقاييس الحضارة الديمقراطية، وهكذا فان المخرج الوحيد هو الفيدرالية المرنة بدلاً من الانقسام القومي والديني، ويجب برمجة فيدرالية عربية إسرائيلية تحت نظام اقتصاد السوق الحر مع حرية الكيانات الثقافية ولأمد طويل، علماً بأن الفيدرالية ضرورية ايضاً من أجل العرب المنقسمين إلى ثلاثة وعشرين دويلة. فليس للاتحاد العربي الموجود "الجامعة العربية" دوراً وظيفياً كما يجب، بل إن

فيدرالية ديمقراطية عربية ـ إسرائيلية ترغم العرب على التوحد تحت سقف واحد، ومن الواضح أن الشرق الأوسط برمته سيستفيد من هذه الفيدرالية عدا بعض الأطراف الرجعية، ويظهر أنه لا مفر من سير العلاقات العربية الإسرائيلية نحو الحل تحت ظل فيدرالية في القرن الواحد والعشرين، ويمكن للتجربة الديمقراطية لإسرائيل في العالم أن تلعب دوراً تاريخياً في دمقرطة العرب.

لا مفر من ممارسة العلمانية بعمق كجزء لا يتجزأ من هذا التحول الديمقراطي، حيث بات من الضروري تجاوز التخريب والتخلف الذي يجري باسم الدين منذ آلاف السنين، من خلال إصلاحات دينية شاملة، بالإضافة إلى الإصلاحات الدينية فان نجاح العلمانية سيعطي دفعاً للتحول الديمقراطي، كما يستمد منه القوة أيضاً، ويجب تجاوز الإيديولوجية القومية أيضاً، فعندما يتم تجاوز الإيديولوجيات التي تحرض على الصراع في هاتين الساحتين، حينها فان فلسفة الحرية والوحدة العادلة المعتمدة على الدين والحرية ستكتسب الصلاحية، وستجلب هذه المفاهيم الفلسفية الموجودة في أساس الحضارة الديمقراطية السلام والتسامح، في هذه الحالة سيتحقق الوفاق العربي ـ الإسرائيلي والوحدة الديمقراطية بدلاً من الصراع، وسيؤثر هذا التطور على الشرق الأوسط والعالم بأكمله.

سيكون الوفاق العربي ـ الإسرائيلي خطوة كبيرة على طريق السلام والوحدة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وستكتسب الأطروحة المضادة لأطروحة الحضارة الديمقراطية الأوروبية التي تستمد غذائها من الشرق الأوسط، قوة كبيرة من خلال الوفاق المذكور، وسيكون لها تأثير تسلسلي في العالم اجمع، كما ستساهم المرحلة الجديدة التي تبنى على أساس الفيدرالية الديمقراطية في أن يسير الشرق الأوسط نحو تركيب الحضارة الديمقراطية وإلى مرحلة حضارية تليق بتاريخه. حقاً إن النتائج التاريخية للاتفاق العربي ـ الإسرائيلي مهمة جداً، لأن ذلك سيسرع من حل التناقضات الأخرى في المنطقة وسيضغط من أجل الحل الديمقراطي، فالتطور في هذا الاتجاه والذي نرى تأثيره منذ الآن سيكتسب طابعاً سائداً، ولا يمكن انتظار استمرار مرحلة الصراع في جو من عدم الوفاق مطولاً، لأن الظروف المحلية والإقليمية والدولية لن تتحمل هذا الوضع طويلاً، وسنرى أنه لا مفر من السلام المستند إلى التحول الديمقراطي بين العرب أنفسهم، وبين العرب وإسرائيل وكل المنطقة في القرن الواحد والعشرين وتصاعده عبر حملة اقتصادية وفنية متطورة، هكذا سيكون للشرق الأوسط الذي سيكتسب قوة على هذا الأساس، إمكانية خلق تطورات تليق بتاريخه في كل العالم وتطوير الحضارة الديمقراطية نحو تركيبات جديدة.

ب ـ تقاوم الساحة الحضارية الإيرانية في الشرق الأوسط بأصالتها المتبقية عبر التاريخ، وتريد مواصلة الدور الذي تلعبه على مفترق خطوط الحضارة الشرقية والغربية في تجربة دمقرطة الثقافة الإسلامية، حيث يمتد هذا الطابع الإصلاحي في الساحة الإيرانية إلى أقدم مراحل التاريخ. فالحضارة الإيرانية هي التي جعلت العبودية القاسية للسومريين مرنة، كما ويعتبر الإرث الزرادشتي والازدهار البارثي نصراً للإصلاح في العبودية وتحولها الديمقراطي النسبي وفق تلك المرحلة. إن لإيران دور هام في تحضر آسيا، إذ أنها عرضت الحضارة الإقطاعية الإسلامية لإصلاحات منذ استقبالها في اللحظة الأولى، وتمثل الشيعة الإيرانية أول إصلاح إيجابي في الإسلام، وقبلهم أيضاً أراد ماني ومزدك إجراء إصلاحات في النظام العبودي الساساني، كذلك كان بابك بموقع قائد شعب ضد سنية العباسيين، ويرجع سبب انهيار الأمويين إلى التأثير الإيراني، كما أن مرونة العباسيين كانت بتأثير من إيران. لقد كانت الحضارة الإيرانية الصفوية أقرب إلى الشعب من السنية المتصلبة للعثمانيين وتخلفها الإقطاعي المركزي، كما ساندت العلويين أيضاً واستمر الدور الإيراني في إصلاحات القرن التاسع عشر.

كانت آخر ثورة كبيرة للقرن العشرين من نصيب إيران، وإن الشيء الغريب هو أن هذه الثورة لن تنطفئ بسهولة كونها ثورة الشرق الأوسط، ويظهر أنه لا مفر من انحلال التعصب الإسلامي تحت اسم الثورة الإسلامية الإيرانية، وذلك عند توحد تأثير الحضارة الديمقراطية من الخارج مع الطابع الإصلاحي الذي يأتي من التاريخ، وهكذا فإن الثورة الإسلامية الإيرانية إما أن تقضي على نفسها أو أنها ستواجه تعصب الشرق الأوسط تحت اسم الإسلام، وستضغط من أجل حل جذري للمشكلة، لذا لن تزول نتائج الثورة الإسلامية الإيرانية عن الساحة بسهولة، والسائد الآن هو انها تعيش مرحلة انتقالية؛ فإما أنها ستتعصب في داخلها ولن تتحمل الجماهير ذلك، أو ستجد نفسها مضطرة للدخول في مرحلة النتيجة النهائية للإصلاحات، عندها لا مفر من إحداثها موجة إسلامية ديمقراطية في الشرق الأوسط، كما تضغط الديمقراطية الرأسمالية الإسرائيلية من الغرب على القومية والإقطاعية العربية لتشدها نحو التحول الديمقراطي فإن إيران بالذات تحاول القيام بنفس المهمة من خلال التحول الديمقراطي داخل الإسلام من الشرق.

وكأن الإقطاعية الإسلامية ذات الثقل العربي مأخوذة بين فكي كماشة، لا ينتظر استمرار الإسلام الإقطاعي واللاديمقراطي طويلاً، كما أن الوضع الانتقالي الإيراني لن يستمر طويلاً، بل سيتم تحطيمها من قبل القوميين والإصلاحيين في الداخل في حال توجهها نحو التعصب، أما إذا نجحت في التحول نحو الديمقراطية، فإن الاتحاد الفيدرالي الإيراني الديمقراطي سيصبح من أقوى الموديلات التي

ستؤثر في الشرق الأوسط، وستكون الجمهورية الإسلامية الديمقراطية الإيرانية الدعامة القوية للتحول الديمقراطي في الشرق الأوسط، وبما ان هذه الحضارة البديلة قادرة على إنشاء روابط قوية مع أساسها التاريخي، فإنها قادرة أيضاً على حل المشكلة عن طريق الوفاق والسلم من خلال الحضارة الديمقراطية الحديثة، ويمكن أن تكتسب قوة تطوير أطروحة مضادة في واقع إيران في كلا الحالتين، إن إيران مضطرة للقيام بدور مشابه لأنها تعرفت على الدور الحضاري سابقاً، ولا يمكن لإيران أن تبقى دون تأثير على آسيا الوسطى أو القوقاز أو كامل الشرق الأوسط، وسترغب في تحقيق ذلك عن طريق خلق حل إسلامي ديمقراطي بشكل جذري. كما ان نجاحها أو عدم نجاحها موضع نقاش، وسيظهر نظام أكثر تعصباً في حال فشلها وسيكون التشتت نتيجة ذلك. ولكن لا يمكن انتظار تحطم القومية بشكل جذري، إذ سيظهر اتحاد ديمقراطي فيدرالي معاصر في واقع إيران كبديل آخر على الأغلب، وفي حال عدم تحقيق الديمقراطية في إيران فإن فيدرالية إيران الديمقراطية العصرية ستتحقق على المدى البعيد دون الحاجة إلى ستار ديني، وهكذا فإن الاحتمال قوي لتحقيق هذا الخيار في المستقبل البعيد، لقد كانت إيران ذات صفة فيدرالية عبر التاريخ ومازالت مقسمة إلى أربع مقاطعات، لذا فإن فيدرالية إيران الديمقراطية لن تكون مرحلة صعبة، ويمكن أن تكون من إحدى أولى الدول التي ستنضم إلى فيدرالية الشرق الأوسط، كما يمكن أن تصبح الفيدرالية الجزئية التي تشهدها إيران أكثر وضوحاً، وأن تأخذ طابعاً دستورياً.

يمكننا القول بارتياح أن التطورات التي تحدث في إيران ستكون من إحدى القوى الأساسية المتحكمة بالتطورات التي ستجري في الشرق الأوسط في القرن الواحد والعشرين، وتعتبر إيران حجر الزاوية الكبيرة الثالثة في الأطروحة المضادة التي سيشكلها الشرق الأوسط في مواجهة الحضارة الأوروبية، إذا كانت إسرائيل تأتي في المرتبة الأولى والعرب في المرتبة الثانية فلا مفر من أن تكون إيران الثالثة من الناحية التاريخية والجغرافية والتطورات التي تحدث فيها يومياً، وستشكل الأطروحة المضادة للشرق الأوسط قوة كبيرة من خلال الثقل الذي ستكتسبه من إيران. فبينما تمثل إسرائيل هذه الأطروحة المضادة في الحضارة الغربية، سيمثلها العرب في شبه الجزيرة العربية والقارة الإفريقية، أما إيران فسوف تمثلها في القارة الآسيوية. إن الأطروحة المضادة التي ستتمركز في يسار الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط في القرن الواحد والعشرين ستكتسب قوة متعددة الألوان وخلاقة في الواقع الإيراني لخلق تركيبها الجديد للحضارة اللائقة بالتاريخ، وستؤدي إلى خطوات عملية ناجحة من خلال قيامها بالمساهمة التاريخية لآمال الحضارة الجديدة للإنسانية.

ج ـ كما لعبت الأناضول، تركيا أبرز دور في أقصى شمال الشرق الاوسط في كل مرحلة، فإنها كذلك تواصل طموحها في مرحلة الحضارة العصرية، إذ تشكل الأناضول معبر وخط تحول الأنظمة في التاريخ، وقد نقلت القيم الحضارية الشرق أوسطية والتي استمرت خمس عشرة ألف سنة إلى أوروبا عبر منطقة البلقان والقوقاز، وتقوم بنقل قيم الحضارة الأوروبية إلى الشرق الأوسط في القرنين الأخيرين. إذ كان الحثيون ذووا الأصل الآري، بمثابة الشعب الذي يمثل الدور الأول في الألفية الثانية قبل الميلاد، وبشكل أصح كانت عدة شعوب تبدو كشعب واحد تحت اسم الحثيين، وكانت في مرحلة الدخول إلى العبودية حديثاً مع العصر النيوليثي. لقد وقعت الأناضول تحت التأثير الإغريقي بعد سقوط قلاع طروادة ومن ثم فريغيا وليكيا من "1200 ـ 600" ق.م وعاشت المرحلة الهلينية، واستمر ذلك حتى عام 1000 م. حيث استقر الأرمن في الخط الشمالي الغربي والكرد في الخط الجنوبي الشرقي من الأناضول، انفتح الأناضول للعشائر التركية منذ عام 1000 م، واستمر هذا الاستيطان حتى القرن الرابع عشر، حيث تعرضت مع الحضارة السلجوقية والعثمانية الى تمايز طبقي عميق، وهكذا فقد تم التقسيم الطبقي الجذري للأتراك في هذا المرحلة، ففي الوقت الذي أحيا فيه التركمان الموجودين في الجبل خصائصهم التركية بشكل مباشر وحي، فإن تركية المدن شهدت تذويباً قاسياً، واتخذ السلاجقة والعثمانيون المذهب السني الإسلامي أساساً لهم، واكتسب التعصب الإقطاعي قوة في مواجهة الإصلاحات الإيرانية، ان الإمبراطورية العثمانية التي وصلت إلى التوازن الحساس بين الرأسمالية والإقطاعية، قد انتشرت وعاشت بطريقة مريحة لغاية تطور الحضارة الرأسمالية، لكنها لم تصمد كثيراً أمام مرحلة انتشار الرأسمالية وسقطت في بداية القرن العشرين. وحقق الأتراك بقيادة مصطفى كمال أتاتورك نجاحاً في حرب الاستقلال التي خاضوها ضد الاستعمار الغربي ومحيط السلطنة العثمانية التي أصبحت في وضع العميل للغرب، بالإيديولوجية القومية الغربية بدلاً من الإيديولوجية الإسلامية من خلال الاتفاقيات التي طوروها مع البلاشفة في الخارج ومع الكرد في الداخل ضد الكومبرادوريين الروم والأرمن، وبذلك قاموا بانتقال تاريخي إلى المرحلة الجمهورية لتلعب أناضول القرن العشرين دوراً باسم الجمهورية التركية.

عندما أقدمت الجمهورية التركية على قمع الكرد الذين كانوا عنصراً مؤسساً في هذه المرحلة بسبب التمرد، فقدت تركيا فرصة التطور التاريخي لعدم قيامها بالتحول الديمقراطي، وتحول موقعها الذي كان يسمح لها أن تصبح كاليابان، إلى مأزق بسبب المشكلة المذكورة، ومازال هذا المأزق قائماً، فهي في أقر ب موقع إلى أوروبا من حيث جغرافية الشرق الأوسط ومستوى التطور

الحضاري. وتشهد نقاشاً ديمقراطياً مكثفاً، كما لم تستطع التقدم في عضويتها إلى الاتحاد الأوروبي بسبب عدم تحقيقها التحول الديمقراطي، ويرجع سبب ذلك إلى الوجود الكردي، حتى وصلت هذه المشكلة الأساسية القائمة أمام تركيا إلى مستوى تقرير مصيرها، وتشهد ازدواجية إما الحل الديمقراطي في إطار الجمهورية أو أن تنكمش وتصبح هامشية، لم يتم تحديد طريقة حل المشكلة بعد، مع أن الظروف الداخلية والخارجية ترغمها على إجراء حل ديمقراطي.

تمتلك تركيا ظروف اجتماعية قريبة للتحول الديمقراطي، أكثر من أي دولة في الشرق الأوسط. وقد خطت خطوات بهذا الصدد وستصل إلى وضع الانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوروبي إذا قامت بإلقاء الخطوات المتبقية وبذلك فإنها تكون قد أضافت قوة للخيار الديمقراطي للحضارة الأوروبية الديمقراطية وستؤثر على تركية آسيا الوسطى كثيراً. من المحتمل أن تتطور تركيا بهذا الاتجاه في القرن الواحد والعشرين وتصبح بهذه الحالة حجر الزاوية الكبير الرابع للتحول الديمقراطي في الشرق الأوسط، وهكذا فان إسرائيل والعرب وإيران وتركيا ستدخل كقوى أساسية في مرحلة تكوين وتطوير الأطروحة المضادة، وذلك لحل معادلة الشرق الأوسط نحو الديمقراطية، عندها لا مفر من دخول القرن الواحد والعشرين مرحلة حملة متصاعدة بالنسبة لكل المنطقة في حال حدوث حل للصراع العربي ـ الإسرائيلي، ومشكلة التحول الديمقراطي والوحدة بين العرب وقيام إيران ببناء فيدرالية ديمقراطية دائمة "تحت الستار الإسلامي أو الحديث"، والمشكلة الديمقراطية في تركيا التي يجب إكمالها، وبعد إيجاد الحلول للقضايا المذكورة ستخطو فيدرالية الشرق الأوسط الديمقراطية التي تتصاعد فوق القوائم الأربعة الأساسية المذكورة خطوة قوية ناجحة باتجاه تكوين التركيب التاريخي الجديد في روابط ديالكتيكية تبنيها فيما بينها كقوة أطروحة مضادة حقيقية للحضارة الأوروبية.

د ـ يدرك بشكل أفضل وجود الموقع الأصيل للكرد وكردستان في تاريخ حضارة الشرق الأوسط، وضرورة تعريف دور الشعب من أجل الفهم الصحيح للمراحل بشكل أفضل إن كان من زاوية التطورات في الحاضر أو عند نبش التاريخ.

من المؤكد أن كردستان كانت مهداً للعصر النيوليثي لأول مرة في العالم بسبب جغرافيتها وثقافتها النباتية والحيوانية، وهي الساحة التي تحققت فيها الثورة الزراعية والقروية، ومن خلال التنقيبات الأثرية تأكد بأنها تمتلك ثقافة مستقرة تمتد جذورها إلى الألف الحادي عشر قبل الميلاد، بحيث لا يوجد تاريخ أقدم منه في العالم، فنحن مدينون للسومريين ـ من أجل المصادر التي دونها ـ في تسمية

الشعوب التي خلقت العصر النيوليثي، إذ تسمى هذه الساحة وشعبها بمنطقة الجبل وشعب الجبال، ومازالت هذه المصطلحات سارية حتى يومنا، إن كلمة " Kur " تعني الجبل بالسومرية، و"ti" تعني التابعية أو الانتماء، ولذلك تعني كلمة كردي " Kurdi " شعب الجبل أو الجبليين وكما توجد تسميات أخرى للسومريين، وكلمة " Urarti " تعني البلد العالي، و" Guti " تعني الشعب الذي يمتلك الثيران، لأنهم كانوا يحرثون الأرض بواسطة الثيران، وتحولت هذه الحقيقة إلى مصطلحات وتسميات عدة، (فما زال اسم Guti أي الثور موجود باللغة الكردية) و Aryen بمعنى الشعب الذي يحرث الأرض بالمحراث، وأطلق الآشوريون اسم الميديين "Mata" غالباً على اسم الشعب الموجود في موطن المعادن، وأطلق اللويون والميديون اسم "Gondwana" على البلد العالي، وأطلق عليه الإغريق اسم "Komagene -Kurdiana" على شعب الرعاة والخيام، وعندما تم بناء علاقات مع العرب تم تسميتهم بالكرد (جمع لكلمة كردي)، لقد أثبت التاريخ أن السلطان السلجوقي الكبير سنجار قد سمى المنطقة باسم كردستان وتم استخدام مصطلح كردستان والكرد على الولاية والحكومات المحلية في عصر العثمانيين بكثرة وتحدث مصطفى كمال أتاتورك باني الجمهورية التركية عن الكرد وكردستان كعنصر مؤسس أساسي عشرات المرات، وتم استخدام هذه التسميات كثيراً في الأدب العالمي بسبب التمردات في القرن التاسع عشر والعشرين.

يأتي الدور التاريخي للكرد من كونهم الشعب الرئيسي الذي خلق العصر النيوليثي. لقد اثبت بشكل قطعي بان هذه الساحة الشبه سهلية والجبلية التي ترويها نهري دجلة والفرات تتغذيان من سلاسل جبال زاغروس وطوروس، كانت مهداً للحضارية النيوليثية. ومن المؤكد أن السومريين والمصريين والحثيين والبارسيين قد تغذوا من المجتمع النيوليثي القائم هنا، ان وجود الموارد المعدنية هنا واكتسابها لأهمية كبيرة أدى إلى تعرض المنطقة لغزوات واحتلالات كثيرة، وأدت الضغوطات من الأطراف الأربعة إلى بقاء هذا الشعب الكبير الذي خلق العصر النيوليثي في وضع دفاعي باستمرار، وهكذا فإن المصدر الأساسي الذي خلق الحضارة قد أصبح أسيراً لها، هذا يفسر بشكل افضل سبب بقائه على شكل عشائر متصلبة، لأنه لا يمكن الدفاع عن النفس في الظروف الجبلية إلا على شكل وحدات عشائرية، ويمكن الوصول إلى النظام الكونفدرالي كأقصى حد للتطور، وهكذا لم تكن الظروف مواتية لإنشاء مراكز حضارة مدن قوية، إذ أدت جغرافيتها التي كانت في وضع قلعة متنامية في الشرق الأوسط إلى لعبها دور موقع الدفاع الطبيعي، إن تلك الظروف تشرح كيفية وصول الأصالة الثقافية منذ عشرة آلاف سنة حتى يومنا هذا.

لقد تعرض الكرد وبلادهم لجميع غزوات العصر العبودي، وإذا بدأنا من كلكامش السومري نرى أن البابليين والآشوريين والبارسيين والهلينيين والرومان والساسانيين والبيزنطيين والعرب والأتراك والمغول قد قاموا باحتلال المنطقة تسلسلياً، لكن النظام الأساسي هو النظام العشائري، وواصلوا هذا الميراث حتى يومنا هذا بالصراع فيما بينهم والتوحد في بعض الأحيان.

أظهرت الإمارات الكردية تطوراً متميزاً في عصر الإقطاعية، ولعبت أغلبيتها دوراً على شكل دول وحكومات محلية، وعاشت حالة اتفاق لمدة أربعمائة سنة مع العثمانيين، وكان دورهم قوياً في الإسلام والحضارة الإيرانية ما قبل الإسلام على مستوى شخصيات وسلالات بارزة وقوية، وتعرضت الطبقة الكردية العليا لصهر كبير بينما حافظ الوجود العشائري على ثقافته، فلعبت الإقطاعية لأكثر الأدوار رجعية، مهدت السبيل امام النتائج العكسية التي نجمت عن التمردات في المرحلة الرأسمالية، وعند دخول الأتراك إلى الأناضول لعب الكرد دور قوة داعمة أساسية في انفتاح الإمبراطورية العثمانية نحو الشرق في عهد السلطان ياووز وفي فتح شبه الجزيرة العربية، مقابل الحرية العشائرية وبقاءهم على مستوى حكومات محلية، وكان تمزقهم بعد الحرب العالمية الأولى في غير صالحهم، كذلك شاركوا في حرب التحرير وإنشاء الجمهورية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، كعنصر أصيل وشعب منقذ ومؤسس، ثم دخلوا مرحلة التمرد مرة أخرى بعد أن قام النظام الجمهوري بتخريب نظام الإمارة والعشائر وأدى ذلك إلى وضع تخريبي كبير بالنسبة لهم. في الوقت ذاته واجه الكرد وضعاً قمعياً كبيراً نتيجة للتمردات التي قاموا بها، من قبل العرب في العراق، والفرس في إيران من خلال المفاهيم القومية والدولة المركزية، وتعرض الكرد فيما بعد إلى مرحلة تذويب كبيرة.

تبذل المساعي في يومنا الراهن لإبقاء الشعب الكردي في موقعه المسحوق في الشرق الأوسط، ويعتبر تمزقهم ووجود النظام الإقطاعي والعشائري أكبر سبب لبقائهم متخلفين، ولم يستطيعوا التخلص من كماشة الضغط الداخلي والخارجي، ولم تلعب الإيديولوجية الدينية والقومية دوراً إيجابياً في تطورهم السياسي كما حدث عند الشعوب المجاورة، ففي الوقت الذي حول الدين ومفهوم القومية كل من العرب والفرس والأتراك الى دول بتقويتهم كقومية ووطن، أما بالنسبة للكرد، فإنها لعبت دوراً أساسياً في اضطهادهم وتذويبهم، ولم يستطع الكرد جعل الدين الإسلامي الإقطاعي أو الإيديولوجية القومية الرأسمالية دليلاً قومياً لهم، كما لم تسفر محاولاتهم سوى عن ترويضهم. ويعيش الكرد كشعب فقير تعرض لخيانة الحضارات أكثر من غيره، وتتم تغذية الضعف القومي والاجتماعي بالقيم

الإقطاعية والعشائرية دائماً، حيث لم يستطيعوا الارتقاء إلى مواقع قومية واجتماعية أكثر سمواً.

تظهر هذه التعريفات القصيرة أن التحول الديمقراطي هو المخرج الوحيد للكرد من حيث الماضي والحاضر، حيث يعتبر التجاوز العام للدين والقومية وانهيار العشائرية والإقطاعية بسرعة، الظواهر الأساسية التي تزيد إمكانية التحول الديمقراطي للكرد، وتؤثر مقاييس الحضارة الديمقراطية المتصاعدة في كل العالم على هذه المرحلة بشكل أكثر، كما إن إرغام العراق على التحول الديمقراطي من قبل العالم، وإسلامية إيران الديمقراطية، والتحول الديمقراطي المعاصر في تركيا، يشكل تحولاً إيجابياً في الإطار الذي يحيط بهم، كافة هذه التحولات الخارجية والداخلية الهامة تتيح إمكانية إيجاد حل بالمقاييس الديمقراطية للكرد لأول مرة، بنفس الشكل وصولهم إلى وضع ضمانة لوحدة متينة على أساس التحول الديمقراطي بالنسبة لجيرانهم وليس كعنصر تمرد وتقسيم، ولا مفر من دخول القضية الكردية في طريق الحل كلما تسارعت المرحلة الديالكتيكية نحو التحول الديمقراطي بالنسبة لكلا الطرفين، وهذا السبيل هو سبيل السلام والوفاق الديمقراطي، وليس طريق التمرد أو التقسيم. لأول مرة يحصل التاريخ على إمكانية السير والنجاح في خطوات التحول الديمقراطي مع جميع الشعوب التي تحيا مع بعضها.

حمل التاريخ الشعب الكردي دوراً لا مثيل له في هذه المرحلة، وأصبح البقاء في إطار حدود مقسمة عاملاً مساعداً لهذا الدور، كما ان عدم التحول إلى شعب التي سممته القومية زاد من فرص النجاح، فالشعب الكردي الذي حول نفسه إلى شعب ديمقراطي سيرغم البلد والشعب الذي يحيا معه على الحل الديمقراطي، فقد كانت الحركة الكردية تبدو كأداة للتقسيم والألاعيب الخارجية، بينما الآن أصبحت الضمانة للسلام والحرية والأخوة، وأصبح العامل الوحدوي الأكثر قوة للبلد، أساساً للوحدة الدائمة للدولة، وسيتم ذكر تطور تكون فيه المقاييس الديمقراطية الفعالة مستندة إلى الحرية المشرفة في كل مكان أو أي دولة يتواجد فيها الكرد. فالجهل والتمرد والقمع والإبادة الجماعية ليست قدراً مكتوباً على جبين الكرد، بل سيكون الوعي الديمقراطي والمجتمع المدني المتطور والوحدة الحرة هو القدر.

سيكون الكرد من خلال مهمتهم التاريخية أصحاب خطوات التحول الديمقراطي المتين في إيران تحت لواء الجمهورية الإسلامية الديمقراطية أو الفيدرالية الإيرانية الديمقراطية الأكثر عصرية. وسيكونون في العراق الضمانة الأساسية لعراق ديمقراطي أو للفيدرالية العراقية الديمقراطية من خلال موقعهم

الفيدرالي الديمقراطي، وسيلعبون أحد الأدوار الأساسية في ترسيخ الجمهورية الديمقراطية والعلمانية في تركيا كأصحاب خطوات منسجمة ومصممة على طريق الالتزام والديمقراطية، ولا يمكن التقليل من دورهم في خلق سورية ديمقراطية، جلي بأن الكرد سيقومون بهذه الأدوار بنجاح، أي أن الكرد الديمقراطيين سيكونون ضمانة على طريق فيدرالية الشرق الأوسط، وسيكونون القوة الشعبية الأساسية في التحول الديمقراطي والسلام. إن القيام بهذا الدور الذي اوكله التاريخ للكرد سيسير في طريق النجاح من خلال قيامهم بمهمة التحول الديمقراطي بوعي وتنظيم، والتحرك بشكل لائق بالقيادة الاستراتيجية الحقيقية

باقتضاب، فمشروع الحل الديمقراطي للشعب الكردستاني إنما يبعث على النشوة والحماس. ومثلما قدم الكرد مساهماتهم النفيسة في التاريخ ولعبوا دورهم كمنبع أُمّ (النيوليتية) لا ينضب في تطوير حضارة المجتمع الطبقي والمتدوّل السومري الأول؛ فإنهم يسعون اليوم أيضاً، وفي نفس المكان، لتطوير وتصعيد تجاربهم وخبراتهم في الديمقراطية الذاتية، ضمن أجواء تسودها العلاقات والتناقضات معاً مع قوى "الحضارة الوحشية الأمريكية" الأخيرة.

إنهم ينسجون هوية الشرق الأوسط ضمن جميعة (تركيبة جديدة) هيلينية جديدة. سيدور "المغزل" الكردي ويلف ليصل بالمنطقة إلى عصر الحضارة الديمقراطية.

وما يقع على كاهلنا هو ألا نكون عبيداً جدداً لأمثال "كلكامش والإسكندر"، بل أ، نصبح مِعْقَدَ أمل الشعوب لتأمين انضمامها إلى الحضارة بدون أسياد في هذه المرة، وأن نطلق الشرارة الأولى في هذه المرة للشعاع التنويري الأول لدى بزوغ فجر "حضارة الشعوب الديمقراطية والأيكولوجية" التي تحمل بين طياتها المزايا الكونية.

إني على قناعة تامة بأنني قمت بتفعيل وتنشيط تأثيرات مرحلة إمرالي على إحداث التحول لديّ شخصياً بشكل ملفت للنظر في هذه المرافعة. ومثلما تعد مرافعتي هذه محمَّلة بالدروس والعظات الفريدة بالنسبة للشعب الكردي والرفاق أولاً وللأصدقاء أيضاً، فهي كذلك بالنسبة للمناهضين لي ثانياً. لذا فعليهم بالتأكيد استنباط العبر اللازمة وتفهُّمها كدعم هام لمن له حاجة باستخلاص الدروس. وكلي إيمان بأنني برهنتُ على كوني قريبٌ وأهلٌ كفؤٌ لأيوب الذي اجتر الآلام المريرة في سبيل الإنسانية، ولسيدنا إبراهيم الذي وصل بهذه العواطف السامية إلى مرتبة الإدراك الإنساني. فحكاية الثقافة الخالقة للإنسانية في يومنا الحاضر، مخفية في قصص الأنبياء تلك. وما فعلتُه ليس سوى العمل على تكييفها مع لغة العصر لتسهيل قراءتها. وسيستمر التاريخ في قول كلمته الفصل لأجل إحراز النصر.

إن الثقافة الهيلينية التي وجدت منبع التطور الأصلي في هذه الثقافة، قد كوّنتْ جميعة (تركيبة جديدة) في هذه الأراضي على يد الإسكندر، بسحقها الناس كالنمل والدوس عليهم. وما كان من حصتي في هذه الثقافة لم يكن إلا مؤامرة أثينا. والجواب الذي أعطيته تجاهها إنما هو "مناهضة نهج إسكندر" تجاه كل الثقافات الغربية والهيلينية على الصعيد الإدراكي والوجداني، لا الجغرافي. وكلي أمل بأن يصبح اسمي "المناهض لإسكندر".

يوجد في الشرق الأوسط الأرمن والآشوريون وشعوب ذات جذور قوقازية ودور هذه الشعوب يشبه دور الكرد. وكافة الظروف تأمر قيام هذه الشعوب بالعمل في طريق التحول الديمقراطي مع القوى الموجودة باعتبارها المنقذ الوحيد، وتزداد إمكانيات تطوير كيانها الثقافي والحرية بشكل يوازي تطور التحول الديمقراطي في الدول التي يتواجدون فيها والشرق الأوسط عامة، فهذه الشعوب التي تمتلك قيمة كبيرة على صعيد نقل الثقافة رغم قلة عددها، تمثل قوة وغنى وموزاييك التحول الديمقراطي.

عندما ننظر إلى الشرق الأوسط كوحدة متكاملة على أساس هذه التحليلات نلاحظ بأنه يعتبر اكثر تخلفاً من الكثير من دول العالم، وهو يسير في طريق بعيد عن ماضيه التاريخي العظيم، ولا يدرك تاريخه بعد، ولم يقدم على أي عمل يليق به، حيث تحكمه مجموعات هامشية نظمت مصالحها بخطوط الاستقلال المزورة وبتجسيد أقرب إلى الاستسلام، فلا تعتمد على قيم الحضارة الأوروبية تماماً ولا على جذور الشرق الأوسط، فحتى إن كان قد ظهر بعض القادة اللائقين بالتاريخ كاستثناء، إلا انها ستبقى بعيدة عن الضغط على البنية العامة، ويصعب على الشرق الأوسط الذي لم يحقق الثورة النهضوية والتنويرية بشكل متكامل أن يغير هذه الصورة، ففي الوقت الذي تتوجه فيه معظم دول العالم نحو اتحادات إقليمية وعالمية، فإن بقاء الشرق الأوسط بعيداً عن استراتيجية مشتركة وخطوات التوحد في داخله إلى هذه الدرجة ليست لصالح شعوبها، ولن يتحمل تاريخ الشرق الأوسط القريب والشبيه بالفيدرالية هذا التشتت، فالظروف الإقليمية والداخلية للبلدان التاريخية تضغط تدريجياً من أجل التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط.

إن توجهي إلى أوروبا بنوايا الوفاق مع الإمبريالية التي ضغطت في الوقت الذي كنت أبحث عن الحق وأنا في الشرق الأوسط هي حقيقة. إن بذل الجهود من أجل إيجاد إمكانية حل معقول ضمن مقاييسهم الديمقراطية، قد جاء في الأولويات بدلاً من التوجه إلى الجبال الذي يفتك بالأرواح، مع أن الجبال كانت الرونق الحقيقي لأحلامي دائماً، لقد صبرت أربعين عاماً من أجل الصعود إليها، لكن كان من المستحيل ان أقوم بترجيح أو خيار فردي يؤدي إلى مزيد من الآلام في صفوف أصدقائي وشعبي، لأن أخلاقي المسؤولة ومفاهيمي لا تسمح بذلك، صحيح إنني لم أتوقع أن دخولي إلى أوروبا بهذه الأفكار سيؤدي إلى هذه النتيجة المأساوية، ومن الصحيح أيضاً أنني لم أضع في الحسبان أن الخيانة والمصلحة ستنتفض وستفقد حساسيتها أمام هذا الوضع إلى هذه الدرجة، لقد اجروا حساباتهم وكيلهم ثم القوا بي إلى موطن آكلي لحوم البشر في أفريقيا بخيانة ودناءة، ويدعون

بأنهم خدعوني وعلبوني بمهارة ليضعوني في تابوت في إيمرالي، وبذلك ضمنوا مصالحهم المتزعزعة .

إذا كان هذا الوضع موجوداً، فإنه يتناقض مع القانون الأوروبي. ومشاهدتي لموقف المحكمة كمقياس للحضارة أمر هام بالنسبة لي، لكن والأكثر من ذلك، هو انه إذا تم الذهاب إلى أوروبا كشخص مستسلم لأمكن إيجاد مكان لي فيها، ونظراً لأن ذلك لم يتحقق لي، فإن إيجادي لطرح مضاد كان يمكنني من إقامة العلاقة مع أوروبا، وكان ذلك مرتبطاً بإبراز الطرح المضاد لحضارة الشرق الأوسط على الأساس التاريخي في مواجهة الحضارة الأوروبية، وقد حاولت تحليل وإظهار هذا الأمر، وأعتقد إنني نجحت ولو بشكل محدود في ذلك كما وإنني مؤمن بأنني استطعت الإجابة بشكل عام على الآراء والنقد الذي لم يستطع الكثير من الأصدقاء والرفاق إيصاله إليّ لعدم توفر الإمكانيات، وقد كان ذلك ضرورياً، ومهما كانت النواقص فإنني مقتنع بأنني قمت بمسؤولياتي.

ما قدمته من آراء وانتقادات هو بمثابة دفاع حاولت إعداده تحت تأثير مؤامرة ثقيلة وفي نظام الحجرة المنفردة،

يمكن مغالطة وتحريف بعض تقييماتي حول الدين والرب فقط، لكن لأؤكد منذ الآن أنني أمتلك قوة بهذا الموضوع أكثر من أي شيء آخر ومصمم على تعميق الثورة الإيديولوجية، كما ان الثورة الذهنية تحظى بأهمية كبيرة بالنسبة لي، ويجب أن أؤكد أيضاً على إيماني بتطوير الوجدان الحر، الذي يعرف كيف يسمع، فبدون القيام بثورة ذهنية ووجدانية لا يمكن أن يكون الإنسان حساساً وأخلاقياً هذا ناهيك عن ان يصبح ثورياً.

يجب أن أؤكد بأن نفسي قد اطمأنت لأنني قدمت جواباً للجميع ولشعبنا وذلك بالمستوى المتعلق به، أقدم تقييماتي هذه باسم ضحايا المآسي ولاسيما شهداء السجون. مع التأكيد أنني قدمت جواباً جزئياً إلى الملتزمين بشخصي من أعماقهم وأصالتهم، ولم يبق لي أي جانب عائد لي سوى أن أكون ملكهم أكثر من أي وقت مضى، وأقدم محبتي الكبيرة وتحياتي للجميع.

والمجد للإنسانية...!

الفهرس

مدخل **4**

الفصل الاول
آ – إمكانية الفهم الصحيح للشرق الأوسط
ما هي المشكلة، وكيف تطورت؟ 12
ب ـ الإسلام ـ القوة الثورية في العصر الإقطاعي 27

الفصل الثاني
الوضع الراهن في الشرق الأوسط، والمستجدات المحتملة 100

تحليل الدولة في فوضى شرق الاوسط 107
المراة هي القوة من اجل العملة الديقراطية 110
الاقتصاد 112

الفصل الثالث
هل سيصبح التراث الثقافي في الشرق الأوسط تركيباً للحضارة الجديدة.. ؟ 148